

الجزء الأول



فوزي آل سيف



الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م


بسم الله الرحمن الرحیم



بين يدي الكتاب

أكرم الله الإنسان بالإسلام، وجعله محلا لخطاب الله عز وجل وعهد إليه أعظم مهمة يعهدها لمخلوق فشرفه بمعرفته ثم العبادة وجعل هدف خلقته مقصورا عليها فقال ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾، وكلفه بعد ذلك بعمارة الأرض وإصلاحها[1]، بعد أن سخرها له[2] وخلق ما فيها من أجله[3] ليربح فيها.

كل ذلك جعل الإنسان محل كرامة الله وتفضيله على من عداه من خلقه[4]، فصار آدم أصل البشر قبلة سجود الملائكة..

ذلك التكريم لم يكن خاصا بصنف معين من نوع الإنسان وإنما كان لصنفيه: ذكره وأنثاه، بشرط الالتزام بالسعي نحو الهدف الذي خلق له هذا الإنسان والعمل الصالح للوصول إليه، ذلك أنه ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[5].

---

(١) ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود آية ٦١.

(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ سورة الحج آية ٦٥.

(٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ سورة البقرة آية ٢٩.

(٤) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ سورة الإسراء آية ٧٠.

(٥) سورة النحل آية ٩٧.

المشكلة التي حدثت هي الفهم الخاطئ لطبيعة الرسالة السماوية، ذلك الفهم الخاطئ الذي عطل فكر الرسالة عن الفاعلية في المجتمع وعن تحريك المنتمين إليها، بل سبب في حالات كثيرة الانفضاض عن تعاليمها وآفاقها الرحبة.

من حصيلة ذلك الفهم الخاطئ وأحيانا عدم الفهم أننا وجدنا من يعيد تدوير ثقافة ما قبل الرسالة، لتعود في لباس ديني بزعمه فإذا كانت الرسالة السماوية تدعو إلى التحرير وجدنا من يدعو إلى العبودية ويلبس تلك الأفكار الجاهلية لَبوس الإسلام، وإذا كانت تدعو إلى المسؤولية والاختيار وجدنا مع يدعو إلى التواكل والجبرية وكل ذاك باسم الدين وآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، بل وصل الأمر إلى أن تعاد العقائد الجاهلية في موضوع الإيمان بالله في صورة (إسلامية).

ومن الفهم الخاطئ بل المعكوس ما يرتبط بالمرأة، فإن قسما من الناس في زمان نزول الوحي بل وحتى في الوقت الحاضر لم يكونوا قادرين على فهم البصائر الجديدة التي جاء بها القرآن أو مع فهمها لم يكونوا مستعدين لقبولها نفسيا، فكيف يكون الشخص الذي يقاتل ويمنع الحريم، وينفع ويضر مساويا في المنزلة لمن ﴿**يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾؟

ولا يزال إلى اليوم هذا (الشعور الجاهلي) يربك قسما غير قليل من المسلمين، وإن كانوا حضريي النشأة.. لا تزال المرأة عندهم (مشكلة) دائمة، و(مصنعاً للعار). لا يزال الحديث عنها بعبارة (حاشاك، أعزك الله، الأهل وأنت بكرامة!!). وهذه الثقافة والحالة النفسية لن تعدم بعض النصوص التي تؤخذ مجتزأة، ومجردة من ظروفها السياسية والاجتماعية، وأحيانا الزمنية لكي تكون هي القاعدة والقانون العام..

أما حديث الآيات التي تتكلم عنهما بصيغة واحدة، وتبين فضل صاحب الفضل بغض النظر عن الجنس فدعك عنها إذ ليست سوى مجاملات!!

لا يزال هؤلاء يعيشون المشكلة فلا هم باقون ضمن الحالة الجاهلية رسميا، ولا هم قادرون على الانسجام مع ما يريده الإسلام، فتراهم في كثير من الأحيان أكثر (غيرة) من الله على الحرمات، وأكثر (حرصاً) من التشريع على صيانة الأخلاق!! فالاحتياط عندهم هو الأصل، وهو نظام الحياة مع أنه بهذه السعة التي يتصورونها معيق للحياة الإنسانية.

في المقابل نحن نجد أن الإسلام قد أعز المرأة باعتبارها أحد أفراد النوع الإنساني الذي قد فضله الله وأكرمه بمقدار طاعته والتزامه، وأكرمها بالخصوص فهي تارة (حسنة) يثاب عليها والدها، وأخرى «**ريحانة أشمها ورزقها على الله**» و«**ليست بقهرمانة**» للخدمة أو الأعمال الشاقة، بل كان «**من أخلاق الأنبياء حب النساء**»[1]، و«**كلما ازداد العبد إيماناً ازداد حبًّا للنساء**»[2]، وكما سيتبين في الصفحات القادمة من حياة المؤمنات الصالحات أنهن كن أهلاً لما ذكر الله ورسوله.

نعم حين يراد تجاوز هذا الحد من التشريف والمسؤولية فيطلب ما هو أكثر يكون في غير محله، وحين يوكل إليهن ما ليس لهن، وما لا ينبغي منهن ينقلب الأمر على رأسه تماما كما هو في كل مورد.

مما بينه الإسلام فيما يرتبط بدور المرأة في مجتمعها أمور كثيرة، ولكن نقتصر في هذه المقدمة على بعضها، ولعل في الاستعراض الآتي لحياة المؤمنات ما سيوضح المزيد:

١- **تعليم المرأة**: التعلم والمعرفة بداية الحركة الصحيحة في الحياة، وما

---

(١) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة ج٧، عن الإمام الصادق عليه السلام

(٢) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة ج٧. وقد ذكرنا في كتاب (الحياة الشخصية عند أهل البيت عليهم السلام) أنه ليس المقصود من هذه الأحاديث الحب الشهواني والمبالغة فيه، فإن ذلك مذموم في أحاديث أخرى حيث جعل أول ما عصي الله تبارك وتعالى به ست خصال: إحداها حب النساء.. بهذا المعنى الشهواني.

جاء دين بما جاء به الإسلام من حث على ذلك، وهذا ظاهر فـ« **فما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة** » كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام. وفي هذه الجهة لا يختلف أمر المرأة عن الرجل، بل ربما كان بالنسبة إلى المرأة تبعا لما تمثله من موقع تربوي للأولاد، وتأثير مهم في صيانة البيت الزوجي أكثر أهمية.

إن عمومات لزوم التعلم والمعرفة شاملة للمرأة بنفس مقدار شمولها للرجل إلا ما خرج بالدليل فيما يرتبط بتعلم الشؤون الدينية وما يتصل بإدارة حياتها الشخصية والزوجية، من أحكام ومعارف.. فلا أحد يتوهم أنه ليس على المرأة أن تتعلم أحكام عباداتها بالمقدار الواجب. كما لا يقبل قول أحد في أنه لا ينبغي لها التعلم لغير الأحكام بما يكفل لها حياة أفضل، ويعطيها تجربة أحسن في إدارة بيتها وعلاقاتها الاجتماعية.

٢- **عمل المرأة:** بالرغم من أن الإسلام قد أوكل إلى المرأة أعظم دور في الوجود وهو تنشئة الإنسان، وصياغة شخصيته، وعجينة نفسه في وقت مبكر حيث ينطبع فيها كل شيء، ومن هناك تتقرر الصحة النفسية والمرض، والعقد الداخلية، بل تتكون الجرائم وتغرس في تلك الأيام والسنوات، وتنتج بعد عشرات السنين.

هذا الأمر الذي لا ينتبه له في عالم اليوم، فهم ينشئون المصحات العقلية، والمراكز النفسية وغير ذلك، ولا يستطيعون أن يصلوا إلى نتيجة طيبة، فإن الغرس إذا كان شوكا فلا ينفع فيه التقليم في ما بعد. فضلا عن تغييره.

أعني بما سبق تربية أطفالها حين تصبح ذات أطفال، وإدارة بيتها الزوجي بنحو طيب.

مع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة مجالا للعمل في بناء مجتمعها، وحده بحدود لا تنتهي بها إلى إلغاء خصوصيتها، ولا تسيء إلى كرامتها وشرفها الإنساني، والتزامها الديني.

العالم المعاصر والحصاد المر:

تماماً كما هو السراب، ينظر إليه العاطش من بعيد، فيرى فيه الماء الرقراق الذي يتغلغل في كل خلية من خلاياه فيكسبها قوة وارتواء، ويعطيه نشاطا وحياة بعدما كان ينتهي إلى التجفاف والموت، ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾ وعجيب تعبير القرآن، وكم فيه من أعاجيب، فهو لا يقول أنه وجده شيئا غير مفيد، بل ليس بشيء أصلا. هكذا هو مثال القيم الغربية والحياة والنمط الثقافي الذي يدعو إليه المتغربون مجتمعنا الإسلامي.

أو كقوس قزح فيه من الألوان المتراقصة والجميلة ما يخلب الألباب ويشد الأنظار، ويصنع البهجة والإعجاب، حتى إذا غير الناظر زاوية النظر، أو تغير الوقت، وتبدلت جهة انكسار الضوء الشمسي الكاشف، وإذا به ينتهي و﴿**لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾.

الناظرون إلى الحضارة والإنجاز الغربي وهو عظيم حقا في مستوى الآلة والتنظيم الظاهري وبائس ومريض إلى النخاع في مستوى القيم والنظام الأخلاقي عادة ما ينبهرون بالسراب ويتصورونه غدير ماء بارد في صحراء الكون الحارقة، لكنهم بعد التأمل وأحياناً بعد التخبط لا يرون شيئاً.

لقد وصل الإنسان الغربي بما أتاحه الله له من إمكانات عقلية سيطر فيها على خامات الطبيعة إلى مدارج من الكمال الظاهري والتقني لم تكن لتخطر على بال أحد، ويتعب المرء لو أراد أن يتابع ما ينتج كل سنة فضلا عن الأيام.. ولا يستغرب أن يأتي يوم يستطيع فيه العالم أن يجري كل شؤونه من خلال الأزرار. لكنه بقي في النظام الأخلاقي بائسا، فدمر نفسه، وأصبحت خطورته أكثر من السابق، فإذا كان المجرم في السابق يستطيع أن يدمر العشرات، فإن تدميره اليوم يعد بعشرات الألوف، وإذا كان المفسد في السابق يستطيع أن يلوث قرية أو مدينة، فإنه اليوم يستطيع أن يقضي على الأخلاق في بلاد بأكملها.. وهكذا «يداك أوكتا وفوك نفخ».. لو أردنا أن

نتتبع ﴿الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والناتج ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ لطال المقام، لكننا نورد نماذج بما يتصل بوضع الأسرة والمرأة مما هو مرتبط بموضوع الكتاب هذا.. وسوف يتبين لك عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، كيف أن العبودية التي عاشتها المرأة في الزمن القديم، والجاهلية التي تمرغت فيها هي بالنسبة إلى ما تعانيه المرأة اليوم في عصر الانحطاط الأخلاقي ستكون جنة الرفاه.

كيف سحقت الأسرة؟

لا يختلف اثنان في أن قوة المجتمع تابعة لقوة النظام الأسري فيه، ولذا كانت الديانات السماوية وحتى المفكرون الإصلاحيون يصرون على إيجاد أفضل القوانين التي تكفل للمجتمع وجود أسرة صالحة متماسكة والتي بدورها تعيد إنتاج الصلاح والقوة.

النمط الذي يسود اليوم في العالم الغربي، والذي تبشر به قيم الثقافة الغربية أو تنتهي إليه هو ما تكشف عنه الإحصاءات التي ستقرؤها بعد قليل. إننا عندما نتحدث عن هذه النتائج فلا ندين النهاية، ولا نتحدث عن آخر المشوار وإنما نحذر من أن يسلك المجتمع الإسلامي طريقاً هو الذي انتهى بتلك المجتمعات إلى تلك النهايات.

إن الثقافة، ونمط القيم الذي يحكم مجتمعا هو الذي ينتهي به إلى بر الأمان أو إلى الكارثة ويخطئ من يظن أن المشكلة كلها في الحجاب أو السفور، في هذا المظهر أو ذاك، المشكلة كل المشكلة هي في النموذج.. هي في المثال والقدوة.

❁ ❁ ❁ ❁

في البداية صار أمر العلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج أمرا طبيعياً بينما كان قبل ذلك وفي جميع المجتمعات ينظر إلى فاعله على أنه زان،

ومخالف للنظام الاجتماعي العام، وربما كان البعض يتستر في البداية، لكن فيما بعد أصبح الأمر طبيعياً بحيث لا مانع عند الطرفين بل حتى المجتمع أن يعيشا تحت سقف واحد وينجبا ولا يزالان غير زوجين!.. وقد ذكرت بعض الإحصاءات أن في الولايات المتحدة قرابة ٣٥ مليون متزوج يعيشون ضمن علاقات خارج البيت الزوجي. أي أكثر من ١٠٪ من عدد السكان كلهم!

ونتيجة لذلك عاد أمر الزنا والسفاح شيئا عاما وغير مستنكر، وصارت الولادات غير الشرعية شيئا كبيرا جدا. ففي إحصائية منشورة ذكر أن واحدا من ستة أطفال يولدون في بريطانيا يولد نتيجة سفاح[١] وبينما كانت نسبة الولادات غير الشرعية تقدر بـ(٤٪) في الخمسينات فقد ارتفعت في كثير من الدول الأوروبية إلى (٢١٪) من مجموع الولادات في عام ١٩٨٦م باستثناء الدانمارك التي سجلت معدّلاً أوروبيّاً عالياً بلغ (٤٣٪).

ماذا يبقى من الأسرة، بعدما أصبح الإشباع الجنسي خارج نطاقها اكثر إمتاعا وأقل تكلفة ومسؤولية؟ وصار بإمكان الشخص أن يأتي بطفل ساعة يشاء ويتركه حينما يريد؟ وأصبحت المرأة تستطيع أن تتعايش مع هذا الشخص على أسس خاصة فمتى ما رغبت في غيره تركته لغيره وأحيانا مع حضوره! ولا يستطيع الاعتراض![٢]

وكان نتيجة ذلك أن انتشر وباء الطلاق طاحناً العوائل والأسر وملقياً بالأولاد في أحضان الجريمة والفساد.

❁ ❁ ❁ ❁

(١) مجلة عالم المرأة، عدد أكتوبر عام ١٩٨٥م.

(٢) تؤمن المحاكم في فرنسا الدفاع عن الزوجة من احتجاجات زوجها، وهناك عدة قضايا حُكم فيها على الزوج أن لا يتدخل في الشؤون التي تخص زوجته بعدما اعترض على علاقاتها مع آخرين مع أنها زوجته!!

وهنا يأتي دور النموذج وأهمية المثال..

المثال الذي صنعوه لنسائنا وبناتنا من خلال الأجهزة الإعلامية والقائم على أساس أن قيمة المرأة بجسدها، وجمالها وثيابها، وأن سعادتها هي في أن تكون في الاحتفالات والأضواء، وأن تنتمي إلى المجتمع المخملي، حتى ظنت بعض النساء أن من هم في الخارج ليسوا سوى هذه الصور الملونة والجميلة، وأن عليها أن تسعى (للسمو!!) إلى ذلك المستوى. مثال الممثلات و(الفنانات) و(بطلات) الأفلام.. هذا مثال باطل وتافه. فهو إضافة إلى أنه لا يعكس الحقيقة حتى في حدود ما ينقل عنهن، فضلا أن يكن معبرات عن وضع المرأة عموما في مجتمعهن.. هذه الانتحارات التي تنقل بين فترة وأخرى والانهيارات التي تصاب بها الكثير منهن، تكشف عن المشكل الحقيقي الذي تعيشه هذه النسوة.. وصلن إلى المال وإلى الأضواء، وإلى الشهوات ولكن لم يصلن إلى السعادة.

صرفن من الأموال الشيء الكثير على الجسد، وأصبحت مقاييسه بالسنتمتر والغرام ومع ذلك لا يزلن يفقدن الرضا فضلاً عن الإحساس بالسعادة.

نحن نحتاج إلى إبراز النماذج الأكمل التي عاشت حياتها الدنيوية بسعادة، وهي في الآخرة إلى خير عظيم.

❁ ❁ ❁ ❁

هذا الكتاب الذي بين يديك يتعرض إلى حياة مؤمنات كن في رحاب أهل البيت الطاهرين عليهم السلام، استفدن من توجيهاتهم في صياغة حياتهن بعيداً عن انحرافات الواقع الذي كان يحيط بهن. وقد انتخبت خمسة أسماء حول كل واحد من المعصومين عليهم السلام تماماً كما فعلت في (رجال حول أهل البيت عليهم السلام).

وبالرغم من أهمية الموضوع هذا إلا أن الكتابات عنه قليلة، فنحن نجد في كتب الرجال أسماء لراويات عن الأئمة عليهم السلام، وأحياناً لصحابيات تحت عنوان من لم يرو عنهم. وفي كتب السيرة تجد أسماء لنساء.. لكن عندما

تفتش عن سيرتهن وحياتهن.. لا تجد شيئا على الإطلاق غير الاسم وأحيانا كلمات عنها مبعثرة هنا أو هناك.. ولو استثنينا بعض النساء اللاتي كان لهن دور بارز وقد حفظ التاريخ جملا مهمة من سِيَرهن فإن الباقيات وهن الأعم الأغلب ليس لهن من الذكر إلا شيئاً يسيراً وقد حاولت بمقدار استطاعتي وما توفر لي من المصادر أن أستخرج من هذا اليسير ملامح السيرة، وأن أستقرئ من المواقف بداياتها أو نتائجها مما يساهم في تجلية صورة هذه المؤمنة أو تلك بالمقدار الذي ينفع لو أريد الاقتداء بهن.

لعلي لم آت بشيء جديد وإن كانت نيتي ورغبتي كذلك، ولكنها المحاولة وهي حيناً تصيب وحيناً تخيب، ولكني أرجو من الله ثواباً على قدر النية لا على العمل الخارجي. وبما هو شأنه من الإكرام لا بما أنا أهله. وقد تكون فكرته باعثاً لآخرين ليأتوا بالجديد فأكون من جملة الدالين على الخير.

❁ ❁ ❁ ❁

يلاحظ أن جملة من المصادر قد تم فيها الاعتماد على البرنامج الكمبيوتري الممتاز (المعجم) الذي أصدره مركز المعجم الفقهي الذي أسس تحت إشراف آية الله العظمى الگلبايگاني ﴿رحمه الله﴾، ولذا ربما يلاحظ القارئ عند المراجعة بعض الاختلاف بالنسبة إلى الطبعة الموجودة لديه في رقم الصفحات والإرجاع إليها.

❁ ❁ ❁ ❁

هناك نقطة أخرى وهي أن الصحبة هنا هي بالمعنى الأعم الذي يتحدث عنه الرجاليون والذي ينطبق على من عاصر المعصوم معترفا بإمامته، وقد لا يكون روى عنه أو شاركه في دور من الأدوار وقد تتعدد صحبة الشخص بناء على هذا لأكثر من معصوم، وحينئذ سيكون المؤلف بالخيار في وضعه صاحب الترجمة في أصحاب المعصوم الأول أو الثاني وهكذا صنعنا في هذا الكتاب.

❁ ❁ ❁ ❁

الثالثة: أنه بالرغم من كون هذا الكتاب مخصصا للحديث عن النساء المؤمنات حول أهل البيت عليهم السلام، إلا أنك ستجد عزيزي القارئ فيه أحاديث في سيرة الرجال الرساليين أيضا، فهذه زوجة فلان، وتلك أخته والثالثة بنته، ولطبيعة الترابط الموجود أحيانا في السيرة التاريخية والموقف يتعين الحديث عن الرجال كما نتحدث عن هذه النساء المؤمنات، وبالتالي ففي هذه الصفحات أيضا هناك ترجمة وإن كانت سريعة لحياة مجموعة من المؤمنين الرساليين حول أهل البيت.

كما ستجد فيها بعض التحقيقات التاريخية، فبالرغم من أن الكتاب لا يهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الروايات التاريخية وإبداء النظر فيها على أهمية ذلك إلا أن هناك مناقشات وشيئا من المعالجة للروايات التاريخية التي تتصل بالمناسبة كما ستجد ذلك في مناقشة المحقق المقرم رحمه الله حول أم البنين عليها السلام، وأحيانا مع بعض المؤرخين كما في التعرض لفاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام

وقد لا يخلو من الإلفات إلى جهات عقائدية عند التطرق إلى نقل بعض الروايات أو ما يرتبط بها من مسائل فقهية بحسب المناسبة وبالمقدار الذي لا يخل بالإطار العام الذي يؤطر الكتاب.

أخيرا: نحن نعتقد أن المرأة في مجتمعنا الإسلامي بما تشكل من موقع متميز في تأثيرها صلاحاً وفساداً على نواحيه المختلفة تحتاج إلى عناية أكبر من قبل الإسلاميين والموجهين، عن طريق وضع البرامج المناسبة والرائدة في جعلها تتحمل مسؤولياتها الجسيمة والتي لها ارتباط مباشر بصلاح المجتمع.

وتقديم القدوة والنموذج واحد من تلك البرامج الثقافية، وعسى أن يتبع ذلك صنع النموذج الحي الذي يكرر سمية وأم سلمة ومارية العبدية وفاطمة بنت الحسين وغيرهن.

فوزي آل سيف

شعبان ١٤٢٢هـ

كلمات كالمقدمة

* من المشاكل التي يعيشها الكثير من المسلمين، تضخم عقلية (سد الذرائع) وسيطرتها على الفكر والاجتماع الإسلامي. وتحولها إلى قيد مانع يحجز عن الإبداع، والتطوير في مختلف المجالات، فإذا أريد القيام بعمل معين، برزت مجموعة من الآثار السلبية الجانبية بشكل طبيعي، حيث يترافق كثير من المشاريع مع آثار سلبية محتملة. وحيث إن العقلية السائدة هي عقلية (دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة)[1]، وأنه لا بد من سد الذرائع والأبواب التي قد يتسرب من خلالها الفساد.. تتم مصادرة تلك المشاريع، والقضاء عليها بهذه المبررات.

ولقد وجدنا في بعض البلدان الإسلامية أنه كان يتم منع النساء من التعلم، بزعم أنه يفتح عليهن أبواباً من الفساد، فلا بد إذن من إبقائهن بدون تعلم ومعرفة.

ووصل الحال والمبالغة فيه إلى حد يتصور معه أن الدين أصبح قيدا

(١) وقد يناقش في تلك القاعدة بأن المنافع والمفاسد تختلف بحسب القلة والكثرة، فرب نفع يكون جلبه أولى من دفع المفسدة، وعلى فرض التساوي من حيث القلة والكثرة لم يقم برهان على أن دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة، ولم يظهر من طريقة العقلاء أن بنائهم على ذلك. راجع فوائد الأصول ـ تقريرات الشيخ النائيني للشيخ محمد علي الكاظمي ج ٣ ص ٤٥١

للمعاصم، وقفلا للعقول، بينما الدين هو الذي يفتح آفاق الإنسان المؤمن به ويضع عنه الإصر المفروض عليه، لكي ينفتح على الحياة ويسير في آفاقها، ويتعرف على ما أودعه الله سبحانه وتعالى فيها من أسرار، لو استكشفها عاش حياته بسعادة، واستثمرها لصالح آخرته.

وانعكس هذا على رؤية بعض العلماء للعقيدة[1]، وللشريعة، وللتاريخ، فكما ذكرنا تحول (سد الذرائع)[2] الذي لو ثبت فهو استثناء، تحول إلى قاعدة مطردة في كل مكان.. وأصبحت كما ذكرنا فكرة معيقة

---

(١) شتان بين ما ذكره المنهاجي الأسيوطي في كتابه جواهر العقود في وصفه لرسول الله ﷺ بقوله: وصلى الله على محمد المنعوت بالتبجيل والتعظيم الموصوف بالتشريف والتكريم الذي سد الذرائع!! وبين ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من وصفهم النبي ﷺ بأنه الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق (وفي بعض النصوص والفاتح لما استقبل).

(٢) الذريعة هي الوسيلة المفضية إلى أحد الأحكام الخمسة، وتأخذ تلك الوسيلة ـ كما ذكره أصوليو الجمهور ـ حكم ما يتوصل بها إليه، وجعلوا هذه قاعدة مهمة، وفرعوا عليها كما ذكر الشهيد الأول في القواعد والفوائد فروعا ربما وصلت إلى الألف!! بينما هي كما ذكر السيد محمد تقي الحكيم في الأصول العامة للفقه المقارن ـ مع غض النظر عن صلاحية ما استدلوا به من الأدلة عليها ـ لا تعدو كونها من صغريات السنة أو العقل.. قال السيد الحكيم: لأن اكتشاف حكم المقدمة أما أن يستفاد من العقل بقاعدة الملازمة، بمعنى أن العقل يحكم بوجود ملازمة بين الحكم على شيْ والحكم على مقدمته، فإذا علمنا أن الشارع قد حكم على ذي المقدمة بالوجوب فقد علمنا بحكمه على المقدمة كذلك، وعندها تكون من صغريات حكم العقل وليست أصلا برأسه، وأما أن يستفاد من طريق الملازمة اللفظية أي من الدلالة الالتزامية لأدلة الأحكام، كما هو مبنى فريق بدعوى أن اللفظ الدال على وجوب الصلاة هو بنفسه يدل على لازمه وهو وجوب مقدماتها، وعليها يكون وجوب المقدمات مدلولا للسنة، فتكون المسألة من صغريات دليل السنة، وقد عرفت أن الأدلة السمعية التي ساقها ابن القيم على كونها أصلاً لا تعدو أن تكون إرشادية لحكم العقل بالملازمة. فقول مالك وأحمد وابن تيمية وابن القيم: أنها من أصول الأحكام في مقابل بقية الأصول، لا يتضح له وجه.

للكثير من محاولات التطوير والنهوض في المجتمع الإسلامي.

وإذا كان هذا الأمر قد يتعقل في الوسط الفقهي والفكري (السني) باعتبار أنهم يعتبرون سد الذرائع قاعدة برأسها وأصلاً مستقلاً، فإنه لا يمكن أن يتعقل في الوسط الفقهي والفكري (الشيعي) الذي لا يعطي لتلك الفكرة، ذلك الاعتبار والأهمية، ولكننا مع ذلك نجد آثار (سد الذرائع) موجودة بقوة في الوضع الاجتماعي الشيعي، وقد يكون هذا راجعاً إلى ضغط الحالة التقليدية الاجتماعية على المفكرين، بل على العلماء!![1]

وتتعرض المرأة في قضاياها المختلفة إلى عقلية (سد الذرائع) بنحو كبير، ففي تعليمها أول ما يتبادر إلى الذهن أن لا تستفيد من هذا العلم في الانحراف والفساد! وفي عملها يقال بأنه يجب أن لا يكون ذريعة للعلاقات المحرمة، ونشاطها الاجتماعي يجب أن لا يكون.. وهكذا.

ووصل الحال بنا إلى أن نمنع المرأة صلاة الجماعة في المسجد، والاستماع إلى المسائل الشرعية، لاحتمال أنها إذا خرجت تكون كذا وكذا!!

فلماذا لا تكون هذه القيود أيضا موجودة بالنسبة إلى الشباب من الذكور؟ ولماذا يعطى للرجال حصانة لأنهم رجال، فلا تكون هذه الشروط موجودة بينما تكون كذلك عند الحديث عن كل امرأة.. وكأن كل النساء ينتظرن الفرصة وينظرنها من بعيد حتى إذا وصلن إليها لم يكن همهن إلا إفساد الآخرين!! وإذا وجد بعض ما فيه هذا المعنى من الروايات فإنه لا بد ـ على فرض سلامتها سنداً

---

(١) يتحدث عدد من المفكرين كالشهيد مطهري وغيره عما سموه بـ(سلطة العوام) على المؤسسات الدينية، ونحن وإن كنا لا نوافق ذلك الطرح بعرضه العريض، لكنه لا شك في وجود محاولات كثيرة من العوام لإلجاء العلماء أن يتخذوا مواقف فقهية تنسجم مع التقاليد والأعراف ولو لم تكن ضمن رأيهم الفقهي.. وربما يكون الكثير منها غير موفق في النتيجة لكن حديثنا هو في المحاولة نفسها. ولا سيما ما يرتبط بالقضايا الاجتماعية.

ـ من توجيهها وتأويلها لكذب العموم فيها وجدانا[1].

وتعال معي وتطلع إلى خطابات الخطباء وكتابة الكتّاب ـ وقد يكون هذا الكتاب منها ـ فستجد أن الأكثر عندما يتحدث عن النساء لا يستطيع أن يتحدث بصراحة وذلك من ضغط المجتمع وسلطة العوام، فيضطر إلى أن يقيد كلامه بشرط كذا، وعلى أن لا يكون كذا..

ولك أن تأخذ في الحجاب والبرقع مثالا.. فبالرغم مما هو معروف من أن غالب علمائنا الأحياء لا يوجبون ستر قرص الوجه، وإن استحسنوه.. إلا أن الكثير من الرجال لم (يهضم) مثل هذه الفتاوى فراح يراجع، ويعيد السؤال للمراجع الدينيين، ويغير معطياته ومقدماته، ويفرض لكشف الوجه محاذير دينية واجتماعية، ويبين (سيل الفساد) الذي سيدمر العوائل والمجتمع على أثر ذلك.. كل هذا من أجل أن يحظى بتغيير من المراجع فيما توصلوا إليه من الحكم الشرعي، ويفتوا بحرمة كشف الوجه..

ولسنا في صدد الحديث عن حرمة أو حلية ذلك، ولا نعتبرها أهم قضية وإنما لنبين كيف أن المجتمع ـ انطلاقاً مما لديه من تقاليد أو أعراف ـ مستعد وبالذات في جهة المرأة لكي يصل إلى تغيير الحكم الشرعي في جهة التقييد والمنع.

* هناك قضية أخرى تزيد الوضع تعقيدا وهي وقوع المرأة ميدانا لتصفية الحسابات بين معسكرين فكريين، وتدفع المرأة ضريبة أصل المعركة، وضريبة انتصار أي من الفريقين!! مشكلة المرأة بين (الإسلاميين)[2]

(١) وذلك أننا نشاهد بالعيان تلك النساء المؤمنات الفاضلات سواء في الحاضر أو نسمع عن الماضي، وأن المجتمع قد بني على عمودي الآباء الفاضلين والأمهات الصالحات..

(٢) قد لا تكون هذه التسميات منطبقة تمام الانطباق على التيارات المتسمية بها، ولكننا نقولها للتمييز والتصنيف فقط.

والمتغربين أن كلا منهما يظهر صراعه مع الآخر في ميدانها! فالمتغربون ليس عندهم شيء سوى تحرير المرأة بالمعنى الاجتماعي (رفض الحجاب والخروج عن العرف الاجتماعي والديني.. إلخ) والإسلاميون ليس لديهم سوى رفض ما يقوله المتغربون، والميل زيادة في التحفظ إلى التكثير من القيود، والتشديد.

وتدفع المرأة الضريبة على كلا التقديرين، فإذا فاز المتغربون في مكان وجدتهم قد تركوا القضايا الأساسية لصالح أمور ظاهرية، وأخرى شهوية، وما شابه وبقي التخلف هو التخلف، وانتهاك شخصية المرأة بحاله.. ولك في التجربة التركية خير مثال..

وإذا سيطر هؤلاء ـ غير المنفتحين ـ وجدت القيود، الموجودة أصلاً كنتاج للتخلف، قد زادت أضعافا، ولك في تجربة حكم طالبان في أفغانستان أوضح نموذج.

والمشكلة أن المغروس في الأذهان هو أنه لا يوجد خط آخر، ولا منطقة وسطى تحافظ فيها المرأة على شخصيتها، وفي نفس الوقت تقوم ببناء مجتمعها.. مع أن الفهم الصحيح للدين يقضي بذلك!

وما سنجده من تراجم لهذه الشخصيات يبرهن على ما سبق ذكره!

* من الأمور التي ينبغي التنبيه عليها هي أن قسما من الكتاب ـ ولعل كاتب هذه السطور ـ منهم عندما يكتبون عن هذا الموضوع، يكونون متأثرين ـ بدرجة أو بأخرى ـ بالمحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، والوسط الثقافي الذي يتعاملون معه، بل بالوضع الشخصي لهم، فإذا كان الكاتب يعيش في وسط كالباكستان أو أفغانستان، أو بعض بلاد الجزيرة العربية، فإنه ـ في العادة ـ لن يستطيع الكتابة كذلك الذي يعيش في ماليزيا أو حتى لبنان ومصر!!

والذي يعيش في أسرة محافظة تقليدية، أو مع زوجة مشاكسة، لن يكتب كالشخص الذي يعيش مع امرأة متعقلة واعية، فإن قسما من الناس يميل إلى التعميم بناء على تجربة خاصة لا مجال فيها للتعميم. ويرى الحكم العام من خلال نموذج يتعايش معه..

ثم يقوم بنسبة ذلك إلى الإسلام، وتوجيهات الدين، وبالطبع لن يعدم هذا أو ذاك أدلة، وروايات، وغيرها.. في البرهنة على ما يذهب إليه!! فأنت تجد الكل يكتب عن الإسلام ونظرته، ومع ذلك تجد إسلاما بمقاييس الطالبان، وإسلاما في الطرف المقابل له!!.

وتخلص الكاتب من وضع الشخصي وتجربته الخاصة، بل محيطه الاجتماعي، ليس من السهولة بمكان..

* ثمة نقطة أخرى لا بد من الالتفات إليها، وهي خطورة الفهم التجزيئي المعتمد على النظر إلى جانب من الأحاديث أو النصوص.. وهذا ناشئ بدوره عن انفتاح غير المختصين على تلك النصوص.

إننا ندعو إلى أن ينفتح الجميع على الآيات القرآنية، وأحاديث المعصومين عليهم السلام ولكننا في الوقت نفسه نشير إلى أن غير المختص ينبغي أن يتريث قبل (الإفتاء) بأن هذا هو رأي الدين، ثم يرتب عليه آثاراً..

ولقد وجدنا كيف كانت النتائج أشبه بالكارثة، عندما مارس البعض ذلك الفهم التجزيئي في ميادين السياسة!! لقد صارت الرؤوس تدحرج عن أبدانها ذبحا، وأمام أجهزة التصوير في منظر لا يمكن تصور بشاعته.. وصار المجتمع كله هدفا لبعض المتأسلمين، فإذا بالسيارات المفخخة وغيرها تحصد الأرواح البريئة ـ حتى بحساباتهم ـ!

وفي ميدان الفكر وجدنا كيف أن بعض المذاهب، أخطأت المذهب فإذا بهم يتمسكون بظواهر بعض الآيات، وينحون منحى جبريا فيسلبون

الإنسان إرادته واختياره، ومسؤوليته تجاه فعله، ويستدلون على ذلك بما في القرآن ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[1].. لقد جهلوا أو تجاهلوا العشرات من الآيات التي تتحدث عن مسؤولية الإنسان تجاه عمله[2]، والنعم التي أعطاها إياه ربه. وأن الله زوده بقوى الهداية بعدما جعل فيه إمكانية الضلال ودعاه إلى تزكية تلك النفس لكي يفلح[3].

وفي قضايا المجتمع: إن قضية مثل قضية المرأة لا ينبغي أن ينظر إليها بنظرة عابرة من خلال الاقتصار على آية ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾[4] أو الاكتفاء بالنظر إلى عدد من أحاديث (ناقصات العقول) أو ما شابهها..

وإنما الصحيح لكي يخرج المتأمل بنظرية متكاملة عن نظرة الدين إليها أن يجمع الآيات والروايات، فينظر ما فيها من محكمات وما فيها من متشابهات، وأي النصوص الروائية ناظر إلى حالة مؤقتة، وقضية خارجية، وأيها الآخر ناظر إلى طبيعة المرأة، وأيها ناظر إلى تحديد الرؤية الدينية تجاهها. ليس من المعقول أن تعالج قضية بهذا القدر من الأهمية، من خلال رواية أو روايتين، وخصوصا مع ضعفها، بل لا بد من النظر إلى محكمات الآيات، والأصول العامة الواردة في الروايات، ثم ترد تلك الروايات إلى هذه الآيات، وهذي الأصول.

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (النحل:٥٦)، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨).

(٣) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٧-١٠).

(٤) النساء: ٣٤.

محاولة لفهم أحاديث في شأن المرأة:

لا تشاوروهن!!

يوجد عدد من الروايات ظاهرها أنه ينبغي ترك مشاورة النساء عموما، وأنه إذا أريد مشاورتهن فإنما هو لأجل المخالفة!! وقد شاع هذا المعنى في الأوساط الرجالية بحيث أصبح حتى صغار السن من الذكور يرون أنهم لا ينبغي أن يشاوروا النساء ولو كن راجحات العقل، أو أمهات حكيمات!! بل ربما رأى بعض الأولاد أن على أمهاتهن أن يسمعن كلامهم!! دون العكس لأنه لا ينبغي المشاورة مع النساء!!

والذي يهمنا هنا هو إلقاء نظرة على الروايات الواردة في هذا الباب، والتأمل في معناها..

فقد نقل في الكافي بسنده[١] عن الصادق عليه السلام أنه قال: إياكم ومشاورة النساء فإن فيهن الضعف والوهن والعجز.

وفيه أيضاً[٢] عن إسحاق بن عمار، رفعه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد الحرب دعا نساءه فاستشارهن ثم خالفهن.

وفي البحار، عن كتاب الإمامة والتبصرة لعلي بن بابويه بسنده[٣] عن

(١) عن محمد بن يحيى عن أبي عبد الله الجاموراني، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن صندل عن ابن مسكان، عن سليمان بن خالد قال: سمعت أبا عبد الله: السند غير معتبر بأكثر من واحد

(٢) محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سيف: السند فيه الحسين بن سيف ابن عميرة وهو ممن لم يوثق بتوثيق خاص فتكون الرواية ضعيفة، لكنه مذكور في رجال مزار بن المشهدي، وعلى رأي بعضهم يكون ثقة بهذا الاعتبار.

(٣) عن هارون بن موسى، عن محمد بن علي، عن محمد بن الحسين، عن علي بن أسباط، عن ابن فضال: فيه محمد بن علي بن معمر وهو ممن لم يذكر بتوثيق.

الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، قال: «**شاوروا النساء وخالفوهن، فإن خلافهن بركة**».

ونحن ـ بعد الغض عن أن كثيراً من إسناد تلك الروايات لا يتمتع بميزة الاعتبار ـ نسجل هذه الملاحظات لعلها تنفع في فهم الأحاديث المتقدمة، وأمثالها:

الأولى: أن بعض الروايات معللة، بمعنى أن علة عدم المشاورة مذكورة فيها، مثل الرواية الأولى حيث قال: «**إياكم ومشاورة النساء فإن فيهن الضعف والوهن والعجز**» والعلة كما هو معروف تعمم وتخصص، أي أن من كان فيه الضعف والوهن والعجز فلا ينبغي مشاورته، والحكم في حقيقة الأمر بالنسبة للواهن والعاجز والضعيف، سواء كان رجلاً أو امرأة.. «نعم لما كانت النساء ـ نوعاً ـ أقرب إلى تلك الصفات خُصت بالذكر». وهذا يذكرنا بعدد من الأصناف التي ذكرت فيمن لا ينبغي مشاورتهم، مثل البخيل والجبان وأمثالهم.. فعدم المشاورة يدور مدار الصفة لا الجنس. فقد تحدثت الروايات عن عدد من الأصناف ممن لا ينبغي مشاورتهم[1]: منهم الجبان، والبخيل، والحريص، والكذاب، والأحمق، حتى لو كان هؤلاء رجالا متدينين!

فعن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يا علي لا تشاور جباناً فإنه يضيق عليك المخرج، ولا تشاور البخيل فإنه يقصر بك عن غايتك، ولا تشاور حريصا فإنه يزين لك شرها. وعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتابه للأشتر لما ولاه مصر -: لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور.

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تستشر الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد

(١) ميزان الحكمة – محمدي الريشهري، ج ٢ ص ١٥٢٥

ويبعد عليك القريب.

ومثلما كانت هذه الصفات مانعة عن استشارة أصحابها، فإن مثلها من العاطفة ومقدار من التسرع موجود في كثير من النساء، وأما من جربت بكمال، فينبغي أن تكون خارجة من حكم هذه الروايات، فلا مانع من استشارة المرأة اللبيبة الكاملة، وقد ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام استثناء من جربت بكمال[1].

الثانية: أننا نجد في القرآن الكريم ما يشير إلى مشاورة بعض النساء، والقبول منهن، وأن رأيهن كان هو الراجح، كما في مثال بنت النبي شعيب عليه السلام، عندما أشارت على أبيها أن يستأجر نبي الله موسى عليه السلام ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾[2]، وعندما يقص نبأ بلقيس، يشير إلى بعض صفاتها الحسنة، مثل أنها شاورت الرجال، ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ**﴾ وبينما يظهر القرآن الكريم صورة أولئك الرجال والمستشارين الذين كان ينبغي فيهم أن يلتزموا جانب الحكمة والتعقل، لكنهم أجابوا بما هو سيئ، ونحوا منحى التصعيد والقتال، ﴿**قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾، إلا أنها اتخذت القرار المناسب والنتيجة كانت أنها بعثت للنبي سليمان بهدية، ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾، وصار بها الأمر من التعقل والحكمة إلى أنها آمنت بسليمان.. ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[3].

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن فطام الطفل يوصي بالتراضي والتشاور بين أب الطفل وأمه، ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ**

---

(١) كنز الفوائد للكراجكي، وكنز العمال للمتقي الهندي وغيرهما.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٦.

(٣) النمل الآيات من ٣٢ إلى ٤٤.

كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[(١)].

وفي موضوع الزواج وقبول الزوج فقد يقال بمشاورة الرجل للأم، كما روى الجمهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: آمروا النساء في بناتهم.

وأما في سيرة النبي ﷺ فنحن نجد أكثر من مورد في قبوله مشورة بعض النساء، فقد ذكر المؤرخون في السيرة انه بعدما توفيت السيدة خديجة عليها السلام، أشارت عليه خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون ـ ويظهر أنها هي التي وهبت نفسها للنبي فيما بعد ـ كما ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات ناقلا عن رواته:

جاءت خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمية امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة!

فقال: أجل فكانت أم العيال وربة البيت!!

قالت: أفلا أخطب عليك قال بلى فإنكن معشر النساء أرفق بذلك فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي وخطبت عليه ﷺ عائشة بنت أبي بكر فتزوجها فبنى بسودة بمكة وعائشة يومئذ كانت بنت ست سنين حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة[(٢)].

كما نقل رواة السيرة كذلك ما جرى بينه وبين أم سلمة في صلح

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٨ / ٥٧

الحديبية، فقد أشارت عليه بأن يحلق رأسه ويخرج لهم لكي يقتدوا به فقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان سبب نزول هذه السورة (سورة الفتح) وهذا الفتح العظيم، أن الله عز وجل أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في النوم، أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلق مع المحلقين، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا، فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن، وساق رسول الله صلى الله عليه وآله ستا وستين بدنة، وأشعرها عند إحرامه، وأحرموا من ذي الحليفة ملبين بالعمرة، قد ساق من ساق منهم الهدي مشعرات مجللات» وساق قصة الحديبية وصدهم المشركون وكيفية الصلح. إلى أن قال عليه السلام: «وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم، فامتنعوا وقالوا: كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت، ولم نسع بين الصفا والمروة؟ فاغتم رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك، وشكا ذلك إلى أم سلمة، فقالت: يا رسول الله انحر أنت واحلق، فنحر رسول الله صلى الله عليه وآله وحلق، فنحر القوم على غير يقين، وشك وارتياب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله تعظيما للبدن: رحم الله المحلقين. وقال قوم لم يسوقوا البدن: يا رسول الله، والمقصرين؟ لان من لم يسق هديا لم يجب عليه الحلق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ثانيا: رحم الله المحلقين الذين لم يسوقوا الهدي، قالوا: يا رسول الله والمقصرين فقال: رحم الله المقصرين» الخبر[1].

(١) مستدرك الوسائل – الميرزا النوري ج ٩ ص ٣١٢ / علي بن إبراهيم في تفسيره: عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن سنان ونقل الشيخ اليوسفي في كتابه موسوعة التاريخ الإسلام، عن مغازي الواقدي ٢: ٦١٣: لما فرغ رسول الله من الكتاب... قال لأصحابه: قوموا فانحروا واحلقوا! فلم يجبه منهم رجل إلى ذلك! فقالها رسول الله ثلاث مرات، كل ذلك يأمرهم، فلم يفعل واحد منهم ذلك! فانصرف رسول الله حتى دخل على زوجه أم سلمة مغضبا شديد الغضب، قالت: واضطجع، فقلت له: ما لك يا رسول الله؟ مرارا [وهو] لا يجيبني. ثم قال: عجبا – يا أم سلمة – إني قلت للناس: انحروا واحلقوا وحلوا مرارا، فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي! فقلت: يا رسول الله، انطلق إلى هديك فانحره فإنهم =

وهذا يعني أن من جربت بكمال عقل ـ في الحدود العادية لا الكمال الكلي ـ فإنه لا مانع من مشاورتها والأخذ برأيها.

وهذه القضية أيضا بدورها يمكن أن تفسر لنا المراد من القول: أن النبي كان إذا أراد الحرب شاور نساءه فخالفهن. فقد يكون المقصود بعض تلك النساء ممن لم يبلغن مبلغ أم سلمة في رجاحة العقل، وقد يكون ـ على تأمل ـ تخطيطا من النبي ﷺ ليعمي على الكفار، توجهه فإنه ﷺ عندما يخبر تلك النساء بأمره ويشاورهن فيشرن عليه بجهة، ليس بعيدا أن يتسرب الأمر إلى خارج هذه الدائرة، فإذا اتبع النبي ﷺ ما أشارت عليه به النساء كُشف أمر الغزو لأعدائه لا سيما مع وجود اليهود والمنافقين في المدينة، واختلاطهم بالمسلمين واطلاعهم على أحوالهم.. وأما لو خالف ذلك فإنه يحمي خطته الحربية من الانكشاف.. وقد نقل كُتّاب السيرة النبوية أنه كان إذا أراد جهة في الغزو عمّى عليها وربما اتجه في بادئ أمره إلى غير جهتها ثم انعطف إليها..

الملاحظة الثالثة: ما سيأتي في الحديث عن معنى ناقصات العقول، هو أن الأحاديث تشير إلى واقعة سياسية، وأخرى فكرية[1]، سوف تتبع فيها

= سيقتدون بك. فقام واضطبع بثوبه [الإحرام، جعل طرفه تحت إبطه الأيمن والآخر على كتفه الأيسر] وأخذ الحربة وخرج يزجر هديه، وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعاً صوته: بسم الله والله اكبر. فما أن رأوه نحر حتى تواثبوا إلى هديهم فازدحموا عليه. وأكل المسلمون من هديهم الذي نحروا، وأطعموا المساكين والمعتر (المتعرض للسؤال) ومن يسأل ممن حضر غير كثير. وحين فرغ النبي من نحر البدن دخل قبة له من آدم حمراء فحلق الحلاق رأسه، فخرج من قبته وهو يقول رحم الله المحلقين – ثلاثا – فقيل يا رسول الله، والمقصرين؟ فقال: والمقصرين. وقد حلق ناس، وقصر آخرون. وقصر النساء. والذي حلق النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم خراش بن امية. وقد أقام بالحديبية بضعة عشر يوماً أو عشرين.

(١) روى بعضهم عن رسول الله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن الحميراء»!

الأمة النساء، ويأتمرون فيها بأمرهن، وستخاض الحروب[1] بقيادة بعض النساء.. مع أنهن يكره مشاورتهن!!

الملاحظة الرابعة: هي أنه يحتمل أن يكون المعنى في «شاوروهن وخالفوهن» أنكم لستم ملزمين بعد الاستشارة باتباع ما يقلن لكم ويشرن عليكم، فيمكن أن تستشيروهن ولكم أيضا أن تخالفوهن.. وقد ذكر بعض الأعاظم هذا حيث قال في تفسير (وشاورهم في الأمر): لا يستلزم العمل برأيهم والاستعانة بذلك، ولهذا ورد في مشاورة النساء: شاوروهن وخالفوهن بل فيها فوائد الأمن من اعتراضهم إذا وقع أمر يسوءهم وتطييب لقلوبهم واستمالة لهم بإظهار اعتبارهم وحسن المداراة والخلق معهم كما مر، وترغيب للناس في المشاورة كما في الأخبار أيضاً[2]. وهذا الكلام معقول لولا أن في بعض تلك الروايات تذييلا هو: ففي خلافهن البركة.

الملاحظة الخامسة: يحتمل أن ما ورد من الحث على مخالفة النساء وأن طاعة المرأة ندامة، يقصد منه ما فسرته أحاديث أخر، بأنه المخالفة في ما يؤدي إلى المحاذير الشرعية، مثلما ورد مرويا[3] عن الصادق عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه في النار، قيل: وما تلك

---

(١) ينقل السيد العاملي في كتابه الصحيح من سيرة الرسول الأعظم ٦/ ٨٥، عن مغازي الواقدي أنه: لما انتهت قريش إلى الأبواء، ائتمروا في أن ينبشوا قبر أم محمد، وقالوا: (فان النساء عورة، فان يصب من نسائكم أحدا، قلتم: هذه رمة أمك. فان كان برا بأمه - كما يزعم - فلعمري لنفادينهم برمة أمه، وان لم يظفر بأحد من نسائكم، فلعمري ليفدين رمة أمه بمال كثير، إن كان بها براً. وكانت زعيمة هذا الرأي هند زوجة أبي سفيان، فاستشار أبو سفيان أهل الرأي من قريش، فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا.

(٢) زبدة البيان، المحقق الأردبيلي، ص ٣٣٣.

(٣) علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام: فيه النوفلي ولم يوثق. لكنه مذكور في رجال تفسير علي بن إبراهيم ـ القسم الأول ـ.

الطاعة؟ قال: تطلب منه الذهاب إلى الحمامات والعرسات والعيدات والنياحات والثياب الرقاق..

ومن الواضح أن في تلك الأمور محاذير شرعية. أما لو كان مثل الحمام للتنظف، والأعراس لقضاء الحقوق الاجتماعية، فلا مانع منه كما هو واضح.

وهكذا ما فسرته أحاديث في أن المقصود بالمشاورة هو المشاورة في أسرة الزوج وقرابته، والعادة قاضية في الغالب بأن دخول الزوجات[1] في مثل هذا الأمر من شأنه أن يعقد العلاقة بين الزوج وبين أرحامه وأسرته.. وهذا ما تشير إليه روايات مثل: «لا تشاوروهن في النجوى ـ القضايا السرية ـ ولا تطيعوهن في ذي قرابة».

ومن جهة أخرى لكيلا يتحول الوضع في البناء الأسري إلى أن يكون الرجل مدبَّراً ومداراً وتابعاً فإن «كل امرئ تدبره امرأة فهو ملعون» وذلك لأنه عكس المعادلة الإلهية ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء**﴾.

ولعل هناك جهة ثالثة وهي أن التعود على الاستجابة لطلبات الزوجة والمرأة ـ حتى لو كانت حقاً ـ يستدرجها إلى غير المعروف في طلباتها، ولذلك كان من اللازم أن يوضع حد في ذلك، وأن لا يشعر الرجل أنه مطلوب منه أن يستجيب لكل ما تريده منه المرأة، وأن لا تشعر المرأة أنها لا بد أن تنفذ طلباتها، وأن (طلبها أمر لا يُرد) ولهذا ورد: «ولا تطيعوهن في المعروف فيطمعن منكم في المنكر»[2].

(١) نتحدث عن الغالب وإلا فإن هناك استثناءات واضحة في هذا الأمر بحيث يكون دخول الزوجة فيما بين زوجها وأسرته إيجابيا للغاية.

(٢) في مثل هذا النوع من الأحاديث يحتمل أن يكون ناظرا إلى فئة من النساء، كان يلاحظها المعصوم عند حديثه، وأن وضع هؤلاء النساء هو بهذا النحو الذي لو تمت الاستجابة له في المعروف لطمع في المنكر. فيكون قضية في واقعة، وحديثاً ناظراً إلى حالة خارجية ذات زمان ومكان وأشخاص معينين. أو هو كما ذكر في المتن.

* إن التحذير من أن يشاور الرجل من ليس من أهل الرأي ينبغي أن يكون مرة وذلك لأن الابتلاء به قليل، ولكن معاشرته لزوجته دائمة وتأثره بها لجهة العلاقة العاطفية تأثر كبير، ولعل هذا ما يشير إليه ما ورد في الحديث: « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن »..

ناقصات العقول:

أيضاً من الأفكار التي يتناقلها عادة الرجال، لبيان (فضلهم، وعلو شأنهم) أن النساء ناقصات العقول، وأن الرجال بالتالي هم الكاملون عقلا. ومن المناسب أن نسلط بعض الضوء على هذه الكلمات، الواردة في عدد من الروايات لنرى ماذا تعني:

* فقد أخرج أحمد بن حنبل في كتابه المسند[١] عن رسول الله أنه قال: يا معشر النساء تصدقن وأكثرن فإني رأيتكن أكثر أهل النار لكثرة اللعن وكفر العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن!! قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال أما نقصان العقل والدين فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين.

* وروي عن أمير المؤمنين أنه خطب في جيشه فقال[٢]: « ... ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ناقصات القوى والأنفس والعقول، وقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعير بها وعقبه من بعده »..

وكذلك نقل الشريف الرضي في نهج البلاغة[٣] عن أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) ج ٢ ص ٦٦.

(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٥ ص ٩٥.

(٣) نهج البلاغة، ج ١ ص ١٢٩.

فقال: - ومن خطبة له عليه‌السلام بعد حرب الجمل في ذم النساء:

معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان نواقص الحظوظ نواقص العقول. فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن. وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال. وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد. فاتقوا شرار النساء. وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر.

ونقل الحر العاملي في الوسائل[1] أيضا عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه‌السلام حديثا يقرب مما نقله في مسند أحمد، لكن مع تفصيل..

الحسن بن علي العسكري عليه‌السلام في (تفسيره) عن أمير المؤمنين عليه‌السلام في قوله تعالى: ﴿ **أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾ قال: إذا ضلت إحداهما عن الشهادة فنسيتها ذكرت إحداهما الأخرى بها فاستقاما في أداء الشهادة عند الله شهادة امرأتين بشهادة رجل لنقصان عقولهن ودينهن، ثم قال: معاشر النساء خلقتن ناقصات العقول، فاحترزن من الغلط في الشهادات، فان الله يعظم ثواب المتحفظين والمتحفظات في الشهادة، ولقد سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: ما من امرأتين احترزتا في الشهادة فذكرت إحداهما الأخرى حتى تقيما الحق وتنفيا الباطل إلا وإذا بعثهما الله يوم القيامة عظم ثوابهما، ثم ذكر حديثاً طويلاً يتضمن ثواباً جزيلاً..

والاحتمالات في هذه الكلمات متعددة:

١ - فيحتمل أن تكون ناظرة إلى الوضع السياسي الحرج الذي خاضه المسلمون أيام أمير المؤمنين عليه‌السلام حيث قادت زوجة النبي عائشة حرب الجمل ضد أمير المؤمنين عليه‌السلام وقد اتبعها عدد كبير من المسلمين، فخالفت زوجة النبي نص القرآن الذي أمر نساء النبي بأن يقررن في بيوتهن ﴿**وَقَرْنَ فِي**

(١) وسائل الشيعة الحر العاملي ج ٢٧ ص ٣٣٥.

﴿بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾[1]، وخالف المسلمون ما هو مرتكز في الأذهان من أنهم ينبغي أن لا يسيروا خلف امرأة خصوصا في مثل ذلك الأمر المهم الذي نشأ عنه عشرات الآلاف من القتلى والجرحى.. ولعل تأكيد النبي على أنه لا ينبغي أن تتولى المرأة أمر الرجال، في وسط أصحابه، كان له ارتباط بهذا الأمر.

ولهذا يحتمل عدد من الباحثين أن تكون تلك الكلمات ناظرة إلى الوضع السياسي وناقدة له، وليس لها إطلاق فضلاً عن العموم، ليشمل كل النساء. فقد قال المرحوم السيد الشيرازي قدس سره[2]: إن أمير المؤمنين إنما أشار إلى واقعة خاصة في تنقيص المرأة المعهودة وليس المقصود به كل النساء، حيث أن كلامه هذا كان بعد فراغه من حرب الجمل.

أو أن تكون تلك الكلمات ناظرة إلى قضايا خارجية، بأن يتحدث عن عدد من النساء أو نساء معهودات، فليس لها نظر إلى كل النساء في كل الأزمنة.. تماما مثلما أننا نجد روايات تذم أهل الكوفة أيام أمير المؤمنين وتصفهم بالشقاق والنفاق، بينما توجد روايات تمدح الكوفة وتحث على السكن فيها[3].

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) اللاعنف في الإسلام: آية الله السيد الشيرازي.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام: «من كان له دار في الكوفة فليتمسك بها». مستدرك الوسائل ج ١٠.

وذكر في البحار بسنده عن أمالي المفيد، عن أحمد بن الوليد، عن أبيه، عن الصفار، عن ابن عيسى عن ابن البطائني، عن عبد الله بن الوليد قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام في زمن مروان فقال: ممن أنتم؟ فقلنا: من أهل الكوفة، قال: ما من البلدان أكثر محباً لنا من أهل الكوفة لا سيما هذه العصابة، إن الله هداكم لأمر جهله الناس فأحببتمونا وأبغضنا الناس، وتابعتمونا وخالفنا الناس، وصدقتمونا وكذبنا الناس فأحياكم الله محيانا وأماتكم مماتنا، فاشهد على أبي أنه كان يقول: ما بين أحدكم وبين أن يرى ما تقر به عينه أو يغتبط إلا أن تبلغ نفسه هكذا وأهوى بيده إلى حلقه...

فكذلك هذا الأمر، والشاهد على ذلك هو ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما جاءه أحدهم وشكا نساءه إليه، فقال ذلك الكلام..

وربما يكون ما نقل في حديث النبي من أنكن «تكفرن العشير ـ الزوج ـ وتكثرن اللعن» ناظراً إلى تلك الفئة المخاطبة أو أنه تعليل فيخرج عنه من النساء من لم تكن كذلك لعانة، منكرة لمعروف زوجها بحيث تكون معه الدهر فإذا غاضبته قالت له ما رأيت منك خيرا.

٢- يحتمل أن يكون نظر هذه الروايات إلى تحميل الرجل مسؤولية إضافية، في رعاية المرأة، والعطف عليها، وتحمل عنفها ومشاكلها، وهذا نظير أن يقال للكبير: أنت كبير القوم فينبغي أن تتحمل مساوئ صغيرهم ومشاكله.. فتتحدث هذه الروايات عن المرأة باعتبارها عندها ذلك النقص العقلي الكمي والنسبي ـ الذي سيأتي بيان أنه بالقياس إلى العاطفة ـ، تحتاج إلى نوع أعلى من الرعاية والعطف، وأن لا تعامل معاملة قاسية.. «فداروهن على كل حال وأحسنوا لهن المقال لعلهن يحسن الفعال».

ومثل قوله في موضع آخر «ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ناقصات القوى والأنفس والعقول، وقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعير بها وعقبه من بعده».

وأيضا يمكن أن يكون لهذه الروايات غرض آخر، وهو أن تتفهم المرأة طبيعة وضعها فلا تطلب أكثر مما ينبغي، ولعل هذا من المشاكل المعاشة في المجتمعات المعاصرة.. فإذا عرفت المرأة نقاط ضعفها حاولت أن تصلحها، وإذا تبين لها غلبة العاطفة عندها كان أحرى بها أن لا تتولى أمورا تحتاج إلى حذف العواطف، وربما تتحدث بعض الروايات عن هذا الموضوع كالذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: معاشر النساء خلقتن ناقصات العقول، فاحترزن من الغلط في الشهادات، فإن الله يعظم ثواب المتحفظين والمتحفظات في

الشهادة، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من امرأتين احترزتا في الشهادة فذكرت إحداهما الأخرى حتى تقيما الحق وتنفيا الباطل إلا وإذا بعثهما الله يوم القيامة عظم ثوابهما..

وهذا نظير أن يقال للرجل مثلا إنك خلقت صلب البنية وشديد العضلات فيصلح لك القتال ولا يصلح لك مواضع العاطفة!! أو يقال للخشن إنه لا يناسب لك الأعمال التي تحتاج إلى نعومة.

٣- أنه قد يكون من قبيل ما هو الحديث مع الناس بلسانهم وحسب مرتكزاتهم من دون أن يُعتقد به، فقد احتمل بعض الباحثين أن ذلك الكلام من المعصومين هو على ما كان الناس يعتقدونه من نقص النساء، ويشير هؤلاء إلى أن الدليل على ذلك النقص من أنه نقص العقول دليله أن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، أو أن دليل نقص الحظوظ هو نقص الميراث، أو أن دليل نقص الإيمان القعود عن الصلاة أيام الحيض.. هذه ليست أدلة قوية، وإنما هي نوع من الاستشهاد على ما كان مغروسا في أذهان أولئك السامعين من نقص النساء.. وذلك لكي تكون الحجة عليهم أقوى، وهي أنكم الذين تعتقدون بأن النساء بهذا النحو من النقص كيف طاوعتكم أنفسكم على طاعة إحدى النساء حتى ضربتم بين يديها بالسيوف؟ وكيف التزمتم في فقهكم ودينكم بما تمليه عليكم امرأة وأخذتم ثلث دينكم منها؟ والحال أنكم ترون النساء ناقصات؟

٤- الاحتمال الرابع: أن النقص المشار إليه في هذه الكلمات هو نقص كمي لا كيفي، ولا مشكلة في أن يكون لدى الإنسان نقص كمي، ما لم يؤد إلى نقص كيفي. فنقص المال عند الإنسان نقص كمي لا يؤثر في إنسانيته ولا كرامته. ونقص بعض أعضائه كيده أو رجله كذلك.. لا يؤثر في منزلته.

وذلك بخلاف نقص عقله مثلا! بمعنى كونه على حد الجنون أو البلاهة الشديدة فإنه يؤثر على ذاته. وقد وصف الرجل أيضا بنقصان العقل

إذا عمل ما يدل على ذلك مثل قول أمير المؤمنين عليه السلام «وزهدك في راغب فيك نقصان عقل»[1].

إن النقص العقلي الذي تتحدث عنه تلك الروايات هو النقص بالقياس، والنقص النسبي وهو لا يؤثر في كرامة المرأة أو إنسانيتها، ولا يغير تكليفها أو ينقصه بل تبقى مكلفة بنفس تكاليف الرجل إلا ما خرج بالدليل بمقتضى قاعدة الاشتراك في الأحكام. نعم سوف يعالج الإسلام هذا النقص الكمي، ببعض التشريعات الدينية المناسبة له، مثل ﴿**أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾ ومثل حظر الولايات العامة على المرأة (على المشهور من رأي الفقهاء).. وهكذا.

إن الحالة العاطفية المركزة الموجودة في المرأة، والتي يقتضيها دورها كأم وزوجة، هي حالة كمال وجمال، كمال في الوظيفة، وجمال في الأداء.. فلك أن تتصور امرأة بلا عاطفة كيف ستكون رعايتها لأسرتها؟ وأي صحراء سيكون البيت الذي تسكنه؟ لكن هذا الكمال في هذه الجهة هو نقص بالقياس إلى جهة أخرى.. تماما مثلما أن أوراق الوردة الناعمة كمال في جهة، ولكن لو أريد استعمالها في مكان القماش الذي يحفظ الأشياء أو سكينا للقطع كانت غير مفيدة!! والإصبع الخنصر لو أريد استعماله في موضع الوسطى لما كان نافعا لكن حجمه الصغير في موقعه نافع وجميل..

الضلع العوجاء:

أخرج البخاري في صحيحه[2]، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء.

---

(١) بحار الأنوار ٧١/ ١٦٤.

(٢) ٤ / ١٠٣.

ومن طريق أهل البيت عليهم السلام، ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره بسنده[1] عن، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إن إبراهيم عليه السلام كان نازلا في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل، اغتمت سارة من ذلك غما شديدا، لأنه لم يكن له منها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر فتغمه، فشكا إبراهيم عليه السلام ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه: إنما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء، إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها» الخبر.

ويظهر أن المراد من هذا النمط من الأحاديث أن طبيعة المرأة، فيها من العاطفة الشيء الكثير، ومن الطبيعي أن تكون هذه العاطفة فيها الجموح، والتقلب، والعنف، فلا تكون على مستوى واحد طيلة الوقت.. هذا بحسب الطبيعة الخلقية.

ويضاف إليه ما تتعرض له المرأة في أدوارها المختلفة من ظروف صحية استثنائية، فهذا عامل آخر يجعل من الطبيعي أن لا تكون في كل الأحوال على سجية واحدة..

وليس معنى ذلك أن ما سبق هو حالة سيئة بالضرورة فقد تكون حالة حسنة. إن جمال الغابة هو في إبائها على التنظيم، حتى إذا دخلت إليها يد الإنسان بالتقطيع والاسمنت تحولت إلى منظر ميت!! والشجرة التي تشظت أغصانها يمينا وشمالا، وتعالت في الفضاء أجمل بكثير من تلك التي (حُلقت) بالمقص حتى عادت هي والجدار شيئاً واحداً.

والضلع المنحني يجسد من الرقة والعطف ما لا تقوم به الكلمات، ويحمي ما بداخله من أعضاء ما لا تستطيعه عظام الساق القوية، ويبرز الجمال الإنساني بأفضل ما يمكن!! تصور لو كان القوام البشري معتمداً على

(١) مستدرك الوسائل – الميرزا النوري ج ٤١ ص ٢٥٤: علي بن إبراهيم في تفسيره: عن أبيه، عن النضر، عن هشام.

عظام مستقيمة نافرة في مقدمة الجسد وفي وسط البطن.. هل كان قوام الإنسان جميلاً كما نراه الآن بالضلع المنحني (الأعوج)؟

إن الخطأ هو أن يحاول البعض تقويم الضلع المنحني وجعله مستقيماً!!

المرأة هي تلك الضلع المنحني حماية، وجمالاً، فلا ينبغي تقويم هذا الضلع لأنه غير ممكن من جهة لأنه لا يعود ضلعاً، وغير صالح لوظيفته من جهة أخرى وغير جميل المنظر من جهة ثالثة.

فنحن لا نعتقد أن الحديث هذا وأمثاله وارد في سياق الذم للنساء وإنما هو تعريف للرجل بطبيعة المرأة، وتوعية له بما يصلحها، وكيفية التعامل معها.

لا ترى أحداً ولا أحد يراها:

من الأحاديث التي تثير أسئلة في ذهن الناشئة، الحديث الذي يروى عن فاطمة وأنها قالت: خير للمرأة (أو خير النساء) أن لا ترى رجلا، ولا يراها رجل.. فما هو المقصود منه؟

وقد نقل هذا الحديث في كتاب دعائم الإسلام[1] الذي ألفه القاضي

---

(١) كتاب دعائم الإسلام: مؤلف هذا الكتاب هو القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله التميمي المغربي (ت ٣٦٣ هـ)، كان قاضياً أيام الفاطميين، وقد كان في أول أمره مالكياً ثم استبصر. ويلحظ أن رواياته في الكتاب تنتهي إلى الإمام الصادق من دون أن يروي عمن بعده من الأئمة صراحة، ولعله لجهة التقية من الفاطميين الإسماعيليين. وقد مدحه أكثر من تعرض لترجمته من علمائنا. له أكثر من أربعة وأربعين كتاباً لم يبق منها إلا هذا الكتاب وسبعة عشر كتاباً غيره كما ذكر بعضهم في مقدمة الدعائم. يعرف القاضي النعمان أيضاً بأبي حنيفة الشيعي.

وقد ضمن المؤلف أن يقتصر فيه على ما هو ثابت صحيح عن الأئمة، قال في المقدمة «.. قد رأينا وبالله التوفيق عند ظهور ما ذكرناه أن نبسط كتاباً جامعا مختصراً =

النعمان المغربي، قال: وعن علي عليه السلام أنه قال: قال لنا رسول الله: أي شيء خير للمرأة؟ فلم يجبه أحد منا، فذكرت ذلك لفاطمة عليها السلام فقالت: ما من شيء خير للمرأة من أن لا ترى رجلا ولا يراها، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال: صدقت، إنها بضعة مني. ونقل نفس هذا الحديث المتقي الهندي[1]:

عن الحسن البصري قال: قال علي بن أبي طالب: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم: أي شيء خير للمرأة؟ فلم يكن عندنا لذلك جواب، فلما

= يسهل حفظه ويقرب مأخذه، ويغنى ما فيه من جمل الأقاويل عن الإسهاب والتطويل، نقتصر فيه على الثابت الصحيح مما رويناه عن الأئمة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله من جملة ما اختلفت فيه الرواة عنهم في دعائم الإسلام، وذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام..».

رأي العلماء في الكتاب:

١- قال البعض منهم باعتبار الكتاب، وذلك لأن الكتاب كان مشهورا في زمان مؤلفه وما بعده، حتى أن سلاطين الفاطميين جعلوا مالا لمن يحفظ الكتاب، وهذا يجعل الكتاب معروفا، فلا حاجة إلى طريق خاص ولذا يعمل به هؤلاء ويرونه معتبرا. ومن هؤلاء المحدث النوري في المستدرك، وشيخ الشريعة الأصفهاني.

بل ربما يمكن القول أنه كان موجودا أيام الشيخ الذي عده في الفهرست من تأليفات الصدوق اشتباها من الشيخ مع وجود إشارات فيه تبين أنه في مصر، وأنه في حضرة الخليفة...

وقد دافع المحدث النوري عن المؤلف والكتاب، فرفض أن يكون الأول إسماعيلياً وإنما أظهر ذلك تقية لهم، ورأى أن في الكتاب روايات متعددة عن الأئمة بعد الصادق عليه السلام، بل ذكر دعاء التقرب بعد الصلاة، وفيه ذكر أسماء كل الأئمة الاثني عشر.

٢- وقال آخرون بأنه لا يمكن الاعتماد على الكتاب مع جلالة شأن مؤلفه، وذلك لعدم طريق صحيح إلى الكتاب، فإن كونه مشهوراً في زمانه لا يعني أن ما بيدنا هو ذاك الكتاب بعينه من غير زيادة أو نقيصة خصوصا لو تم ما ذكره بعضهم من أول نسخة عثر عليها كتبت بعد وفاة المؤلف بحوالي خمسمائة سنة.

ولذا رأى العلامة المجلسي أنه يجوز أن تخرج أحاديثه شاهداً ومؤيداً.

(١) كنز العمال ج ١٦ ص ٦٠١

رجعت إلى فاطمة قلت: يا بنت محمد! إن رسول الله ﷺ سألنا عن مسألة فلم ندر كيف نجيبه! فقالت: وعن أي شيء سألكم؟ فقلت: قال: أي شيء خير للمرأة؟ قالت: فما تدرون ما الجواب: قلت لها: لا، فقالت: ليس خير من أن لا ترى رجلاً ولا يراها، فلما كان العشي جلسنا إلى رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله! إنك سألتنا عن مسألة فلم نجبك فيها، ليس للمرأة شيء خير من أن لا ترى رجلا ولا يراها، قال: ومن قال ذلك؟ قلت: فاطمة: قال: صدقت، إنها بضعة مني..

والكلام في توضيح معاني الحديث، هو بعد الفراغ عن جهات السند، وإلا فإنه لا يثبت في هذه المرحلة فإن القاضي المغربي أرسل الحديث من غير إسناد أصلا.. فلا يكون حجة. ومثله ما في الكنز.

ويمكن فهم هذا الحديث من خلال الملاحظات التالية:

١- أنه لا بد من تخصيص (أحدا أو رجلا) بغير المحارم، كالجد، والأب والأولاد والإخوة، والأعمام والأخوال، فإنه لا يتصور أن الدين يحبذ أن لا ترى المرأة أرحامها أو أن أرحامها لا يرونها!

كما أنه يخطر بالبال أنه لا بد من تخصيص الرؤية، بالرؤية الشهوية. دون الرؤية الاتفاقية، أو التي تدعو إليها الضرورة. فإنه لم يعهد من المعصومين نهي عن الحج وهو مظنة الرؤية الاتفاقية، ولا عن صلاة الجماعة وقد ورد فيها أن النساء كن يصلين مع رسول الله في المسجد. بل قد ورد أن فاطمة قد زارها جابر بن عبد الله الأنصاري لكي ينظر إلى ما في الصحيفة من أسماء المعصومين[1]. وكان النبي يقرع بين نسائه يخرج معهن للغزو، وهو

---

(١) رواه الشيخ الصدوق رحمه الله عن أبيه وابن الوليد معا، عن سعد والحميري معا، عن صالح بن أبي حماد والحسن بن طريف معا، عن بكر بن صالح، وحدثنا أبي وابن المتوكل وماجيلويه وأحمد بن علي بن إبراهيم وابن ناتانة والهمداني ﷺ جميعا، عن علي، عن أبيه، =

مظنة أن يرين الرجال وإن لم يرهن الرجال!

٢- قد يكون معنى الرواية كنائياً هو ما كشفت عنه باقي الروايات وهو أن تستتر المرأة بقدر ما يمكنها ذلك، مثلما ورد أنها أدنى ما تكون من ربها إذا لزمت قعر بيتها، فليس المطلوب بالفعل أن تلزم (قعر) البيت، دون سائر الغرف فيه، وإنما المقصود هو أن تكون في أستر المواضع.

٣- احتمل بعضهم أن يكون السؤال والجواب غير ناظر إلى الجهة الشرعية، والحكم الإلهي، وإنما هو ناظر إلى ما يريح المرأة، وما هو خير لها (لنفسها وطبيعتها)، ويستشهد هؤلاء على ذلك بأنه لا يعقل أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام، وهو تالي الرسول في علمه، غير عارف بما هو خير للمرأة من الناحية الشرعية!! نعم ربما يتصور هذا في بعض الأصحاب دون الإمام عليه السلام، والرواية على اختلاف ألسنتها تصرح بأن الذي نقل القضية من النبي للزهراء ومنها إليه، هو أمير المؤمنين وتشير بعضها إلى أن الإمام علي أيضا لم يعرف ما هو خير للمرأة، وبعيد جدا أن يجهل أمير المؤمنين ما هو خير

= عن بكر بن صالح، عن عبد الرحمان بن سالم، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبي لجابر بن عبد الله الأنصاري: إن لي إليك حاجة فمتى يخف عليك أن أخلو بك فأسألك عنها؟ قال له جابر: في أي الأوقات شئت، فخلا به أبي عليه السلام فقال له: يا جابر أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يدي أمي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وما أخبرتك به أمي أن في ذلك اللوح مكتوبا، قال جابر: اشهد بالله إني دخلت على أمك فاطمة في حياة رسول صلى الله عليه وآله أهنئها بولادة الحسين عليه السلام فرأيت في يدها لوحا أخضر ظننت انه زمرد، ورأيت فيه كتابا أبيض شبه نور الشمس، فقلت لها: بأبي أنت وأمي يا بنت رسول الله ما هذا اللوح؟ فقالت: هذا اللوح أهداه الله عز وجل إلى رسوله فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني وأسماء الأوصياء من ولدي، فأعطانيه أبي ليسرني بذلك، قال جابر: فأعطتنيه أمك فاطمة فقرأته وانتسخته، فقال أبي عليه السلام فهل لك يا جابر أن تعرضه علي؟ قال: نعم فمشى معه أبي عليه السلام حتى انتهى إلى منزل جابر، فأخرج إلى أبي صحيفة من رق، قال جابر: فاشهد بالله إني هكذا رأيته في اللوح مكتوبا... إلى آخر الحديث الذي نقله العلامة المجلسي في بحار الأنوار -ج ٣٦ ص ١٩٥

للمرأة من الناحية الشرعية، نعم لو فُرض ذلك في الجهة الطبعية أو المزاجية، وأنه ما هو خير لها، وما الذي ترغب فيه، فلم يجب الإمام لا محذور فيه كالمحذور الموجود في عدم المعرفة بالجهة الشرعية.

ولعل الاستقراء يفيد هذا المعنى فإن المرأة مهما كانت، ترتاح إلى أن تكون في وسط جنسها غير متقيدة بقيد، ولا هي مضطرة إلى الظهور بمظهر معين، أكثر من ارتياحها عندما تكون في وسط الرجال، فالخير لها أن لا ترى رجلا، ولا الرجال يرونها.

٤- رأى البعض[١] أنه يمكن الاستفادة منه أنه ينبغي للحكومة الإسلامية أن تجعل البرنامج الحياتي في المجتمع بحيث لا تحتاج النساء أن تختلط بالرجال، ولا الرجال يختلطون بالنساء.

---

(١) نقل عن الشيخ الجوادي الآملي في مجلة (علوم حديث) الفارسية.



في رحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

١	فاطمة بنت أسد بن هاشم عليها السلام
٢	خديجة بنت خويلد عليها السلام
٣	(أم عمارة) نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها
٤	سمية بنت خياط رضي الله عنها
٥	الذلفاء بنت زياد بن لبيد رضي الله عنها



موجز عن حياة
محمّد بن عبد الله (المصطفى) صلى الله عليه وآله

رسول الله: أبو القاسم

ولد رسول الله صلى الله عليه وآله في عام الفيل أي سنة (٥٧٠) للميلاد، و قد توفي والده عبد الله قبل ولادته و توفي رسول الله صلى الله عليه وآله سنة (١١) للهجرة.

نشأ في قبيلة بني سعد، حيث احتضنته حليمة السعدية لإرضاعه و بقي هناك لمدة خمس سنوات، عاد بعدها إلى مكّة، و ذهب مع أمّه آمنة لزيارة قبر والده، و في طريق العودة فقد أمّه حيث توفيت في منطقة الأبواء.

كفله جدّه عبد المطلب، و كان يرى فيه النبي الذي سيبعث، إذ كان النبي و آباؤه على الحنيفية و في الثامنة من عمر الرسول توفي جده عبد المطلب،فكفله بعدها عمه أبو طالب.

كان (محمد الأمين) يعمل في رعي الغنم، ثم عمل بالتجارة، حيث طلبت منه خديجة بنت خويلد أن يعمل بأموالها على طريقة ما يعرف اليوم بالمضاربة. و كانت تلك الرحلة التجارية له للشام مربحة كثيراً لخديجة و له.. و لما عاد غلمان خديجة، وأخبروها بما رأوا منه من كرامات، وصفات فاضلة فزاد عزم خديجة على الاقتران به، و أرسلت من يذكرها عنده، و تم الزواج بعدئذ. في حين أنها رفضت عروض القرشيين الأغنياء.

في سن الأربعين من عمره الشريف، و حين كان يتعبد الله –على عادته– في غار حراء في مكة المكرمة، نزل عليه الوحي، بعد سلسلة مقدمات تمت لمدة طويلة، و لم يفاجأ ببعثته، كما يدعي البعض من المؤرخين، وكان نزول الأمين جبرئيل عليه بأول آيات القرآن الكريم إيذاناً ببعثه للناس جميعا.

بدأ الرسول ﷺ يدعو الناس في مكة المكرمة سرّاً و كان أول من آمن به خديجة زوجته و علي بن أبي طالب ثم كثر المؤمنون بدعوته، و استمر ذلك لمدة ثلاث سنوات.

بعد هذه السنوات أمر الرسول بالإنذار العام و الإعراض عن المشركين، فنادى في قريش بعد أن صعد على جبل الصفا واصباحاه. فاجتمعوا إليه، فسألهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا قد دهمتكم وراء هذا السفح أكنتم مصدقي؟! قالوا: بلى، ما جربنا عليك كذبا..فقال: فإني لكم نذير بين يدي عذاب أليم..

و مع هذه المرحلة تصاعد الأذى و العذاب من قبل القرشيين للمؤمنين خصوصا من كان منهم لا يملك دفعاً كالعبيد و الفقراء.

شددت قريش حصارها الاقتصادي و مقاطعتها الاجتماعية للرسول و المؤمنين به بعدما فشلت في ردع المؤمنين عن الالتزام بدعوة الرسول، و فشلت في الضغط على الرسول أو ترغيبه، فحوصر المسلمون في شعب أبي طالب، و اشتدّ بهم الضر، حتى لقد أكلوا أوراق الشجر بسبب قلة الطعام.

في السنة الثامنة للبعثة توفي أبو طالب كافل النبي وحاميه، و بعد أشهر توفيت زوجته السيدة خديجة، فكان لتلك أعظم الأثر في نفس النبي ﷺ وسمي ذلك العام: عام الحزن. و بعد وفاة أبي طالب لم يجد النبي ﷺ من يحميه في مكة.فخرج إلى الطائف ليدعو أهلها. و لكنه لم يجد منهم سوى

التكذيب و الأذى.

هاجر النبي ﷺ بعد ذلك إلى المدينة، بينما بات أمير المؤمنين على فراشه. وكان نائبا عنه في أداء الودائع و أخبر القرشيين أنه خارج للمدينة بعد ثلاثة أيام. و كان أعنف تحد تتلقاه قريش من قبل رجل واحد حيث سيخرج بالرغم من إرادتها.

في المدينة بدأ الرسول ﷺ خطواته لإنشاء المجتمع الإسلامي القوي القائم على أساس الدين، فآخى بين المسلمين، و بدأ يجهز السرايا لاستنقاذ أموال المسلمين من قوافل قريش، و لتأديب الأعراب أطراف المدينة..

على أثر مطاردة سرية للمسلمين لقافلة تجارية لقريش عزمت قريش على حرب المسلمين، فجهزت جيشا قوامه قرابة الألف مقاتل، بينما جهز المسلمون جيشا قوامه (٣١٣)، و اشتبك الجيشان في (بدر)، حيث كانت الغلبة لله ولرسوله، و غادر المشركون مخلفين وراءهم جثث (٧٠) قتيلا، و عاد المسلمون بيدهم سبعين أسيرا..

لم تبلع قريش لقمة هزيمتها، حتى عادت مرة أخرى و جمعت مقاتليها لتشتبك مع المسلمين في (أحد) و كانت رياح النصر تجري لصالح المسلمين، إلاّ أن الرماة فوق الجبل من المسلمين، عصوا أمر الرسول فتركوا مواقعهم و استغل المشركون الفرصة، وانقلبت الكفة آنئذٍ، فهزم المسلمون. وقتل في هذه المعركة عدد من خلّص أصحاب الرسول و شجعانهم.

استمرت المواجهات بين المسلمين وبين أعدائهم، فقد قام الرسول ﷺ بإخراج اليهود من المدينة، ولغرض إنهاء الوجود الإسلامي فقد تحالفت قريش مع سائر العرب، ومن ورائهم اليهود ضد المسلمين، وتحزبوا لغزو المدينة، فكانت معركة الخندق، التي انتهت بنصر المسلمين، ثم كانت معركة (خيبر) التي أدّت إلى إخراج شوكة اليهود من جسم المدينة. وبعدها

كانت غزوة مؤتة ضد جيوش الروم.

أخبر الرسول المسلمين بالاستعداد للذهاب إلى مكة، وقد أخفى خروجه لكيلا يصل الخبر إلى أهل مكة فيتهيئوا لذلك.. وبالفعل فقد فاجأ الرسول ﷺ أهل مكة حيث لم يستطيعوا المواجهة، واستطاع رسول الله أن يدخل مع المسلمين مكة سلماً، وأن يفتحها، ويقضي بذلك على الموقع الديني للوثنية في الجزيرة العربية. وأعلن عن خطوات كانت بمثابة تفريغ قريش من عناصر مقاومتها حينما أعلن الأمان العام لأهل مكة.

بعد فتح مكة خضعت الجزيرة العربية للإسلام، وبدأ الرسول ﷺ، يبعث بموفديه إلى سائر البلاد، داعياً زعماءها إلى الإيمان برسالة الإسلام.

في السنة العاشرة من هجرة النبي ﷺ وحينما كان النبي عائداً من الحج أوقف الجميع عند غدير خم، ونصب (علي بن أبي طالب) ولياً للمؤمنين،و وصياً، وخليفة له، وقد شهد ذلك الحدث عشرات الألوف من المسلمين الحجاج.

في السنة الحادية عشرة، لبّى رسول الله ﷺ نداء اللقاء بربه وتوفي في الثامن والعشرين من صفر، ودفن في المدينة المنورة.

١- فاطمة بنت أسد بن هاشم

توفيت بعد هجرة الرسول ﷺ بالمدينة.

❁ ❁ ❁ ❁

« وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة »

الحاكم في المستدرك٣/ ٤٨٣

❁ ❁ ❁ ❁

« وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين؟ وسبحان من يضع الأشياء موضعها وهو أحكم الحاكمين »

الآلوسي. سرح الخريدة الغيبية

كما وردة محمدية فتحت أهدابها مستقبلة قطرة ندى تضطم عليها برفق، انشق الجدار بهدوء وانسابت فاطمة بما حملت والله أعلم بما حملت في وسط الجدار لتجد نفسها في داخل بيت الله حيث مجتمع القدس الإلهي، ومدار القلوب المؤمنة.

أترى البيت كان يبتسم، وهو يترقب هذه الساعة التي سيكون فيها مهداً لعلي عليه السلام، وموطأ لقدمه؟ فانشق ثغر جداره عن ثغرة طالباً فاطمة للدخول إليه ومباركته بالمولود الأعظم؟

فتق الزهر؟ أم انشق القمر   أم عمود الصبح بالليل انفجر؟

أم أضاء البرق فالكون ازدهر   أم بدا في الأفق خرق والتيام؟

فغدا برهان معراج النبي؟

أم أشار البيت بالكف ادخلي   واطمئني بالإله المفضل

فهنا يولد ذو العليا علي   من به يحظى حطيمي والمقام

وينال الركن أعلى الرتب

دخلت فاطم فارتد الجدار   مثلما كان ولم يكشف ستار

إذ تجلى النور وانجاب السرار   عن سنا بدر به يجلو الظلام

والورى ينجو به من عطب[1]

❁ ❁ ❁ ❁

كانت الدهشة قد عقدت ألسنة المجتمعين حول البيت.. وألجمت ألبابهم، فكيف يمكن للصخر الأصم أن ينفلق إلا عن عين موسى إعجازا؟ وما حال تلك الداخلة فيه؟ هل عرفت أن عليها أن تدخل وهي الحامل المقرب في شهرها الأخير؟ أم أن شيئاً قد جذبها إلى الداخل من غير اختيار؟ أهو أمر رحمة أم علامة عذاب؟ وكيف تصنع لو فاجأها المخاض وهي في الداخل؟ من سيلي أمرها؟ كيف ستأكل ومن أين ستشرب؟

وتنادوا أن أخبروا شيخ الأبطح أبا طالب، وافتحوا الباب!

يا للهول!! هذا المفتاح يدور في الفراغ، ولم يحدث من قبل؟ اقتحموا الباب أو اخلعوه.. وإلا هلكت بنت أسد..

وتبسم أبو طالب.. ونهاهم عن ذلك؛ فإن الأمر إلهي السّمات، فلا ينفع فيه المحاولة، وإن الذي شق لها الجدار، وأغلق عليها الباب كفيل بأمرها، فلا داعي للقلق.

---

(١) من قصيدة للسيد علي النقي اللكنهوي، عن (الغدير في الكتاب والسنة والأدب، للعلامة الأميني).

❁❁❁❁

لقد أضيف إلى تلك الأسرة الهاشمية مولود جديد، شاء الله له أن يكون فيما بعد أكرم مخلوق بعد نبيه، وان يكون معجزة من معاجز الرسول ناطقة، وهو علي أمير المؤمنين عليه السلام ولقد صدق أبو طالب عندما قال لزوجته فاطمة، عندما أخبرته قبل ثلاثين عاما مهنئة إياه ومبشرة بولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من آمنة بنت وهب وقد حضرت ولادته، وتعجبت مما رأت من الإرهاصات والأنوار التي رافقت تلك الولادة المباركة، فجاءت تقص على أبي طالب ما رأت، فأخبرها أنها لو انتظرت سبتا (أي مدة من الدهر) فإنه سيأتيها بوصيه!!

فكان من نعم الله سبحانه على هذه السيدة الجليلة أن تكون مربية وحاضنة للنبوة والإمامة في نفس الوقت، وأم النبي (كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاتها) ووالدة علي.

توفي عبد الله والد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد سنوات ما لبثت آمنة أمه أن تبعت زوجها إلى لقاء الله، وكان يمكن أن يبقى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مهيض الجناح يتيما، ولكن الله شاء له أن يأوي إلى ركن شديد ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾، فكان في كنف جده عبد المطلب الذي كان يعرف فيه النبوة، ويرى في ما يحيط بحفيده دلائل ذلك. «فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده»[1].

وعندما بلغ صلى الله عليه وآله وسلم الثامنة من عمره، انتقل جده إلى لقاء ربه، بعد أن اختار له أبا طالب ليكفله مع أن أبا طالب لم يكن الأكبر سناً من ولد عبد المطلب، ولا الأكثر مالا، ولكنه كان الأكثر معرفة بمقام ابن أخيه عند أبيه

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١عن سيرة ابن إسحاق.

عبد المطلب، كما كان صاحب المنزلة العليا في نفس أبي طالب. وهكذا كان فقد أصبح النبي ﷺ في بيت عمه أبي طالب، وبيت فاطمة بنت أسد.

وجاء أبو طالب يوصي زوجته فاطمة بالاهتمام البالغ بالنبي المرتجى بعثته، ولزوم رعايته، ذلك أن أبا طالب كان «يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جانبه ويخرج فيخرج معه، وصُب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، وكان يخصه الطعام»[1] فقال لها أبو طالب: اعلمي أن هذا ابن أخي وهو اعز عندي من نفسي ومالي فتبسمت فاطمة من قوله وكانت تؤثره على سائر أولادها وكان لها عقيل وجعفر فقالت له: توصيني في ولدي محمد وإنه أحب إلي من نفسي وأولادي. ففرح أبو طالب بذلك فجعلت تكرمه على جملة أولادها ولا تدخر وسعا في ذلك.

❁ ❁ ❁ ❁

تعتبر عاطفة الأمومة والعلاقة بين الأم وولدها من أعظم العلاقات واشدها قوة، فإنك تجد الأم مستعدة للتضحية حتى بنفسها لأجل سلامة ولدها، ولا يمكن أن تقدم عليه أي كائن، ولعل هذه الغريزة الموجودة في داخل كل أم، هي التي تنتهي إلى بقاء النوع فلولاها لكان النسل ينتهي مع تعرضه للأخطار والأعراض.

لكن هذه القاعدة الموجودة في عالم الإنسان، تتوقف عند فاطمة بنت أسد، لتحل معها القاعدة الإيمانية التي تقول: « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أبيه وأمه، وولده** » كما قال الرسول ﷺ، واصفاً الدرجة العليا من الإيمان.

وكانت فاطمة في ذلك مثلا؛ فقد كان في دار أبي طالب نخلات، وكانت تقوم في الصباح الباكر قبل أن يفيق أبناؤها لتلتقط جيد الرطب، وتخبئه لرسول الله ﷺ، فإذا خرج أبناؤها قامت وأخرجت ما هيأته لرسول

---

(١)ابن كثير، البداية والنهاية ج ١عن سيرة ابن إسحاق.

الله، واتفق ذات يوم ما روته نفسها، تقول: «لما توفي عبد المطلب أخذ أبو طالب النبي ﷺ عنده، لوصية أبيه به، وكنت أخدمه، وكان في بستان دارنا نخلات وكان أول إدراك الرطب وكنت ألتقط له حفنة من الرطب فما فوقها، وكذلك جاريتي فاتفق يوما أن نسيت أن ألتقط له شيئا ونسيت جاريتي أيضا، وكان محمد ﷺ نائماً، ودخل الصبيان وأكلوا كل ما سقط من الرطب، وانصرفوا، فنمت ووضعت الكم على وجهي حياءً من محمد ﷺ، إذا انتبه. فانتبه محمد ﷺ، ودخل البستان فلم ير رطبة على وجه الأرض فأشار إلى نخلة، وقال: أيتها الشجرة أنا جائع.. فرأيت النخلة قد وضعت أغصانها التي عليها الرطب حتى أكل منها ما أراد، ثم ارتفعت إلى موضعها. فتعجبت من ذلك.. وكان أبو طالب رضي الله عنه غائبا، فلما أتى وقرع الباب عدوت إليه حافية وفتحت الباب وحكيت له ما رأيت، فقال: هو إنما يكون نبيا، وأنت تلدين له وزيرا بعد يأس[1].

وكان يقل الماء حينا فلا يكفي لغسل وتنظيف جميع الأبناء فكانت توفره للرسول، ويصبح أبناؤها من غير غسل ولا تدهين بينما يصبح (محمد) دهينا.

❁ ❁ ❁ ❁

وبعث رسول الله ﷺ نبياً، وقد كانت ترى من البركات في منزلها قبل ذلك ما يعرّفها، عظيم منزلته عند الله، فما لبثت أن آمنت بنبوته، وكانت الفرد الحادي عشر ومن أوائل الذين آمنوا برسول الله ﷺ، ويشير بعض المؤرخين هنا إلى أنها آمنت بالنبي بدعوة أبي طالب زوجها[2]، الذي كان قد دعا قبلها جعفراً ابنه ليلتحق بركب الرسول. ومن المضحك بعد ذلك قول بعض الحاقدين على الإمام علي عليه السلام أن أبا طالب لم يؤمن وأنه في نار جهنم، وقيامهم بوضع أحاديث عن رسول الله ﷺ مفادها أنه في ضحضاح من نار

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧ص٣٩٨.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج، ج١٣ ص٢٧٢.

كما زعموا. لقد كانوا يريدون هدم شخصية الإمام علي فحاولوا نسبة الكفر لأبيه، بينما كان إقرار رسول الله ﷺ نكاح أبي طالب، وبقاء فاطمة بنت أسد زوجة له دليلا على إيمان الزوجين فإنه كان ﷺ مأمورا أن لا يقر مؤمنة تحت كافر، كما يقوله الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، فقد سئل: أكان أبو طالب مؤمنا؟ قال: نعم. فقيل له: إن هاهنا قوما يزعمون أنه كافر.

فقال عليه السلام: واعجبا كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله؟ وقد نهاه الله تعالى أن يقر مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن، ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضي الله عنها من المؤمنات السابقات، فإنها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه[1].

وبقيت في مكة إلى أن توفي أبو طالب رضي الله عنه.

وهاجر رسول الله بعد وفاة أبي طالب حيث لم يبق له في مكة ناصر، إلى المدينة، مخلفاً علي بن أبي طالب لأداء أماناته، وإعادة ودائع القرشيين التي كانت عند رسول الله، وأعلن على الملأ من قريش، أنه مغادر بعد ثلاث فليأت من له أمانة عند النبي ﷺ، وبعد أن أدى أمانات النبي، وكان قد أرسل إليه أبا واقد الليثي يأمره أن يوافيه بعد ثلاثة أيام بالفواطم، فخرج علي عليه السلام ومعه رحل رسول الله ومنهم فاطمة الزهراء، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، والتحق مع هؤلاء جمع من ضعفاء المسلمين.

وكبر على كبرياء قريش هذا التحدي العظيم، واحمرت أنوفهم غضبا، فحاولوا منع علي والظعن الخارج، وأرسلوا إليه ثمانية من مقاتليهم الأشداء لإجباره على العودة ومنعه من المسير، وكان على رأس هؤلاء عبد طويل القامة ضخم العضلات الذي أقبل متوعدا عليا عليه السلام يأمره بالرجوع

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧ص٣٨٩.

بالنساء، فقال علي: فإن لم أفعل؟ قال: لترجعن راغماً أو لنرجعن بأكثرك شعراً (رأسه) وأهون بك من هالك!

وأهوى جناح بسيف كأنه شعلة من نار على علي عليه السلام وكان راجلا، فراغ عن ضربته وقبل أن يعتدل على ظهر جواده كان سيف علي عليه السلام قد شق رأسه حتى وصل إلى عاتقه، ووقع من على ظهر فرسه كأنه قطعة جبل. ثم شد على الباقين ففروا قائلين: أغن عنا نفسك يا بن أبي طالب.

فقال علي: فإني منطلق إلى ابن عمي رسول الله بيثرب فمن سره أن أفري لحمه وأهريق دمه فليتبعني أو فليدن مني[1]..

وهكذا كانت فاطمة من السابقات إلى الإيمان، والسابقات إلى الهجرة.

ووصلت إلى المدينة، حيث تأسيس الدولة الإسلامية الأولى، في ظل قيادة الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، وبمساعدة خلص أصحابه، وفي طليعتهم أمير المؤمنين، وإذا بعلي يأتي ذات يوم لرسول الله صلى الله باكيا، فيسأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويجيب علي: لقد ماتت والدتي!، فستعبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: بل ووالدتي فقد كانت تجيع أولادها وتشبعني وتشعث أولادها وتدهنني. وأمر بلالاً وبعض الأصحاب بحفر القبر، وإخباره بعد الانتهاء من الحفر، ولما غسلت وكفنت لفها رسول الله في قميصه، ودخل قبرها وكان يأخذ بيده تراب لحدها، فلما سواه اضطجع في القبر قليلا ثم خرج.

فقيل: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه بأحد قبلها! فقال: ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر فإنها كانت من أحسن خلق الله صنعاً بي بعد أبي طالب[2].

رحمة الله على بنت الأسد أم الليث.

---

(١) العاملي، السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ص٤٨٩.

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٣٥ص١٧٩.



٢- خديجة بنت خويلد

توفيت بعد البعثة بعشر سنوات وعمرها ٦٥ سنة.

❁ ❁ ❁ ❁

﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

سورة الحديد ١٠.

❁ ❁ ❁ ❁

« ما أبدلني الله خيراً منها قد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله عز وجل ولها إذ حرمني أولاد النساء ».

مسند احمد ح ٢٣٧١٩

❁ ❁ ❁ ❁

في حياة الرسالات والدعوات الدينية نلاحظ ثلاثة أنماط للمؤمنين بها:

القسم الأول: هو بمثابة القواعد التي تحفر تحت الأرض، ويستحكم بها البناء، وهذه مهما زادت عمقاً وتجذراً في داخل الأرض، زاد البناء استحكاماً وقوة.

القسم الثاني: بمثابة الأعمدة التي ترتفع معتمدة على القواعد، وترفع من فوقها السقوف، وهي التي تكون البناء وتعطيه صورته الحقيقية، وعليها يكون استثمار البناء والاستفادة منه.

القسم الثالث: بمثابة الأصباغ والألوان، وهذه لا تأثير أساسي لها في أصل البناء ولا في استحكامه، وإنما تعطي للبناء صبغا ولونا خارجيا فقط وتعلن عن نفسها وعن البناء.

ومشكلة الناس أنهم يخلطون بين الثلاثة، فيساوون الأول بالأخير أو الثاني بالأخير، بينما ﴿**لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾[1] البارزون في الزحام، والمتهالكون على الأسماء، والألوان، والذين لهم في كل عرس قرص، وفي كل موقف عملي لهم كلام كثير..

خديجة المباركة[2] كانت من أجلى مصاديق القسم الأول، فهي بمقدار ما عملت وما أدراك ما عملت لم تكشف عن تلك الأعمال غطاء السر، ولم تتحدث عن نفسها ولا عن حب رسول الله ﷺ لها كما فعلت غيرها.

خمسة وعشرون عاماً حافلة بالأحداث ومليئة بالقضايا، منها عشرة أعوام بعد بعثة النبي ﷺ، وخديجة معه في كل مواقفه، تؤيده وتدعمه، وتعطيه صفوة مالها.. كم كان هذا المال مباركا به ينعش الله فقراء المسلمين في ذلك الوقت الذي كان بعضهم لا يجد قوت وجبته، وبه يحرر العبيد المؤمنون الذين كانوا عرضة للهلاك تحت أيدي جلاديهم، ولم ينقل التاريخ لنا أن خديجة قد تكلمت يوما عن هذا الأمر، بينما نقل عن بعض المسلمين من

---

(١) سورة الحديد آية ١٠.

(٢) ورد في الروايات أن الله قد لقبها بالمباركة وأي بركة أعظم من كون نسل الرسول ﷺ لم يستمر الا منها، فهي أم الكوثر.

(أهل الألوان والأصباغ) أنهم كانوا إذا فعلوا خيرا علقوه على رقابهم ومشوا به بين الناس وربما منّوا على من فعلوا لهم ذلك الخير!!

ولهذا لم يكن غريبا أن تبقى ذكرى خديجة في قلب النبي ﷺ، وذكر خديجة على لسانه، إلى ما بعد الهجرة أي بعد وفاتها بأكثر من خمسة عشر عاما مع وجود عدد غير قليل من النساء معه ﷺ، ولكنه قد رُزق حب خديجة. كما قال ﷺ.

خديجة الطاهرة:

الالتزام في المجتمع الطيب شيء ليس بالعسير، والفضيلة في محيط طاهر أمر قد يستطيعه الكثير، لكن الالتزام الديني في مجتمع الانحراف، والتمسك بالطهر في مجتمع الجاهلية أمر صعب، وفاعل ذلك ينبغي تقديره باعتبار أنه يسير نحو القمة مع أن الموج يخالف اتجاهه، ويقاوم مسيرته الصاعدة. وخديجة بنت خويلد سلام الله عليها كانت من هذا النوع، فالمجتمع الذي عاشت فيه كان محيطا موبوءا بالمعصية والانحراف، وكان أمر البغاء والزنا شيئاً لا يتورع عنه كبار القوم في قريش فما ظنك بصغارهم، وكانت ذوات الرايات جزءا من النسيج الاجتماعي المألوف، لكن المعدن الطيب لهذه المرأة الصالحة ورجحان عقلها «إذ إنه كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع أولاهن خديجة كما هو مفاد حديث لرسول الله ﷺ» جعلها تسلك طريق الكمال والفضيلة والطهر حتى لقد لقبت في أيام الجاهلية، وقبل مجيء الإسلام بالطاهرة.

وفي هذا الطريق الطيب نراها عليها السلام تبحث عن طاهر تعيش معه، وكان قد ملأ إهابها إعجابا ما تسمعه عن محمد بن عبد الله، هذا الشاب المتميز في المجتمع المكي، والذي لا يشبه أحدا ولا يشبهه أحد، في كمال خلقه وفي مفارقته للجو العام الجاهلي السائد في المجتمع المكي، وبدأت تفكر في كيفية مناسبة للتقرب منه، وهذا ما يشير إلى كمال عقلها فإنها لو استسلمت

للجو العام لما عدت أصحاب المال المعدمين أخلاقا، وأصحاب الجاه الاجتماعي ورؤساء القبائل، ولكنها نظرت بعيدا، وكذلك أيضا لم تترك العادات والمألوف هي التي تقرر مصير مستقبلها، فإنا نلاحظ أن قسماً من الناس يفكرون بنحو جيد، ولكن تقيدهم العادات، وتحاصرهم التقاليد، فتسوقهم إلى اتخاذ قرارات على غير قناعاتهم، مثل أن المرأة ينبغي في موضوع الزواج أن تكون منفعلة، ومنتظرة فإن جاء رزقها كما تحب وإلا فهي لا تستطيع أن تحرك ساكناً إلا أن هذه المرأة النموذجية بدأت تفكر في كيفية مناسبة للقرب من محمد، لا سيما وهي تسمع كلاما هنا وهناك أن رسولاً سيبعث في أم القرى، وإذا قُدر ذلك في زمانها فمن سيكون أولى بهذه المنزلة من محمد؟

في الطرف الآخر كان محمد بن عبد الله ﷺ، قد بلغ من السن ما يقتضي منه الاستقلال والاعتماد على نفسه بل مساعدة عمه وكافله أبي طالب، وكان أن التقت الرغبتان فخرج محمد في أموال خديجة مضاربا بها إلى الشام.

وعاد محمد من سفرته التجارية.. عاد وقد ملأ نفس ميسرة غلام خديجة إعجابا، وأترع قلبه حبا، ورأى معه من العجائب ما ينبغي أن يكون حديث المتكلمين والسُّمار.. فالملكان اللذان يظلانه عن الشمس وصفقة يمينه التي تباري السحاب في بركتها، وأمانته في المعاملة وصدقه فيها، يبطل كل ما قالوه من أن السوق تحتاج إلى أسلوب خاص يعتمد على (الشطارة) والكثير من الكذب، وخداع المشتري واستغفاله، وأن الذي يريد أن يأتي إلى التجارة بمنطق المتقين، وطريقة الأخلاقيين فلن يحصد غير الخيبة..

ها هو محمد.. صدقه في حديثه لا يفارقه، وأمانته في المعاملة لا تخلو منه لحظة، ومع ذلك فقد ربح وربح، ما لو حصل غيره عليه لطار فرحا، وهام على الثريا اختيالاً.. لله دره أي سر فيه هذا الرجل؟

برقت عيناها بسرور الغبطة، وهي تسمع حديث ميسرة ورأت أنها لم

تذهب بعيداً، بل وافقت حسابات الحقل البيدر.. زادت له حبا، وبه تعلقا وبدأت تفكر كيف يواتيها سعد حظها في الاقتران به، وكان أن أسرت في ذلك لبعض نسائها، ثم أرسلت إلى محمد ﷺ: «يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك».. ولعمري إن هذه الكلمات بقدر ما تعرب عن كمال عقل هذه المرأة الطاهرة لتصلح أن تكون برنامجا تتبعه كل امرأة تريد الزواج والشراكة الحياتية.. فهي قد فصلت ما ينبغي أن تبحث عنه امرأة عاقلة لبيبة، تهافت عليها الرجال الأثرياء وزعماء البلد وقد كانت عندهم الطاهرة وأجمل نساء قريش وأثرى الجميع وردتهم بينما سعت هي بنفسها لكي تتزوج من رجل لا مال كثير له.

استجاب النبي ﷺ وإن كان الزواج قبل البعثة وتقدم مع عمه أبي طالب عليه السلام وصحبهم حمزة بن عبد المطلب وعدد من بني هاشم، وخطب أبو طالب لابن أخيه خديجة، متقدما بهذه الكلمات الرائعة التي تنبئ عن استشرافه لمستقبل النبي ودينه الذي سيظهر على الأديان، فمن جملة ما قال:

الحمد لرب هذا البيت الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وأنزلنا حرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثم إن ابن أخي هذا ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به؛ ولا يقاس به رجل إلاّ عظم عنه ولا عدل له في الخلق وإن كان مقلاً في المال فان المال رفد جار وظل زائل وله في خديجة رغبة وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها والمهر على في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله.. وله ورب هذا البيت حظ عظيم ودين شائع ورأي كامل[1].

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، أصول الكافي ج٥ ص٣٧٥.

وقام عمها لكي يخطب مجيبا بالقبول، فأخذه البهر والموقف فلم يستطع أن يبلغ حاجته، فقامت خديجة وقبلت لنفسها[1]، بل وضمنت المهر في مالها أيضا.. فقال بعض من حضر: يا عجبا المهر على النساء للرجال؟ فرد أبو طالب عليه: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلى الأثمان وأعظم المهر وإذا كان أمثالكم لم يزوجوكم إلا بالمهر الغالي.

انتقلت خديجة إلى بيت النبي ﷺ، وعاشت معه عشر سنوات قبل البعثة وهي ترى كل يوم عجباً من عجائبه ينبئها عن المستقبل العظيم الذي تنتظره البشرية من بركته وعمله. وكانت صلوات الله عليها تتحرى مواضع رضاه فتواتيها، فقد قدمت على رسول الله مرضعته حليمة السعدية، فقام إليها متذكرا أيام طفولته ورضاعه من صدرها، مناديا إياها: أمي، أمي.. وألقى إليها بردائه وأقبل عليها يسألها عن حالها، وما أن ذكرت له ضيق اليد، وخشونة الدنيا، وتقدم السن بها إذ يمر على ذكرى رضاعه حينئذ ما يقارب الثلاثين عاما حتى انبعث رسول الله ﷺ وما أكثر ما يحرك ضميره حاجةُ الإنسان فكيف إذا كان مرضعته!! قام لخديجة يحدثها عن مرضعته ولزوم مساعدتها، وخديجة التي تتطلب قضاء حاجة لزوجها فلا يكلفها بل يقضي حوائجه بنفسه، ها هي لا تسعها الفرحة، لتقضي لمحمد حاجة يطلبها، فتأمر بما يسر محمدا ﷺ، قطيع من الغنم، ومعه ناضح يحمل الماء.. لمرضعة الحبيب المصطفى، وقد كان ذلك سببا في رجوعها في عام آخر بعد البعثة وإسلامها وزوجها على يد رسول الله[2].

---

(١) أما ما يذكره البعض من أنها قامت إلى أبيها فسقته الخمر، وتم العقد وهو ثمل، حتى إذا أفاق قام صاخباً!! فهذا لا يقوله إلا جاهل ذلك أن أباها قد توفي قبل هذا بفترة طويلة.. وهكذا الزعم بأن عمها لم يكن موافقا على الزواج وأنه كادت أن تحدث معركة لأجل ذلك فهذا أسوأ من سابقه لأن خديجة كانت ذات شخصية استثنائية وكانت سيدة قريش ولم يكن لأحد عليها أمر ولا نهي حتى يوافق أو يأبى!!

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١٥ ص٤٠١.

خديجة المؤمنة:

يعاني المصلحون مشكلة في تعويد زوجاتهم على نمط الحياة التي يعيشونها، ويعانون اكثر من عدم استقبالهن للتغيرات التي تحصل في تلك الحياة، والمراحل الجديدة التي يطوونها، ذلك أن هؤلاء يواجهون المجتمع المنحرف عنهم والمقاوم لتوجهاتهم، هذا خارج البيت والأسرة، ويتوقعون أنهم يجدون الدفء والدعم في داخل البيت، فإذا كانت زوجاتهم غير مستعدات لتلقي هذه التغيرات، بدعم أزواجهن والتخفيف عنهم فإن مصيبة المصلح تكون مضاعفة، فضلا عما إذا كانت الزوجة غير مؤمنة به، ولذا وجدنا تعبير القرآن عن هذا الصنف من النساء تعبيراً قاسياً، كما يلحظ في سورة التحريم **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾**[1].. إن تعبير القرآن الكريم عنهما بالَخيانة مع أنها ليست الخيانة الزوجية، ليكشف عن مدى شناعة العمل في نظر القرآن الكريم، وإنما كان تخلياً عن عقيدتهما وعن دعم النبيين المذكورين في الآية.

في المقابل نجد بعض النساء اللاتي اختصهن الله سبحانه بمنزلة دعم الأنبياء والأوصياء، فكنّ كهفا دافئا يلجأ إليه الأنبياء في صقيع الخذلان الاجتماعي، وظهرا يستندون إليه عندما ينكشف الناس عنهم.. وفي طليعة أولئك بل أولاهن على البشر كانت أم المؤمنين خديجة سلام الله عليها، فقد ضربت المثل الأعلى بفعلها للإيمان المستعلي على المصالح، المضحي بكل شيء، وللزوجة الدافعة لزوجها، الخائضة معه لجج الغمرات، وتحدي الصعوبات..

وقد بدأت أولا بالإيمان به صلوات الله عليه عندما أوحي إليه من قبل

---

(١) سورة التحريم آية ١٠.

الله، ومع أننا لا نتفق مع الروايات التي تنقل ومفادها أن الرسول ﷺ نزل عليه جبريل وغطه عدة مرات، وأنه خرج من ذلك يرجف، وجاء إلى بيت خديجة قائلا لقد خشيت على نفسي!! وأنها ذهبت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب فأقنع (!!) ورقة بن نوفل النبي محمدا بنبوته ورسالته (!!) أو أنها أدخلت النبي بين درعها وجلدها فكانت إذا فعلت ذلك اختفى عنه جبريل وإذا أخرجته رأى جبرئيل.. أو أن النبي كان قد ذهب ليتردى من الجبال في عملية انتحار لم يسبقه بها نبي من السابقين، ولكن جبرئيل تبدى له حينئذ.. إلى غير ذلك مما ذكروه..

نحن لا نعتقد بأي من تلك الروايات، وإنما نرى أن مجيء جبرئيل بالوحي للنبي كان أمرا متوقعا من قبله صلوات الله عليه، وأنه كان يرى إرهاصات النبوة قبل هذه الحادثة بفترة من الزمان طويلة، من سلام الكائنات عليه، والرؤيا الصادقة، بل إن نبوته كانت متوقعة من قبل آخرين من أهل بيته كجده عبد المطلب وعمه أبي طالب، فكيف يخفى عليه ما ظهر لغيره من تكريم الله إياه؟ وهو مفاد رواية صحيحة عن الإمام الباقر عليه السلام «.. وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم ونحو ما كان رأى رسول الله من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة»[1]، والرواية تتحدث عن أسباب للنبوة قبل الوحي وليس سبباً واحداً.

نعتقد أن النبي ﷺ عندما بعث وكان ذلك مع بداية نزول الوحي عليه كان متوقعا لذلك الحادث ولم يشك فيه لحظة واحدة ولم يكن محتاجا أن يؤتى به إلى عالم نصراني لكي يقنعه بأن هذا هو الناموس الأعظم كما ذكروه، وإنما رجع إلى بيته، وقد أحس بثقل المسؤولية العظمى التي ألقيت على عاتقه، والتي سوف يواجه لأجلها هذا الكيان الجاهلي بما له من كبرياء

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، ج١ ص١٧٦.

الحمق، وجبروت الجهل والقوة.. لكنه كان مصمما على القيام بهذه المهمة..

وهنا يبرز دور الطاهرة خديجة صلوات الله عليها، التي استقبلته في عودته تلك بأفضل ما يستقبل به صاحب دعوة، وآمنت به على الفور لأنها تعتقد أن هذا الرجل هو الذي تتجسد فيه كل صفات الأنبياء بل يتفوق في صفاته عليهم، فلو لم يبعث رسولا لكان الأمر غريبا.. فإنه ليصل الرحم ويصدق الحديث ويحمل الكَل ويُكسب المعدوم ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق!

وقد كانت عليها السلام أول من آمن به، فمنذ أن جاء من غار حراء يحمل على عاتقه مسؤولية هداية البشر ودعوتهم إلى رب العالمين، هيأت له كل ما يحتاجه صاحب الدعوة، فقد آمنت به بصدق، وراحت فيما بعد تخفف عنه أذى قريش، وتكذيبهم، وتتحرى راحته، ويا بؤس نهارها لو سمعت أن رسول الله قد أوذي فهي لا تلبث أن تخرج مستنجدة بعمه أبي طالب مرة، ومدافعة عنه بصورة مباشرة أخرى، ولقد أصابها من أحجار الكفار مقدار ما أصابها من شتائمهم.. بل إن حجارة السفهاء كانت تصل إلى داخل بيتها ملاحقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

المجاهدة المنفقة:

منذ اليوم الأول الذي قبلت فيه الزواج من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جعلت خديجة نفسها وأموالها وقفا على رسول الله، فإنهم يذكرون أنها كلفت ابن عمها ورقة بن نوفل أن يعلن على جميع القرشيين بأن ما تملك ملك رسول الله، فقام ورقة منادياً: يا معاشر العرب إن خديجة تشهدكم على أنها وهبت لمحمد نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه يمينها إجلالاً له وإعظاماً لمقامه ورغبة فيه..

كان هذا الإعلان الصادق منها يعبر بشكل كامل عن طريقة الحياة التي اختارتها مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبالفعل فقد ترجمت حياتها مواد هذا

الإعلان فقد أنفقت وأنفقت حتى لقد قام الإسلام على عمودي سيف علي ومال خديجة. وكان النبي يتصرف في ذلك المال لنصر الدعوة فيعين الفقير الذي أضر به الفقر، ويعتق المملوك المسلم من يد مالكه الكافر، بل إن تجهيز المسلمين للهجرة كان من أموال خديجة، فإنه من المعلوم أن السفر أيا كان يحتاج إلى مؤونة مالية سواء للطعام أو للراحلة، أو بعد الوصول إلى المقصد حتى تتهيأ حياة جديدة للمهاجر، وكان المسلمون المهاجرون لا سيما للحبشة غالبهم من الضعفاء والفقراء فكان مال خديجة هو الأساس المعتمد، وهجرة الفواطم وأهل النبي من مكة للمدينة كذلك، ولهذا لما سئل أبو رافع وهو يحدث عن هجرة علي عليه السلام من مكة: أو كان يجد النبي ما ينفقة هكذا؟ قال: وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام؟

وبعدها لا غرابة أن نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أسلمت له العرب أقدارها، واليهود أذعنت إليه بأموالها، وأصبحت ميزانية الدولة الإسلامية في عهده ضخمة، ومع ذلك يقول: ما نفعني مال قط ما نفعني مال خديجة![1].. لقد كانت صاحبة المال مباركة وكانت نيتها في العطاء خالصة، فجاءت هذه البركات.

أم الذرية النبوية الطاهرة:

كان رهان الكفار أولا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه سوف يتراجع عن دعوته عندما يجد أن قريشا كلها يد ضده، أو أنهم يمكن أن يغروه بالمال وغيره.. وفشل هذا الرهان منذ الأيام الأولى عندما أعلنها بصراحة لهم: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه. ثم كان رهانهم على إيذاء المسلمين وفتنتهم، وأنهم عندما يلقون الإيذاء والاضطهاد والمقاطعة سوف يتركون دينهم الجديد.. ولم يكن حظ هذا الرهان إلا كسابقه.. وكعادة الغريق الذي يتشبث بأي

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٩ ص٦٣.

حشيش أو طحلب، راهنوا وما أكثر رهانهم وقمارهم هذه المرة على الزمان والأيام، فهم يرون أن محمدا هو كل شيء في هذه الدعوة، وعما قريب يهلك أو يقتل، فتموت بذلك دعوته إذ أنه لا عقب له، بل هو (أبتر) كما كان يقول العاص بن وائل.

وهنا يتجلى إكرام الله لخديجة، ومباركته إياها فإذا بها تكون أم الذرية، ووالدة الكوثر، ويمن الله سبحانه على نبيه وعلى هذه السيدة الجليلة بل على الأمة بهذه السلالة الطاهرة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾.

فقد رزق الرسول منها القاسم والطاهر (وهو عبد الله) وقد توفيا صغيرين، كما رزق منها سيدة نساء العالمين أجمعين فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي التي كان منها ذريته وبقي منها نسله، فكانت بحقٍّ (الكوثر والخير الكثير)، وبقي امتداد رسول الله منها ذرية طيبة يملؤون الأرض نورا وهداية في كل عصر، وينفون عن الدين تأويل المبطلين.. بينما كان شانئه وشانئهم هو الأبتر، الذي يذهب الضجيج الذي يصنعه بذهابه ويموت ذكره بحلوله في التراب.

والذي ينبئ عن اختصاص السيدة الطاهرة المباركة بهذه المنقبة أن نساء النبي جميعا لم يرزق النبي منهن بشيء[1] ما عدا مارية والتي توفي ابنها إبراهيم مبكرا مع أن فترة بقائه مع كثير منهن كانت في حدود العشر سنوات، وكان فيهن البكر والثيب ومن أنجبت من غير النبي قبله كأم سلمة رضوان الله تعالى عليها، ولكنها منقبة اختصت بها هذه الطاهرة التي ملّكت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قبل بعثته رغبة فيه وإجلالا لمقامه.. و﴿**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾.

(١) ورد في حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إشارة إلى أن الله قد وهبه الذرية منها بينما حرمت الباقيات عن ذلك، لما سمع إحدى نسائه تنتقد خديجة.

من الجنة هذه المرة تشكلت النطفة الطيبة ليأتي منها الكوثر.. فقد روي في أكثر من سند بأن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يظهر نور فاطمة الزهراء صلوات الله عليها أمر نبيه أن يعتزل خديجة مدة من الزمان، يكون فيها صائم النهار قائم الليل، حتى إذا تمت تلك المدة أتحفه بتفاحة من طعام الجنة هدية الرب الجليل إلى عبده ورسوله لُتبنى خلقة فاطمة على طعام الجنة الخالص من الشوائب والأدران، وبالفعل فقد واقع النبي أهله بعد ذلك مباشرة فمنها تكونت فاطمة عليها السلام ولذلك كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يشم رائحة الجنة قبّل الزهراء (تفاحة الفردوس والخلد التي شرف الله مولدها بنساء الجنة وسل منها أنوار الأئمة).

عام الحزن:

ألف يوم تقريباً، هي الفترة التي قضاها بنو هاشم والمسلمون مع رسول الله في شِعب أبي طالب وهو واد بين جبلين في مكة.. وذلك بعد أن أعلنت قريش المقاطعة الاقتصادية الشاملة ضدهم، فلم يسمح لهم بالشراء من بائعي مكة، ولم يشتروا منهم شيئا، ونفذ القوت وانتهت الأطعمة حتى لقد كان أطفالهم يتصاغون من الجوع، ولكنها ضريبة الإيمان التي دفعها المسلمون برضا نفس، وسكينة قلب. غير أن الفترة تلك قد أثّرت في صحتهم وأبدانهم، وخديجة بنت خويلد التي كانت أغنى امرأة في قريش، ها هي ترقد على بساط هو والتراب واحد في ذلك الشعب وقد نحلت قوتها، وشحب لونها إلا من ابتسامة الاطمئنان المشرقة وهي تتوقع الوصول إلى حبيبها السلام الذي منه السلام وإليه يعود السلام.

يمر عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيرى خديجة التي ما نفعه بمال كما نفعه بأموالها هاهي تعيش لحظاتها الأخيرة، وهي صفر اليدين من أموال الدنيا التي أنفقتها لشراء الآخرة ولقد ربح بيعها، لكن الأمر محزن، أن تكون في هذه اللحظات وبهذه الصورة فلا يستطيع الرسول أن يفعل لها شيئا.. فقال

لها: بالكره مني ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيرا كثيرا.. أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون؟[1]

وجاءت بعد ذلك أسماء بنت عميس فوجدت خديجة تبكي، فجلست تنهنه عنها، وتذكرها أنها واردة على من هو مشتاق إليها، ومن صرفت عمرها لأجله، فأخبرتها أنها لا تبكي لفراق الدنيا وإنما تبكي لحال ابنتها فاطمة: فإنه لا بد للمرأة ليلة زفافها من امرأة تفضي إليها بسرها، وتستعين بها على حوائجها، وفاطمة حديثة عهد بصبا وأخاف أن لا يكون لها من يتولى أمرها حينئذ. فعاهدتها على أن تكون لفاطمة في ليلة زفافها كما أرادت خديجة..

واطمأنت الطاهرة إلى وضع فاطمة في أول ليلة من حياتها الزوجية، أغمضت عينيها، وصافحتها الملائكة مسلمة، وقدمت الروح على بارئها.. إلى جنته حيث لا نصب ولا تعب ولا صخب.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٩ ص٢٠.. والجدير ذكره أن هذا النص يكشف عن أسماء زوجاته ﷺ من أهل الدنيا وأما ما قيل من أن زوجاته في الدنيا هن زوجاته في الآخرة فلا يثبت. وما نقل سواء في البخاري أو في مسند احمد ليس مسندا لرسول الله ﷺ بل هو لو تم سنده كلام لعمار وليس لرسول الله ﷺ.



٣- (أم عمارة) نسيبة بنت كعب الأنصارية

لمقام نسيبة يوم أحد خير من مقام فلان وفلان..

الرسول محمد ﷺ

❁ ❁ ❁ ❁

ظلمت المدنية الغربية المرأة مرتين..

ظلمتها حين اختصرت وجودها في أنها جسد جميل، يثير الغرائز، ويلهب الأحاسيس.. وكتلة لحم متناسقة، فأعطت كل شيء للرجل، وأعطت للمرأة المساحة الإعلانية التي تلفت الانتباه، فإذا أرادت أن تعلن عن جودة الشاي، لا بد من امرأة جميلة في الإعلان، وإذا أرادت تسويق السيارة فلا بد من مظهر مثير لامرأة راكبة فيها، وللتعريف بالأصباغ أيضا امرأة، وأدوات الحدادة.. وو. فاختصر كل ذلك الوجود في مساحة الجسد المثير، والذراع العاري، والصدر المكشوف.

وظلمتها مرة أخرى حين أقنعتها بأن وجودها قيمته في ذاك، فلا بد أن تهتم إذن بما يرتبط بالجسد، من عمليات تجميل، حتى أن إحداهن لكي تكون جميلة قد أجرت ثلاثين عملية جراحية، ومن عطور ومن أدوات ماكياج.

وانطلت الخدعة على الكثير من النساء، فإذا بهن يركضن في طريق

ينتهي بهن إلى الهامشية، وإذا بهن يحولن وجودهن الإنساني، ودورهن الرباني إلى جزء من منظر جميل، تماما كما التحفيات في المنزل والورد في الحديقة وأصبح صراع المرأة لإثبات وجودها، لا يمر إلا عبر هذا الطريق.. فالتنافس هو بين الأجساد، والملكة لو أرادت أن تكون فليست إلا في الجمال الجسدي. وحتى هذه المسكينة الملكة بدورها قيمتها في سنة واحدة حيث تتذوق طعم الوجود كما أرادوه لها ثم تخلي موقعها لتنتهي بذلك فائدتها، وتاريخ صلاحيتها تماما كما الأغذية فاقدة الصلاحية!!

في المقابل رفع الإسلام شأن المرأة كإنسان، عليها من المسؤولية في الخطوط العامة ما على الرجل، ولها من الشرف والقيمة ما له، فهي محل خطاب الإله، وهي محل ثوابه مع الإحسان، ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ**﴾[1].

وعلى أساس تلك النظرة قدمت النساء المسلمات في العصور الإسلامية المختلفة صورا عالية، للنموذج المثالي الذي يمكن أن تصل إليه المرأة حين تعي دورها، وتعرف قيمة نفسها، وشرف وجودها، فإذا بالإسلام يصنع مثل خديجة التي قام الدين على جهدها وتضحيتها، وإذا بفاطمة.. وغيرهن.

ومن النجوم الزاهرة التي سطعت في سماء الإسلام نسيبة بنت كعب الأنصارية.

نسيبة المنتمية:

بينما كان السائد أن المرأة متاع، وجمال، ولا تدخل بين السلاطين، ولا شأن لها بالأفكار، فيكفيها مخدع الليل ومطبخ النهار ليملأ عليها حياتها، وإنما الأفكار، والانتماءات، والمواقف من شأن الرجال، هاهي نسيبة بنت

---

(١) النساء آية ١٢٤.

كعب تنقض هذه الفكرة لتكون ممن انتمى إلى الرسالة الإسلامية، واستجاب لدعوة النبي محمد ﷺ، فهاهو النبي في مكة يدعو القادمين إلى مكة لدينه، ويخبرهم عن أهدافه. ويستجيب له نفر من الأنصار، في بيعة العقبة الأولى.

وفي موسم الحج الثاني يأتي عدد ممن أسلم في يثرب، وممن أراد الإسلام على يد الرسول ﷺ، ووعدهم باللقاء ليلا بعد أيام التشريق، وأمرهم أن لا ينبهوا تلك الليلة نائما ولا ينتظروا غائبا، وجاؤوا في تلك الليلة وهم سبعون رجلا وامرأتان، وجاء رسول الله ﷺ ومعه حمزة والعباس وعلي. فبايعوه «على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم».

وكانت الرجال تصفق على يدي رسول الله ﷺ، قالت أم عمارة: فلما بقيت أنا وأم سبيع نادى زوجي غزية بن عمرو يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك! فقال: قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه إني لا أصافح النساء.

وقد وفت عمليا بما بايعت عليه الله ورسوله ﴿**وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾[1].

نسيبة المجاهدة في ساحات الحرب:

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وبدأ ببناء ذلك الصرح الإسلامي الشاهق، الذي قدر له أن يبقى علامة على التغيير الاجتماعي الشامل، ونموذجا لما تحدثه رسالة الإسلام في نفوس المنتمين إليه حقيقة، وكان من المسلمين فئة تفاعلوا بشكل تام مع تعاليم الإسلام، وانصهروا في بوتقة أفكاره، وطبقوا مفاهيمه، وكانوا على انسجام تام في علاقاتهم، ويظهر أن

---

(١) الفتح آية ١٠.

نسيبة كانت من أوائل الذين التفتوا إلى وجود الخط الرسالي الأكثر وعيا وتضحية بين المسلمين، وهو خط الموالين لعلي عليه السلام والمنسجمين معه، خصوصا وأنها كانت قد بايعت في مكة على أن لا تنازع الأمر أهله، مما أنبأها أن هناك أهلا معينين للأمر، وليست القضية مقهى مفتوحا لكل أحد، وتتبعت أولئك الأهل فإذا هم (أهل البيت) وعرفت من تصريحات الرسول، وإشاراته لزوم متابعتهم والانسجام معهم، وهكذا كانت تجد في أمير المؤمنين ذلك القائد الرباني الذي يخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولمعرفة علي بن أبي طالب عليه السلام، بولاء تلك المرأة فقد كان يقيل عندها في منزلها كما يذكر السيد الأمين في الأعيان، ولعل ذلك كان قبل زواجه بالزهراء عليها السلام في السنة الثانية للهجرة أو بعدها.

وكما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع أصحابه يعملون بجد في إنارة طريق البشر، فقد كانت قريش تحاول إطفاء ذلك النور، فكانت بدر، حيث أراد المشركون أن يأخذوا المسلمين (كأكلة رأس)، فيشربون وينحرون ثم لا تزال العرب هائبة لقريش ما بقي الدهر كما زعموا.. و﴿**يَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ فانهزم الجمع وولوا الدبر، مخلفين من القتلى سبعين ومن الأسرى مثلهم، ومن الخزي أضعاف ذلك.

وأخذت قريشا العزة بالإثم، ولم تتعظ بما سلف منها في مقاومة خط الهداية والحق، فأعدت العدة يحدوها حقدها، ويسوقها بغيها، إلى حد أنهم لم يسمحوا للعوائل أن تبكي قتلاها لكيلا تنفس جمرة الغضب، وسورة الانتقام.. خرجوا بعد سنة من واقعة بدر في ثلاثة آلاف، معهم مائتا فرس ومعهم النساء (ومرة أخرى تعود الجاهلية) لاستخدام المرأة كجسد، وإثارة، هذه هند قد خرجت ومعها نساؤها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويحرضن على القتال:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق   أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

مرة أخرى لا شيء غير العناق، وغير النمارق، وغير الجسد!! هل ترى فرقا بين الجاهليتين؟

﴿ولَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ فكانت الدائرة على الكفار، ولواء المسلمين بيد علي عليه السلام يرفرف، إذ ما صافحته غير كف علي ما دام في معركة موجودا، فمن يحمل راية النبي يوم القيامة ولواء الحمد هو الذي يحمل رايته في الدنيا. وخرج طلحة بن أبي طلحة (من بني عبد الدار) وهو حامل لواء المشركين، وطلب البراز، فخرج إليه علي عليه السلام، فسأله طلحة من يكون فأخبره، فقال طلحة: قد علمت يا قُضَم أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك.. وابتدره علي بضربة على رأسه ففلق هامته حتى وصل السيف إلى موضع لحيته، ثم حمل اللواء أخوه عثمان بن أبي طلحة فقتله علي، ثم أخوهما أبو سعيد، ثم مسافع.. وهكذا كأن لواء المشركين كان فال سوء على من حمله، فلا يلامس يد أحد إلا جدله علي عليه السلام، حتى بلغ عدد من قتل بعد حمل اللواء أحد عشر رجلا!! وكانت كتائب المشركين قد انتقضت أطرافها بعد الالتحام مع المسلمين، وانهزموا لا يلوون على أحد. ولاحت في الأفق تباشير النصر الكامل.

وهنا استثار الشيطان في بعض النفوس الاثرة، واهاب بهم شح انفسهم أن يذهبوا لجمع الغنائم، **﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾**

وتحول النصر إلى تراجع، واستفاد خالد بن الوليد من الفرصة وقلب الكرّة على المسلمين، فإذا بالأكثر يهربون تاركين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صامدا في جمع من المخلصين.. فر الصحابة والقوالون، وذوو الألسن الطليقة في السلم، هؤلاء ظلوا يصعدون ولا يلوون على أحد والرسول يدعوهم في أخراهم، وبقي معه من امتحن الله قلبه للإيمان.

فكان علي عليه السلام إلى جانب رسول الله الذي ظل ثابتا، ولم يتراجع كما

يشيعه بعض المؤرخين الذين أرادوا تخفيف معصية بعض الصحابة المعروفين الذين انهزموا عن الرسول حتى لقد استمر أحدهم في هزيمته ثلاثة أيام، فلكي يخففوا المسألة عن الصحابة نسبوها للرسول صلى الله عليه وآله، وحاشاه.

بقي علي مع الرسول مدافعا وهو صلى الله عليه وآله ينادي: يا علي اكفني هذه، فيحمل عليهم ويفرقهم حتى قصدته كتيبة من بني كنان، فقال صلى الله عليه وآله: اكفني هذه الكتيبة، فيحمل عليها وإنها لتقارب خمسين فارسا وهو عليه السلام راجل فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرق عنه، ثم تجتمع عليه هكذا مرارا حتى قال جبريل: يا محمد إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى!

فقال صلى الله عليه وآله: وما يمنعه، وهو مني وأنا منه؟

فقال جبريل: وأنا منكما.

ثم سمع مناد من السماء: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فسئل عنه رسول الله فقال: هذا جبريل! [١]

وهنا كان دور أم عمارة، نسيبة المجاهدة التي كانت قد خرجت لمعونة المسلمين فيما يرتبط بتموينهم بالماء، بينما هرب ذوو الأسماء اللامعة من الرجال، الذين تُسطر لهم المناقب، وتؤلف لهم الفضائل، برز دور هذه المرأة المجاهدة في الدفاع عن النبي والذب عنه، ذلك أنه مع تهديد المشركين لحياة النبي صلى الله عليه وآله يكون واجب المسلمين رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا الدفاع عن تلك الذات المقدسة. فلنستمع إليها تتحدث قائلة:

خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه والريح والدولة للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وأرمي بالقوس

(١) العاملي، السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ج٦ص١٦٠.

حتى خلصت إليّ الجراحة قالت فيما ترويه عنها أم سعيد بنت سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحا له غور أجوف[1]. وكانت قد اعترضت بن قميئة عندما جاء بزعمه ليقتل النبي ﷺ، فجرحها في عاتقها جرحا بليغا، وأراد ولدها عمارة الفرار فقالت: يا بني إلى أين تفر عن الله وعن رسوله، فردته فحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سيف ابنها وحملت على الرجل ضاربة إياه على فخذه، فأردته صريعا، والرسول يقول: بارك الله عليك يا نسيبة.. وكانت تقي الرسول بيديها وصدرها حتى خلص إليها جراحات كثيرة.

كما أنها شهدت الحديبية وخيبر والفتح وحنينا.

رحمها الله وحشرها مع نبيها وأوليائها.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٨.



٤- سمية بنت خياط
أول شهيدة في الإسلام.

استشهدت سنة ٧ قبل الهجرة النبوية الشريفة

❁ ❁ ❁ ❁

تقدر الأمم أوائلها، وتنظر إليهم بعين التقدير والإكبار، فتخلد ذكرهم، وتعلي شأنهم، وتبقي تأريخهم أمام الأجيال التي تأتي بعدهم، ولا يختص هذا بالأمة الإسلامية بل هو جار في سائر الأمم.. فما هي ميزة الأوائل؟ الأول هو ذلك الذي يبدأ قبل حركة الجميع سواء في ميدان العلم أو العمل، فيحول سكون الأمة إلى حركة، وسكوتها إلى كلمة، وخذلانها إلى نصرة، ثم تبدأ مسيرة الجمهور، وتألف الطريق الذي بدأه ذلك الأول، ولهذا كانت حركة الأوائل ميلادا لحركة المجتمع.

وتأتي هذه الحركة أو ذاك الموقف في وقته المناسب، حيث يحتاج الهدى إلى ناصر، ولذا كانت قيمة الموقف تزداد بحسب ما يحيط به من ظروف فإنه **﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾**[1] وإلى هذا يشير النبي الكريم ﷺ، حين تحدث عن أم المؤمنين خديجة سلام الله عليها، مبينا أهمية موقفها «آمنت بي

(١) سورة الحديد آية/ ١٠.

حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس» ويلحظ التركيز على (حين) ذلك العمل، فما أكثر الانصار للنبي فيما بعد، وأكثر المؤمنين به والمصدقين برسالته، ولكن (حين) صدقت خديجة لم يكن هؤلاء الناس.

الأول في الكلمة الطيبة هو الذي يعتلي صهوة التقدير، لأنه بذلك يغرس الشجرة الطيبة، فتبدأ هذه بالانتاج وتثمر كلمات طيبة، وأخلاقا عالية، ومجتمعات ناهضة، والكلمة المناسبة في الموقع الحرج تصنع الانتصار، وخلافها تصنع خلافه، ولهذا رأينا مقالة المقداد وكيف استقبلها رسول الله، فإنه لما بلغ رسول الله ﷺ مسير قريش لحربه، في بدر، قام وطلب من الناس الرأي، فقام أحد أصحابه فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها ما ذلت منذ عزّت!! فكره رسول الله مقالته لما فيها من تثبيط للهمم والعزائم، وقام آخر وقال كما قال سابقه، ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إننا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.. فقال له رسول الله خيرا ودعا له.. وقام سعد بن معاذ وقال مثل مقالته، فسر رسول الله بذلك، وقال: لكأني أنظر إلى مصارع القوم..

إن أهمية الأوائل أنهم لا ينتظرون.. بينما غيرهم قد يفكرون نفس التفكير لكن الإقدام على خلاف المألوف، يحتاج إلى عزيمة بأس، وقوة قلب، وشجاعة مبادرة وهي لا تتوفر لدى كل أحد.. والأوائل رضوا لأنفسهم أن يكونوا مبادرين. وغيرهم ينتظرون أن يتقدم أحد فيتبعونه.

والأولية لا تأتي عفواً وبلا مقدمات، وإنما لكون صاحب هذا الموقف، يملك شخصية من هذا النوع، فلن ترى جباناً بطبعه يكون أول من يبرز للقتال في مورد، ولا من هو بخيل بطبعه يكون أول من أعطى، وهكذا. ولهذا وجدنا صفات الأوائل لا تحتاج في بعض الشخصيات إلى كثير عناء

لإثباتها لأنها تجري على مقتضى القاعدة، فإذا قيل أن عليا عليه السلام أول من آمن، وأول من استجاب، وأول من يخرج لنداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحروب، وأول من يتصدق.. بينما يحتاج الآخرون في إثبات هذه الخصلة وتلك إلى كثير من الجهد، لأن هذه الصفات لا تأتي إلا مع كثير من الاصطناع. ولا تنسجم مع التركيبة العامة للشخصية.

❁ ❁ ❁ ❁

وأمامنا امرأة من الأوائل.. فهي أول شهيدة من النساء المسلمات، دفعت حياتها ثمنا لعقيدتها، في وقت كانت العقائد تستام فيه بالثمن البخس، والدراهم المعدودة.. كان من الممكن أن تكون من الكم المهمل المنسي من الجواري والخادمات، اللاتي ينهين أعمارهن بين إعطاء اللذة والمتعة حينا وبين المكنسة والممسحة حين يتجاوز بهن الزمن ذلك، لا يعرفن ما يدور حولهن، ولا يردن أن يتعرفن على ذلك..

لكن سمية بنت خياط رفضت هذا المصير، ورأت بعد أن اهتدى عقلها إلى الله، وقلبها إلى الالتزام بلوازم تلك العقيدة، أن الأمر يستحق التضحية..

افتتحت سمية يومها في بيت أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي بما تعمله هي ومثيلاتها في بيت مخدوميها، وقد كانت مولاة لهم، إلى كان يوم ساق إليها حسن توفيقها ياسرا، وهو بدوره حليف لأبي حذيفة، وزوجها إياه أبو حذيفة، ولم يكن لها خيار مع أمر سيدها، وإن كان هذا الزواج في علم الله سيكون بداية السعادة الحقيقية لها، حيث رزقت بزوج ستمر عليه الأيام فيما بعد فإذا هو يعينها على الصمود على الحق الذي آمنا به، ويكون نتيجة ذلك الزواج (عماراً) ذلك الذي قدر له أن يمتلئ إيماناً من رأسه إلى قدميه.

وضجت محافل مكة بأخبار الدعوة الجديدة والداعي الجديد، بين غاضب منه ومشفق عليه، ومتحدث عن قلة حكمته لو كان يريد مواجهة

مجتمع قريش بكامله، بل يريد مواجهة الآلهة التعرض لغضبها، وتحديها ولا يفعل ذلك أقوى الفرسان والشجعان، فكيف بيتيم أبي طالب؟ ماذا لو سلبه (هبل) البركة؟ أو غضبت عليه (اللات)؟

ثم لماذا يفعل ذلك؟ أيريد من إثارة تلك المشاكل أن يحصل على الأموال. ؟ فهو يساوم على أن يشتروا منه الهدوء والسكوت بأموال خاصة وهو الفقير الذي لا يملك الأموال كما يملكون. ؟ أو أنه يريد أن يصنع له شخصية يقارع بها سادة قريش التقليديين، ويريد أن يتسود ويحصل على الملك والرئاسة؟ وهل أن هذا هو حلقة من حلقات الصراع بين بني هاشم وبني أمية لزعامة قريش؟

وكان الموالي، والعبيد يسترقون السمع لما يدور في مجالس القرشيين تارة، فيجدون فيهم خوفا لا على آلهتهم ولا ديانتهم، وإن كانوا يظهرون ذلك، ولكن على تجارتهم ورئاستهم وموقعهم الاجتماعي، وهو الأهم، يخافون على أموالهم ... ولتذهب الآلهة إلى الجحيم.. إنما يعبدونها لأنها تعبد الطريق أمام ثروتهم وسلطتهم، ويخدمونها لأنها تخدمهم، ويقدسونها لأنها تصنع لهم قدسية عند الآخرين.. يستمع هؤلاء الموالي والخدم والعبيد فلا يجدون صدقا عند سادتهم حتى في عبادتهم. وتتسرب إليهم من بعيد كلمات متفرقة، وأشياء مبتسرة عن الدعوة الجديدة، فيجدون في متفرق الكلمات ذاك، اجتماع الشمل الإنساني، وفي مبتسر الأفكار خريطة واضحة عن المسير والمصير.. ها هو يبين لهم ما في أعماق فطرتهم من أنه ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ و﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ**﴾، وأن هذه الحياة ليست نهاية المطاف، بل يبعث الناس إلى يوم الحَشر والتناصف والتغابن، وأما الأموات فإنه ﴿**يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾.

وسعيد الحظ من هؤلاء من كان يستطيع أن يتصل اتصالا أوثق بصاحب الدعوة سواء بنحو مباشر أو غير مباشر لكي يؤمن على يديه..

وكانت سمية وياسر من أولئك السعداء، فقد أسلم عمار ابنهما وكان يستطيع الاتصال بالنبي ﷺ، وتفهم الدعوة المحمدية، وجاء فرحا بذلك الكنز الذي يعادل وجوده، لكي يلقي على والديه ما سمع، فيجد منهما أذنا صاغية، وقلباً مخبتاً واعياً، وفطرة سليمة لم تكدرها سنوات العيش مع كفار قريش. وكان أن أسلمت الأسرة بكاملها.

كمن يلدغ برقطاء سامة، انتفض آل أبي المغيرة المخزوميين عند سماعهم نبأ إسلام الأسرة، وكان عليهم أن يظهروا أمام باقي قريش إخلاصهم لأوثانهم، وعزمهم على مقاومة الدعوة بالقسوة على مواليهم.. ربما لم يكن مهما عندهم كثيرا أن تتغير عقائد هؤلاء، ما داموا يتمكنون من استخدامهم واستعبادهم، لكن المشكلة أن هذا الدين الجديد، ينفخ في معتنقيه فطرة الحرية، وعدم الخضوع إلا لله الواحد.. وهذا ما كان يؤذيهم. المشكلة أن كفار قريش بدأ بعضهم يلوم بعضا، ويتهم بعضهم بعضا بالتستر على أبنائه، وأقاربه ممن آمن بمحمد، فيقدم صلة القرابة على آلهته، ويفضل حميمه على اللات وهبل والعزى.. وهذا أيضاً مما كان يدل على عدم صدق أولئك فهم تجار حتى في العبادة، ويتحركون ضمن دائرة المصلحة حتى فيما يرتبط بأمور الدين..

ولكي يبرهن هؤلاء على حماسهم الشديد لآلهتهم، وأنهم لا يتنازلون عنها فقد صبوا جام غضبهم، بل كل حقدهم على أولئك الضعفاء من الموالي والعبيد الذي ساقهم قدر ماضيهم لأن يكونوا في بيوت الكفار.

ووضع ياسر على رمضاء الأبطح وكان ربما ألبس أدرع الحديد في أيام القيظ اللاهب ويترك ينصهر في الشمس، وربطت سمية للعذاب والتنكيل، ودارت أيام العذاب وئيدة، بطيئة، يومها شهر وشهرها دهر، والأبدان تذوى، والمهجة تتفانى، وشمعة العمر تطفئها رياح القسوة.. ويمر النبي الكريم ﷺ، ويرى القوم هكذا، فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة..

وكان ذلك من معجزات نبوته صلوات الله عليه، أن يخبر عن أن هذه

الأسرة تزف إلى الجنة، مع أنه يحتمل أن يتراجع أحدهم أو ينصرف عن دينه.. بل حتى عندما طال العمر بعمار الابن، وعاصر مختلف الأحداث إلى أكثر من أربعين عاما بعد مقالة النبي ﷺ تلك، فإنه كان في مواقفه على موعد مع الجنة دائماً فلا يختار إلى ما يؤدي به إليها..

واستمر العذاب، واستمر الصمود، وكأن سمية ومعها ياسر هم الذين يعذبون سادتهم، وينغصون عليهم حياتهم؛ كانوا وهم في أدرع الحديد في الشمس في قيظ مكة محرومين من الماء والراحة، بينما كانوا في أتم سلام نفسي، وهدوء داخلي وهم ينتظرون عن قريب تحقق موعد رسول الله، وفي المقابل كان آل أبي المغيرة وأبو جهل، وسواهم، ينتظرون صرخة استسلام أو تراجع من الشيخين الكبيرين الطاعنين في السن، فلم يحظوا بذلك، وكان هذا يمرغ أنوفهم في التراب، لكأنهم تفقأ في أعينهم حبات الحصرم غيظاً، ويهز وجودهم هذا الصمود، فيزيدهم غيظاً على غيظ، ويرفع الضغط في دمائهم إلى آخر مستوياته.

وصبرت سمية وزوجها، ولم يصبر معذبوهم، وانتصر في هذا السباق المعذَّبون على المعذِّبين، ولم يستطع هؤلاء مواصلة المشوار.. وقام أبو جهل لما ركبه من الغيظ وبيده حربة وهو يزبد ويرعد، وأقبل نحو سمية، وأمرها أن تكفر بمحمد، وابتسمت هازئة منه.. لقد انتهى زمن الأوامر يا أبا جهل.. إن سمعا يصيخ لنداء الله لا يستطيع أن يلتقط ذبذبات الكفر!

وأعاد الكرة مرة أخرى، مهدداً بالقتل مع أن قتل النساء يعتبر عاراً عند العرب في المعارك، فكيف إذا كانت المرأة مربوطة ومقيدة؟ لكنه لا يريد أن يعلن هزيمته أمام الملأ، عن إقناع امرأة مملوكة في أن تقول شيئاً، ولو كلمة واحدة، ولو كان يتمكن من التضرع إليها، أن لا تهزم كبرياءه أمام الناس لفعل.. كلمة واحدة، تنقذه ولو من طرف اللسان، ثم لتعد إلى ما كانت عليه.. كيف لا يستطيع سيد قريش أن يجبر امرأة من الموالي على قول كلمة، وهي وأمثالها سابقاً كن يتسابقن إلى رضاه؟ ماذا يقول عنه الناس؟ وبأي

وجه يلقاهم؟

وقر قراره على أن لا ينهزم مهما كلف الثمن، وبالفعل كان الثمن غاليا، عليه أيضا فإنه بقتلها أعلن أنه عاجز عن إقناع امرأة مملوكة أولا، وإجبارها ثانيا على قول ما يريد ولا تريد، ورخيصا عليها فقد مهد لها تلك الشهادة الدامية الخالدة التي ستوصلها إلى الخلود الأبدي في الجنة.

ورفع الحربة يا للعار، سيد قريش، البطل المقاتل يبرز لقتل امرأة مربوطة في القيود على التراب، وانغمست الحربة في قلبها، وفاضت روحها الطيبة مفارقة جسمها إلى عالم الخالدين، مصافحة آسية داعية **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**.

موعدكم الجنة:

بصيرة واضحة ورؤية صادقة من صادق مصدق، تظل إحدى علامات صدق النبي، إلى أن يتوفى وعمار في ركابه قد «حشي إيمانا ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيماناً» وذلك لأنه «جلدة ما بين عيني وأنفي» كما قال رسول الله ﷺ[1]. لقد أصبح عمار، كما كان سيده علي عليه السلام، ميزان حق وهداية، فإذا كان موعده الجنة فلا شك أن مواقفه ستكون مستقيمة حتى يصل إلى الجنة. ولهذا كان نعم النصير لأمير المؤمنين.. فإذا ذُكر خيرة الأصحاب ذكر عمار بن ياسر، بينما لم تكن علاقاته مع الخلافة السابقة لعهد أمير المؤمنين كما ينبغي، فقد ولاه الخليفة عمر بن الخطاب، ثم عزله فقال له: أساءك عزلنا إياك؟ قال: لئن قلت ذاك لقد ساءني استعمالك إياي!![2]. ولم تكن علاقته مع الخليفة الثالث ودية كما ينبغي فقد أنشد عمار ما سمعه من علي عليه السلام حين بناء المسجد:

(١) التستري، قاموس الرجال، ج ٨.

(٢) التستري، قاموس الرجال، ج ٨.

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها راكعاً وساجدا
وقائماً طوراً وطوراً قاعداً ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعه عثمان فقال: يا بن سمية! ما أعرفني بمن تعرض، وكان معه جريدة فقال: لتكفن أو لأعترض بها وجهك.. فلما بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك قال: عمار جلدة ما بين عيني وأنفي، فمن بلغ منه ذلك فقد بلغ مني[1].

وعادت إلى قرارها بعد محارها، وقرت عين عمار فهذه صورة رسول الله في شخصية علي أمير المؤمنين، وهذه أحكام الدين بيد الأمين الذي يقول: «فاسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مئة وتضل مئة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها، ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلا ومن يموت منهم موتاً»[2].

ولم يكن شيطان الهوى، وعبيد الشهوات ليتركوا هذه التجربة الرائدة في الادارة الإسلامية، تسير في طريق آمن فوضعوا العراقيل، وحاكوا المؤامرات و«نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.. بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها»[3].

وبقدر ما كان عمار متفانيا في الدفاع عن الرسول والرسالة في بداية الأمر، فقد دافع بنفس القدر والحماس عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن حكومته ودولته، محققا بذلك قول رسول الله لعلي أنه يقاتل على التأويل كما قاتل هو

(١) التستري، قاموس الرجال، ج ٨.
(٢) عبده، الشيخ محمد، نهج البلاغة.
(٣) عبده، الشيخ محمد، نهج البلاغة.

صلى الله عليه على التنزيل، فقد حمل عمار على أهل الشام يوم صفين، وهو يرتجز:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن حليله
أو يرجع الحق إلى سبيله يارب إني مؤمن بقيله

«وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنا على الحق وأنهم على الباطل ،،اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك».

وشرب عمار آخر شربة هي نصيبه من الدنيا، لكي تقتله الفئة الباقية، علامة صدق على كلام رسول الله ﷺ.

الشهادة الدامية لسمية وزوجها ياسر كان لا بد أن تنتج شهيداً حيًّا، يحمل على راحة كفه روحه، ويقايض بها مبدأه، ويبيع لله وقت البيع نفسه بأن له الجنة، حتى إذا أزفت ساعة اللقاء بين الوالد والولد، قدم عمار مسربلاً بدمائه، فإنه مخاصم طواغيت الأرض القاسطين.



٥- الذلفاء بنت زياد بن لبيد

«إنك إن عصيت رسول الله كفرت».

❁ ❁ ❁ ❁

﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ كان هو الفخ الذي وقع فيه إبليس، والبئر التي ترنح فيها، عند استكباره وإبائه السجود لآدم والعجيب أنه نفسه صار سلاحه فيما بعد لتضليل بنيه..

التوجه إلى الذات والفخر على الغير، وأخيرا الاستكبار سلسلة تتابع حلقاتها، واحدة بعد الأخرى.

إن من ينظر إلى نفسه باعتباره واحدا من خلق الله له ما لهم وعليه ما عليهم، سوف لن يجد لنفسه حقا عند غيره، وبالتالي لن يسهل أمام نفسه طريق ظلم الآخرين، بينما من يرى أنه هو الأولى وهو الأفضل، سوف يجد لنفسه حقا أن يسلب غيره حقوقهم، وسوف يبرر لنفسه ظلم الآخرين.

ومهمة الديانات السماوية، أن تخرج الناس من دائرة ذواتهم إلى رحاب الله الواسعة، ومن فخرهم بما لا يملكون إلى فخرهم (لو شاؤوا الفخر) بما يكسبون من تكامل أخلاقي وروحي.

ولهذا وجدنا المعصومين عليهم السلام يؤكدون باستمرار على خطورة الفخر بما يحمل من استدراج لدركات أخرى، فهو «آفة الدين» و«من عمل

الجاهلية »، فهم من جهة ينسفون الأساس النفسي الذي يصنع الفخر فـ« ما لابن آدم والفخر أوله نطفة وآخره جيفة لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه »؟ ومن جهة أخرى يمهدون لقيام منظومة جديدة من قيم التفاضل الاجتماعي، يصبح فيها الكمال الأخلاقي بدل الجمال الجسدي، والصفات المكتسبة بالجهد والعمل الذاتي، بدل الصفات التي وجد فيها الإنسان مجبورا ولا دخل له في اختيارها كالعنصر والقبيلة، والشكل الخارجي.. الخ. ولهذا يصبح سلمان « منا أهل البيت » مع أنه ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾ ويصبح فيها « عمار جلدة ما بين عيني وأنفي ».. وضمن هذا الاطار يصبح « المؤمن كفؤ المؤمنة ».

المشكلة أن بعض المسلمين لم يدركوا أو لم يقبلوا مع إدراكهم هذا المعنى في حياتهم اليومية، وبقوا يعيشون في إطار الجاهلية الأولى التي ترى أن قيمة المرء هو ما يملكه، و« إذا كان عندك فلس فأنت تساويه ».

بل المشكلة تزداد عندما يبدأ الإنسان فخره بغيره، وبشيء لا يملكه، وهكذا يبدأ التكاثر والتفاخر بما يملك بملكية اعتبارية فإذا أعوزه الأمر يتفاخر ويتكاثر بما لا يملك، بمن هم في القبور رميم، بالعظام البالية، وبأن آباءه كانوا كذا، وأجداده كانوا كذا و﴿**حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾.

وقد تضحك عزيزي القارئ عندما تتصور إنسانا يتفاخر بأنه يعرف المسؤول الفلاني، وأن ابن عمه يقابله الوزير الكذائي..

وقد ابتليت النساء في كثير من المجتمعات بهذا المرض، فهي تتفاخر بلبسها واللباس ليس سوى قنية وبجمالها ولا دخل لها في هذا الجمال، وإنما هو اجتماع لحلقات وراثية تمتد عبر الزمان إلى الأجداد حتى تنتج هذا الهيكل والجمال مع ذلك ظل زائل يمر عليه الزمان فيخلقه وينهيه. وبمالها والمال غاد ورائح فإذا انتهى مجال الفخر الظاهري راحت تستلف وتستدين افتخارات من هنا وهناك، فهي ابنة عم فلان الثري، وهي من العائلة الكذائية ذات

الأمجاد، وزوجها ذلك الشخص المشهور.. الخ، وأنت ترى أن هذه الافتخارات كلها لا تمتلكها حتى بالملكية الاعتبارية الظاهرية..

والغرض من ذلك كله هو الذات ثم الذات، تأكيد الـ(أنا).. ﴿**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾ ونفس المطب الذي وقع فيه ابليس وأوقع فيه غيره، وهو الفخر بما لا يملك، فـ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ لو كان فيها فخر فهو فخر الخالق والصانع لا المخلوق الذي لم يكن إلا منفعلا في هذه العملية، ولم يكن ليقدم أو يؤخر شيئا.

نعم وجد من يعرف الفرق بين من تثقف بهذا النمط الجديد، وبين من لا يزال يعيش في أخلاقية الزمن القديم، الذلفاء بحسب الاعتبارات السابقة (جميلة وابنة سيد قومها..) وهذه كفاءات وميزات تفاضل اجتماعي، لم تخلقها الذلفاء ولم تساهم فيها. ولا تملك أن تخرج منها أيضا. وفي الطرف الآخر أيضا جويبر من السود، وقصير، ودميم، وهذه كلها لم يكن له أن يرفضها ولا يستطيع تغييرها، بل لماذا يغيرها؟ سوف يختار فيها بعد الشهادة فيسمو على كل هذه الأمور. كلاهما تعالى على هذه الاعتبارات، ولكن البطل الأول في هذا الفيلم كان الذلفاء، التي ركلت منظومة من العادات الباطلة التي نسف الإسلام بناءها، وطبقتها في حياتها.

هاهو جويبر يتحول إلى نموذج في الشكر للنعمة الإلهية وتلك الذلفاء تصبح مثالاً يغذي التشريع الإسلامي إلى سنوات متأخرة كما يلحظ من استشهاد الإمام الباقر عليه السلام بقضيتها، فعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد ابن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن أبي حمزة الثمالي قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ استأذن عليه رجل فأذن له فدخل عليه فسلم فرحب به أبو جعفر عليه السلام وأدناه وساءله فقال الرجل: جعلت فداك إني خطبت إلى مولاك فلان بن أبي رافع ابنته فلانة فردني ورغب عني وازدراني لدمامتي وحاجتي وغربتي وقد دخلني من ذلك غضاضة هجمة غض لها قلبي تمنيت عندها الموت.

فقال أبو جعفر عليه السلام: اذهب فأنت رسولي إليه وقل له: يقول لك محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب عليهم السلام: زوج منجح بن رباح مولاي ابنتك فلانة ولا ترده، قال أبو حمزة: فرحب به فوثب الرجل فرحا مسرعا برسالة أبي جعفر عليه السلام.

فلما أن توارى الرجل قال أبو جعفر عليه السلام: إن رجلا كان من أهل اليمامة يقال له: جويبر أتى رسول الله صلى الله عليه وآله منتجعاً للإسلام فأسلم وحسن إسلامه وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً وكان من قباح السودان فضمه رسول الله صلى الله عليه وآله لحال غربته وعراه وكان يجري عليه طعامه صاعا من تمر بالصاع الأول وكساه شملتين وأمره أن يلزم المسجد ويرقد فيه بالليل فمكث بذلك ما شاء الله حتى كثرا الغرباء ممن يدخل في الإسلام من أهل الحاجة بالمدينة وضاق بهم المسجد فأوحى الله عز وجل إلى نبيه صلى الله عليه وآله أن طهر مسجدك وأخرج من المسجد من يرقد فيه بالليل ومر بسد أبواب من كان له في مسجدك باب إلا باب علي عليه السلام ومسكن فاطمة عليها السلام ولا يمرن فيه جنب ولا يرقد فيه غريب ، قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بسد أبوابهم إلا باب علي عليه السلام وأقر مسكن فاطمة عليها السلام على حاله.

قال: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أن يتخذ للمسلمين سقيفة فعملت لهم وهي الصفة ثم أمر الغرباء والمساكين أن يظلوا فيها نهارهم وليلهم، فنزلوها واجتمعوا فيها فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعاهدهم بالبر والتمر والشعير والزبيب إذا كان عنده وكان المسلمون يتعاهدونهم ويرقون عليهم لرقة رسول الله صلى الله عليه وآله ويصرفون صدقاتهم إليهم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقة عليه فقال له: يا جويبر لو تزوجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك!

فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي من يرغب في فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال فأية امرأة ترغب فيّ؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جويبر إن الله قد وضع بالإسلام من كان

في الجاهلية شريفا وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعا وأعز بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلا وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيهم وعربيهم وعجميهم من آدم وإن آدم خلقه الله من طين وإن احب الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم وما أعلم يا جويبر لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلا إلا لمن كان أتقى لله منك وأطوع، ثم قال له: انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسبا فيهم فقل له: إني رسول رسول الله إليك وهو يقول لك: زوج جويبراً ابنتك الذلفاء![1]

قال: فانطلق جويبر برسالة رسول الله ﷺ إلى زياد بن لبيد وهو في منزله وجماعة من قومه عنده فاستأذن فاعلم فأذن له فدخل وسلم عليه ثم قال: يا زياد بن لبيد إني رسول رسول الله إليك في حاجة لي فأبوح بها أم أسرها إليك؟

فقال له زياد: بل بح بها فإن ذلك شرف لي وفخر!

فقال له جويبر: إن رسول الله ﷺ يقول لك: زوج جويبراً ابنتك الذلفاء.

فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إليّ بهذا؟ فقال له: نعم ما كنت لأكذب على رسول الله ﷺ فقال له زياد: إنا لا نزوج فتياتنا إلا أكفاءنا من الأنصار فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول الله ﷺ فاخبره بعذري.

فانصرف جويبر وهو يقول: والله ما بهذا نزل القرآن ولا بهذا ظهرت نبوة محمد ﷺ فسمعت مقالته الذلفاء بنت زياد وهي في خدرها فأرسلت إلى أبيها ادخل إلي فدخل إليها فقالت له: ما هذا الكلام الذي سمعته منك

(١) قال الجوهري: الذلف صغر الأنف واستواء الأرنبة.

تحاور به جويبراً؟ فقال لها: ذكر لي أن رسول الله ﷺ أرسله وقال: يقول لك رسول الله ﷺ: زوج جويبرا ابنتك الذلفاء.

فقالت له: والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله ﷺ بحضرته فابعث الآن رسولا يرد عليك جويبراً فبعث زياد رسولا فلحق جويبراً فقال له زياد: يا جويبر مرحبا بك اطمئن حتى أعود إليك ثم انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ فقال له: بأبي أنت وأمي إن جويبراً أتاني برسالتك وقال: إن رسول الله ﷺ يقول لك: زوج جويبراً ابنتك الذلفاء فلم ألن له بالقول ورأيت لقاءك ونحن لا نتزوج إلا أكفاءنا من الأنصار!

فقال له رسول الله ﷺ: يا زياد جويبر مؤمن والمؤمن كفو للمؤمنة والمسلم كفو للمسلمة فزوجه يا زياد ولا ترغب عنه، قال: فرجع زياد إلى منزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله ﷺ فقالت له: إنك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت فزوج جويبرا فخرج زياد فأخذ بيد جويبر ثم أخرجه إلى قومه فزوجه على سنة الله وسنة رسوله ﷺ وضمن صداقه.

قال: فجهزها زياد وهيؤوها ثم أرسلوا إلى جويبر فقالوا له: ألك منزل فنسوقها إليك، فقال: والله ما لي من منزل، قال: فهيؤوها وهيؤوا لها منزلاً وهيؤوا فيه فراشاً ومتاعاً وكسوا جويبراً ثوبين وأدخلت الذلفاء في بيتها وادخل جويبر عليها معتماً فلما رآها نظر إلى بيت ومتاع وريح طيبة قام إلى زاوية البيت فلم يزل تالياً للقرآن راكعاً وساجداً حتى طلع الفجر فلما سمع النداء خرج وخرجت زوجته إلى الصلاة فتوضأت وصلت الصبح فسئلت هل مسّكِ؟

فقالت: ما زال تالياً للقرآن وراكعاً وساجداً حتى سمع النداء فخرج فلما كانت الليلة الثانية فعل مثل ذلك وأخفوا ذلك من زياد فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فاخبر بذلك أبوها فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال

له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أمرتني بتزويج جويبر ولا والله ما كان من مناكحنا ولكن طاعتك أوجبت علي تزويجه فقال له النبي ﷺ: فما الذي أنكرتم منه؟ قال: إنا هيأنا له بيتا ومتاعا وأدخلت ابنتي البيت وادخل معها معتما فما كلمها ولا نظر إليها ولادنا منها بل قام إلى زاوية البيت فلم يزل تالياً للقرآن راكعاً وساجداً حتى سمع النداء، فخرج ثم فعل مثل ذلك في الليلة الثانية ومثل ذلك في الثالثة ولم يدن منها ولم يكلمها إلى أن جئتك وما نراه يريد النساء فانظر في أمرنا!

فانصرف زياد وبعث رسول الله ﷺ إلى جويبر فقال له: أما تقرب النساء؟ فقال له: جويبر: أو ما أنا بفحل بلى يا رسول الله إني لشبق نهم إلى النساء! فقال له رسول الله ﷺ: قد خُبرت بخلاف ما وصفت به نفسك قد ذكر لي أنهم هيؤوا لك بيتاً وفراشاً ومتاعاً وأدخلت عليك فتاة حسناء عطرة وأتيت معتما فلم تنظر إليها ولم تكلمها ولم تدن منها فما دهاك إذن؟

فقال له جويبر: يا رسول الله دخلت بيتاً واسعاً ورأيت فراشاً ومتاعاً وفتاة حسناء عطرة وذكرت حالي التي كنت عليها وغربتي وحاجتي ووضيعتي وكسوتي مع الغرباء والمساكين فأحببت إذ أولاني الله ذلك أن أشكره على ما أعطاني وأتقرب إليه بحقيقة الشكر فنهضت إلى جانب البيت فلم أزل في صلاتي تاليا للقرآن راكعا وساجدا أشكر الله حتى سمعت النداء فخرجت فلما أصبحت رأيت أن أصوم ذلك اليوم ففعلت ذلك ثلاثة أيام ولياليها ورأيت ذلك في جنب ما أعطاني الله يسيرا ولكني سأرضيها وأرضيهم الليلة إن شاء الله فأرسل رسول الله ﷺ إلى زياد فأتاه فأعلمه ما قال جويبر فطابت أنفسهم قال: ووفى لها جويبر بما قال: ثم إن رسول الله ﷺ خرج في غزوة له ومعه جويبر فاستشهد رحمه الله فما كان في الأنصار أيم أنفق منها بعد جويبر[1].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، فروع الكافي، ج٥ ص٣٤٣.

لا ينحصر الجهاد في ساحات المعركة بل هناك جهاد في ساحة القيم وتطبيقها وهو الجهاد الأكبر، فإن تطبيق القيم على الذات من أصعب المهمات، وهو الذي يقصر عن إدراكه الكثيرون.

في رحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام

١	أم سلمة (هند بنت أبي أمية المخزومية)
٢	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب
٣	الزرقاء بنت عدي الهمدانية
٤	سفانة بنت حاتم الطائي
٥	فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية



موجز عن حياة
علي بن أبي طالب عليه السلام (أمير المؤمنين)

الإمام أبو الحسن ٣٠ بعد عام الفيل- ٤٠هـ:

ولد أمير المؤمنين عليه السلام بعد ثلاثين سنة من عام الفيل وكان مولده داخل الكعبة المشرفة حيث انشق جدار الكعبة لأمه فاطمة بنت أسد لما أدركها الطلق وهي في الطواف كما ذكر ذلك معظم المؤرخين والمحدثين، وسجلت هذه الفضيلة لعلي عليه السلام وحده، لم يسبقه فيها نبي أو وصي منذ بداية الخلق.

منذ بدايات ولادته عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله يهتم به، ويرعاه إلى درجة أنه كان يوجره- وعلي طفل آنذاك- اللبن في حلقه، ويناغيه قبل نومه. وفي مرحلة تالية أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله من والده إلى بيته، وتربى الإمام علي عليه السلام على يد رسول الله مباشرة. وكان معه مدة ثلاث وثلاثين سنة.

كان أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله، وتلقى بالقبول دعوته، إذ بُعث النبي – كما أخبر الإمام علي عليه السلام – يوم الاثنين وآمن به الإمام يوم الثلاثاء..

عندما بعث رسول الله، وأمر بأن ينذر عشيرته الأقربين، جمعهم، وأطعمهم ثم خطبهم قائلاً: أيكم يؤمن بي و يؤازرني على هذا الأمر فيكون أخي ووصي ووزيري وخليفتي في أهلي من بعدي؟! فما قام أحد منهم إلاّ

علي بن أبي طالب فقال له: إن هذا أخي ووصيي ووزيري فاسمعوا له وأطيعوا.

كان لا يفتأ رسول الله عن الإشارة إلى علي عليه السلام بأنه أمير الناس وإمامهم، وأنه وصيه وخليفته ووزيره، وكان علي عليه السلام لا يدخر وسعاً في نصرة الرسول وفدائه بنفسه كما حصل في ليلة المبيت حيث بات أمير المؤمنين على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليغطي بذلك هجرته إلى المدينة.

بعد ما وصل النبي إلى المدينة، وكان قد أوصى علياً بأداء ودائعه إلى أصحابها في مكة أعلن الإمام علي عن عزمه على الهجرة إلى المدينة، وقال للقرشيين إن كان لهم وديعة أو دين عند النبي فليطلبوها منه، وأنه راحل بعد أيام. وكان هذا أبرز تحد لجبروت قريش: أن يخرج علانية، ولما أرسلوا رجالهم لمنعه كان نصيبهم مصافحة الأرض بوجوههم الدامية..

بعدما وصل إلى المدينة آخاه رسول الله مختصاً إياه بين جميع المسلمين، وزوجه ابنته فاطمة الزهراء، بعدما ردّ عدداً من كبار المسلمين الذين تقدموا لخطبتها.

اشترك في حروب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان فارسها جميعاً ففي بدر قتل (٢٧) مشركاً بمفرده بينما قتل المسلمون جميعاً الباقي وهم (٤٣) قرشياً. وفي أحد كان الثابت الأساسي إلى جنب الرسول ومعه عدد قليل من المسلمين، بينما لاذ أصحاب الأسماء بالفرار، حتى لقد سمع المسلمون جبرئيل منادياً بين السماء والأرض: لا فتى إلاّ علي. لا سيف إلاّ ذو الفقار. وفي الخندق قتل عمرو بن عبد ود العامري الذي جبن عن ملاقاته جميع المسلمين، وكانت ضربته لعمرو بن عبد ود يوم الخندق (أفضل من عبادة الثقلين)، وفي خيبر قتل فارس اليهود (مرحباً) وقلع باب حصن خيبر وتترّس به وحمل على اليهود ففتح الله على يديه، وهكذا كان حاله في سائر الحروب والغزوات.

أبقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة حينما خرج لآخر غزوة وهي تبوك

وعندما أرجف المنافقون بذلك، قال رسول الله ﷺ له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» فأثبت له كلما كان لرسول الله ما عدا النبوة.. من وجوب الطاعة والتفويض إليه، وكون إمامته عامة للناس جميعاً.

في آخر حجة لرسول الله (حجة الوداع) في السنة العاشرة، وحيث تدارك الرسول قرب أجله، أراد أن يصنع شيئاً يضمن به مسيرة الأمة بعده، فجمع الناس في غدير خم حيث مفترق طرق الحجاج وقام فيهم خطيباً معلناً لهم أنه كما أن الرسول هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم فعلي كذلك. وأنه مولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم أمرهم بالسلام عليه بإمرة المؤمنين.

مع وفاة الرسول ﷺ جرت الأمور في غير ما كان الرسول قد قدر لها، وزويت الخلافة عن أمير المؤمنين عليه السلام بتحالف كان بين أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، ضمن مبررات تنتمي إلى مرحلة ما قبل الشريعة.

رأى أمير المؤمنين أن وحدة الأمة الإسلامية ستنتهي، بل ربما ذهب الدين، لو أنه قام بالمعارضة المسلحة «فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى» كما فال. وتجاوز عن هذا الأمر حفاظاً على الدين.

ولدت خلافة أبي بكر جنين خلافة عمر إذ أنهما «تشطرا ضرعيها» وكبر هذا الجنين فأصبح «شورى» (فيا لله وللشورى) وجاء عثمان ومعه «بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وكبت به بطنته».

مع الأمور التي حدثت أيام عثمان بن عفان وتطور الأحداث إلى قتله، جاء المسلمون جميعاً إلى أمير المؤمنين مبايعين حتى «لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي» وهم يصرخون البيعة البيعة!!.

ما كانت تقرّ عيون المؤمنين بولاية أميرهم حتى قام الزبير بن العوام

ومعه طلحة ومن ورائهما أم المؤمنين عائشة بإشعال حرب الجمل ضد أمير المؤمنين عليه السلام وكانت أول بغي مسلح على الخليفة الشرعي المعيّن من قبل الرسول والمنتخب من الناس.

استمراراً لنفس السلسلة فما كان أمير المؤمنين يرجع إلى الكوفة حتى أعلن معاوية التمرد رافعاً قميص عثمان شعاراً لتمرّده وكانت معركة صفين.. ثم خدعة التحكيم، التي نتج عنها تمرّد أصحاب الجباه والقلوب السود من الخوارج.. ثم معركة النهروان معهم. وهكذا كانت السنوات الخمس التي حكم فيها أمير المؤمنين عليه السلام، لا ينتهي من معركة حتى تُفرض عليه أخرى.

وفي فجر التاسع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ، حينما كان الإمام يؤدي صلاة الفجر قام الخارجي عبد الرحمن بن ملجم باغتيال الإمام عليه السلام وهو ساجد في محراب مسجد الكوفة، وهكذا فتح عينه عليه السلام في بيت الله وأغلق عينه في بيت الله. وهذا يختصر عنوان حياته بينهما.

١- أم سلمة (هند بنت أبي أمية المخزومية)
أم المؤمنين المدافعة عن أمير المؤمنين عليه السلام

توفيت بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام وعمرها تسعون عاماً.

❁ ❁ ❁ ❁

ها هي تتذكر السنوات المنصرمات مع أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد، فيزيد وجدها عليه، وتبكيه بكاء الثاكل، ومن مثل أبي سلمة؟ ثم تتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي هذه وعوضني خيرا منها، إلا آجره الله في مصيبته وكان قمنا أن يعوضه خيرا منها..

لكن من مثل أبي سلمة؟ وطافت بها الذكريات كشريط مصور قبل أمس: ها هو أبو سلمة خارج معها بعد أن أسلما قاصدين إلى المدينة، وقد أعد لزوجته ولابنه سلمة هودجا. وثارت ثائرة المخزوميين من بني المغيرة، وقاموا إليه بمنطق الجاهلية لو كان لها منطق مانعين من سفر المخزومية هند: هذه نفسك قد غلبتنا عليها! أرأيت صاحبتنا هذه علام تسير بها في البلاد؟ وجروا خطام البعير.

وثار بنو عبد الأسد (قوم أبي سلمة) بنفس العقلية، واختطفوا سلمة الابن قائلين: لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبتنا.. وهكذا تجاذب

الطرفان طرفي الطفل الرقيق، وكانت النتيجة خلع يده، وأخذ بني عبد الأسد إياه. وهكذا صارت العائلة المكونة من ثلاثة أعضاء في ثلاثة أطراف: الأب عبد الله في طريق المدينة مهاجراً، والأم عند أهلها المخزوميين تندب حظها، والولد عند أهل أبيه بني عبد الأسد.

ومرت الأيام عليها وهي تخرج في كل يوم إلى الأبطح وتندب حالها، حتى اكتمل لها على ذلك سنة ورآها أحد أقاربها فرق لها، وتوسط لها عند بني المغيرة قومها قائلا: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وابنها؟

وكان أن تركوها تخرج إليه، فرد لها بنو عبد الأسد طفلها أيضاً. وهيأ الله لها من يرافقها في سفرها إلى المدينة فوصلت وكانت فرحة أبي سلمة بها وبابنه كشوقها إليه لا توصف.

وابتدأت المعارك بين قريش وبين المسلمين فكانت بدر والنصر المؤزر فيها، وعاودت الكرة في أحد وكاد النصر يكرر غير أن معصية بعض المسلمين لرسول الله أدت إلى الهزيمة، وكان لأبي سلمة دور بارز في الموقفين، وقد أصيب في أحد بسهم في عضده، وظل يعالجه شهرا كاملا لكيلا يفوته شرف الجهاد في المعارك القادمة، وفعلا فقد برئ الجرح فما أن أرسل الرسول سرية إلى قطن حتى كان أبو سلمة في مقدمتها، وغابوا في تلك قرابة الشهر، ثم رجعوا وكان الجرح قد انتقض على أبي سلمة فما بقي منه إلا عدة أشهر حتى انتقل إلى خالقه في السنة الرابعة للهجرة. وعادت للدمعة الساخنة.. لكأنّ هذه النفس فيها بقية شوائب تحتاج إلى غسل وتصفية بماء العين، عادت من جديد تلمس وطأة الألم.. هل كثير عليك أيتها المؤمنة فرحة أعوام لم تكتمل.. في أولها غصة البعد وفي آخرها شجى الموت؟

لكن.. ألم يرد في الأحاديث: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران قد ذهب يقتبس ناراً فإذا به يرجع بالنبوة»؟ وأليس

الله يعوض الصابر على المصيبة خيرا مما فقد؟ تُرى من يكون خيرا من أبي سلمة؟

❁ ❁ ❁ ❁

وذات يوم.. وكان سنها حينئذ في حدود الثلاثين من العمر، وقد انقضت عدتها فجاء رسول الله ﷺ، ولنتركها تتحدث:

لما انقضت عدتي من أبي سلمة أتاني رسول الله فكلمني بيني وبينه حجاب فخطب إلي نفسي، فقلت: أي رسول الله وما تريد إلي؟ ما أقول لك هذا إلا رغبة لك عن نفسي؛ إني امرأة قد أدبر مني سني وإني أم أيتام وأنا امرأة شديدة الغيرة، وأنت يا رسول الله تجمع النساء.

فقال رسول الله: فلا يمنعك ذلك.. أما ما ذكرت من غيرتك فيذهبها الله، وأما ما ذكرت من سنك فأنا أكبر منك سناً، وأما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله ورسوله.، فأذنت له في نفسي فتزوجني.

وبدأت حياتها بالصدق مع رسول الله في مشاعرها، واستمرت على هذا الصدق إلى آخر حياتها.

ودخلت هذا البيت النبوي، وكأنه كان هناك معادلة بين شكرها لله وصدقها وبين عطاء الله لها، فإذا كانت قد أصيبت بأبي سلمة فقد عُوضت بسيد الخلق، وإذا كانت كبيرة السن نسبة لغيرها وذات ايتام فقد عوضت من رسول الله بالحظوة التي جعلت بعض زوجاته تغار منها غيرة شديدة وما ذاك إلا لشدة احترامها للنبي ﷺ.

ها هي ترى، ويا لهول ما ترى.. أن بعض زوجات النبي لا يقمن بتقدير النبي كما ينبغي، ويتعاملن معه كزوج من الأزواج، وهو من هو! ها هي ترى أن بعضهن يتظاهرن عليه! ويتآمرن عليه! وتميل قلوبهن عنه حتى لقد أعلن القرآن ذلك صراحة!!

وأخذت من ذلك درسا، فإن الحكيم هو من يرى خطأ غيره فيجتنبه.
وكان أن حلت بذلك الخلق والاحترام البالغ لرسول الله محل الراحلة العزيزة خديجة بنت خويلد، ووجد رسول الله في حسن خلق اللاحقة ما يذكره بطيب عنصر السابقة، فبينما كان بعض نساء النبي عندما يغضبن منه لأتفه الأسباب يجبهن وجهه الكريم بالقول: أنت الذي تزعم أنك رسول الله!! كانت أم سلمة إذا أرادت أن تكلمه في أمر تلاحظ أبلغ وسائل الأدب والكمال، فها هي تذكر خديجة أمام النبي عندما أثنى عليها ﷺ بأفضل ذكر وتقول: «إنك لم تذكر من خديجة أمرا إلا وقد كانت كذلك غير أنها مضت إلى ربها فهناها الله بذلك وجمع بيننا وبينها في جنته».. فأين هذا الكلام وكلام بعض نسائه أمامه: ما كانت إلا عجوزاً حمراء الشدقين وقد أبدلك الله خيرا منها.!!

وحين وجدت بعض أصحاب النبي ﷺ يدخل في خصوصيات البيت الزوجي لرسول الله ﷺ قالت له منكرة عليه: يا بن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟ وقد علق عمر على ذلك قائلا: فأخذتني أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد.

الأم الثانية للزهراء بعد خديجة:

يُحاط زواج علي عليه السلام بتفاصيل استثنائية لا نجدها في أي زواج آخر فإنه نقل عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ «إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي»، هذا بعدما رد من خطبها من أصحابه، فالقضية هنا إلهية ويراد لهذا الزواج الميمون أن ينتج تلك الذرية والعترة التي هي عدل القرآن والثقل الآخر الذي لو تمسكت به الأمة لن تضل. إنه البيت الذي سيعد ليكون أهله مطهرين تكوينا من قبل الله من جميع الأرجاس والأدناس. وهكذا في تفاصيل الزفاف وحرص الرسول على ذلك خطوة بخطوة.. وهذا مما يسلط ضوءا على ما قيل من زواج (بنات) النبي الأخريات، ويعزز

النظرية التي يتبناها محققو المؤرخين من أنهن كن ربيبات للنبي[1]، ولذا لا نجد في السير والروايات إشارة إلى أي اهتمام غير عادي من قبل النبي في أمر زواجهن

ولقد أدركت أم سلمة بثاقب بصيرتها موقع الزهراء وعلي من النبي صلى الله عليه وآله، والدور المترقب منهما في خدمة الرسالة، لذلك كانت بالنسبة للزهراء اما ثانية بعد خديجة، فحرصت أي حرص على متابعة تفاصيل هذا الزواج.

فهاهو علي عليه السلام ينتظر بحياء المؤمن إذن الرسول له في إدخال فاطمة عليه، ولا أحد يتكلم، وتلاحظ أم سلمة ذلك فتدخل على رسول الله ومعها أم أيمن وبعض نسائه، وابتدأت أم سلمة قائلة: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله.. إنا قد اجتمعنا لأمر لو كانت خديجة في الأحياء لقرت عينها!

قالت أم سلمة: فلما ذكرنا خديجة بكى. وقال وأين مثل خديجة؟؟ وأخذ في الثناء عليها.

فقالت أم سلمة: فديناك بآبائنا وأمهاتنا؛ إنك لم تذكر من خديجة أمرا إلا وكانت كذلك غير أنها إلى ربها فهنأها الله بذلك وجمع بيننا وبينها في جنته، يارسول الله هذا أخوك وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب يحب أن تدخل عليه زوجته. فسر رسول الله سرورا كبيرا لما ذكرت أم سلمة خديجة ذلك الذكر الجميل، ورأى فيها صورة أخرى من عناية خديجة بفاطمة وقال: حبا وكرامة. وأمرهن أن يصلحن شأن فاطمة في حجرة أم سلمة.. ثم تقدمت أم سلمة أمامهن بالرجز والانشاد لما زففن فاطمة عليها السلام

❁ ❁ ❁ ❁

(١) يراجع: (بنات النبي صلى الله عليه وآله أم ربائبه)، للمحقق السيد جعفر مرتضى العاملي.

راوية أحاديث الولاية:

حرصت أم سلمة على صيانة خصوصية تلك الحياة ولذلك يقل حديثها -مع كثرته- عن حياة النبي الداخلية، نعم ربما نقلت لبعض النساء إذا سألنها ما يرتبط بهن من أحكام الغسل أو الجنابة فتستشهد على ذلك بقول النبي.

في المقابل اتجهت لرصد أحاديث الولاية، وبيان القيادة الصحيحة بعد النبي، والتركيز على فضائل العترة الطاهرة، ولذلك أثر عنها عدد غير قليل من أحاديث الفضائل في أهل البيت.

فهي من رواة حديث الغدير: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

وعن المساور الحميري عن أمه قالت: دخلت على أم سلمة فسمعتها تقول: كان رسول الله ﷺ يقول: لا يحب علياً منافق ولا يبغضه مؤمن[1].

ونقل عنها كثيراً وبطرق متعددة حديث الكساء، ويلاحظ المتأمل نوع عناية من قبلها رضوان الله عليها في نقل الحديث، خصوصاً مع ما يتضمنه من معاني العصمة الضرورية لأصحاب الكساء وتحديد أهل البيت في هذا الحديث تحديداً واضحاً.. فها هي تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة فدخلت بها عليه فقال لها ادعي زوجك وابنيك قالت فجاء علي والحسين والحسن فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له على دكان تحته كساء له خيبري قالت وأنا أصلي في الحجرة فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ قالت فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي

---

(١) الترمذي، حديث ٣٦٥١.

فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قالت فأدخلت رأسي البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله قال إنك إلى خير إنك إلى خير.. [١]

وعن سعيد بن المسيب عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول المهدي من عترتي من ولد فاطمة[٢].

وعندما بدأ الخط المنافق حملته لإسقاط الشرعية المتمثلة في أمير المؤمنين عليه السلام، قامت أم سلمة بدورها في حماية هذا القائد الرسالي مبينة أن عليا نفس الرسول وأن من انتمى إليه فقد انتمى إلى رسول الله، ومن عادى عليا فقد عادى الرسول فقد قال أبو عبد الله الجدلي (وكان يسكن الشام): دخلت على أم سلمة فقالت لي: أيسب رسول الله فيكم: قلت: معاذ الله أو سبحان الله أو كلمة نحوها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سبّ علياً فقد سبني[٣]. ومثل ذلك قالته لشبث بن ربعي.

وعنها أيضا روى الحاكم في المستدرك بسنده أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض.

وهكذا كانت رضي الله عنها شديدة العناية ببيان خط الإمام وارث رسول الله، بنكران للذات تغبط عليه، ومع أنها أفضل زوجات رسول الله بعد خديجة، إلا أننا نلاحظ أنها لا تحاول إظهار هذا الجانب أصلاً، بينما تشيد بالإمام الحق.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) مسند أحمد، ح ٢٥٣٠٠. والترمذي، ح ٣٨٠٦.
(٢) سنن أبي داود، ح ٣٧٣٥.
(٣) مسند أحمد، ح ٢٥٥٢٣.

والتحق الرسول بالرفيق الأعلى بعدما أوصى أمته بالثقلين، ودعاها إلى التمسك بهما، والسير خلف علي فإنه مع الحق ولن يخرجهم من هدى إلى ضلال. وقامت قيامة قريش في حربها الثانية فأقصت نفس النبي عنوة عن موقعه الإلهي، وجرى للزهراء ما جرى فحرمت فدكا، وخطبت خطبتها المعروفة في المسجد، وخطب الخليفة بعدها خطبته المعروفة التي قال فيها: يستنصرون بالضعفة ويستعينون بالنساء مثل ثعالة شهيدُه ذَنَبُه!!

فقامت أم سلمة غاضبة تقول له: ألمثل فاطمة يقال هذا؟

ودفعت أم سلمة ثمن مواقفها تلك، وحل عليها ما حل على أهل البيت من إبعاد عن الواجهة، ولكن ذلك لم يكن ليفت في عضدها ولا ليغير موقفها الذي أخذته عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا كان التغيير الحاصل بعد الرسول مباشرة قد بقي في حدود (سكت عليها المسلمون) فإن التغيير الذي حصل أيام الخليفة الثالث من تحكم الأمويين في الوضع الإسلامي وبيت المال قد وصل حدا لم يسمح لأحد بالسكوت عليه فالسواد (العراق) اصبح بستان قريش ومحل نزهتهم، وابن مسعود أصبح صرافاً لبني أمية.. حتى أن عائشة قالت ما قالت في حق الخليفة.

وهكذا اجتمع الكل على عثمان.. المنكرون عليه بحسب الموقف المبدئي الذي يصنع للمؤمن حساسية تجاه المنكر، والمنكرون عليه بحسب التطلع إلى الخلافة وأنهم سوف يكونون في رأس قائمة المرشحين للخلافة، ولكن خاب الفال هذه المرة فإذا بالناس تقبل على أمير المؤمنين عليه السلام «إقبال العوذ المطافيل تقولون البيعة البيعة، قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها»، فـ«ما راعني إلا والناس إلي كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم».

تنفس الناس هذه المرأة رائحة محمد «في حكم علي عليه السلام. وجاء عمر بن أبي سلمة إلى المسجد واستمع خطبة علي عليه السلام، ولمحه علي فقال له بعد ذلك استأذن لي على أمك، فجاء علي ومعه عمر فدخلا على أم سلمة، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: أعطني الكتاب الذي دفعه إليك رسول الله وآيته كذا وكذا، فقامت واستخرجته، ثم قالت لابنها: يا بني الزمه فلا والله ما رأيت إماما بعد نبيك غيره»[1].

❁ ❁ ❁ ❁

«اللهم إنهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألّبا الناس علي فاحلل ما عقدا ولا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا»[2].

ما أن تولى أمير المؤمنين الخلافة حتى هبت رياح الأهواء عاصفة لتقتلع هذا الحكم الرسالي، وتضامنت في ذلك المشاعر الشخصية مع الطموحات السياسية يضاف إليها الرغبات المادية، فاجتمعت ألوان الطيف ذاك، وهي المتفرقة من طلحة إلى مروان وهما الأعداء، ومن الزبير إلى يعلى ابن أمية (صاحب الجمل عسكر).. وكان لا بد لهؤلاء من غطاء شرعية، فلا يصدق أحد أن يكون هؤلاء قد قاموا ضد علي عليه السلام لأجل الإسلام، فمن أولى بالإسلام منه؟؟

وقد تصورت أم المؤمنين عائشة أنها تستطيع حل المشكلة في حدودها تبعا لمكانتها الاجتماعية ولم يكن الخارجون يريدون حل المشكلة وإنما كانوا (يريدون الغدرة). وقد غفلت عن ذلك.

وبناء على التصور السابق فقد وهكذا جاءت أم المؤمنين عائشة إلى أم المؤمنين أم سلمة تستميلها لمشروعها السابق.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢٢.

(٢) عبده، الشيخ محمد، نهج البلاغة.

فقالت لها: يا بنت أبي أمية أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله ﷺ وانت كبيرة أمهات المؤمنين وكان رسول الله ﷺ يقسم لنا من بيتك وكان جبريل أكثر ما يكون في منزلك!!

فقالت أم سلمة: لأمر ما قلت هذه المقالة؟!

فقالت عائشة: إن عبد الله (تعني ابن الزبير) أخبرني أن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحة فاخرجي معنا لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا.

فقالت أم سلمة: إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول، وما كان اسمه عندك إلا نعثلاً، وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله ﷺ أفأذكرك؟

قالت: نعم.

قالت: أتذكرين يوم أقبل (الرسول) ونحن معه حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلي يناجيه فأطال فأردت أن تهجمي عليهما فنهيتك فعصيتني فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية.. فقلت: ما شأنك فقلت: إني هجمت عليهما وهما يتناجيان، فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومي فاقبل رسول الله ﷺ علي وهو غضبان محمر الوجه فقال ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان فرجعت نادمة ساخطة؟

قالت عائشة: نعم اذكر ذلك.

قالت: وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ وأنت تغسلين رأسه وأنا أحيس له حيساً وكان الحيس يعجبه فرفع رأسه وقال يا ليت

شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط، فرفعت يدي من الحيس فقلت: أعوذ بالله وبرسوله من ذلك، ثم ضرب على ظهرك، وقال: إياك أن تكونيها، ثم قال: يا بنت أبي أمية إياك أن تكونيها يا حميراء، أما أنا فقد أنذرتك، قالت عائشة: نعم اذكر هذا.

قالت: وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ في سفر له وكان علي يتعاهد نعلي رسول الله ﷺ فيخصفها ويتعاهد أثوابه فيغسلها فنقبت له نعل فأخذها يومئذ يخصفها وقعد في ظل سمرة وجاء أبوك ومعه عمر فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب ودخلا يحادثانه فيما أراد ثم قالا يا رسول الله: إنا لا ندري قدر ما تصحبنا فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعا فقال لهما: أما إني قد أرى مكانه ولو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو أسرائيل عن هارون بن عمران فسكتا ثم خرجا فلما خرجنا إلى رسول الله ﷺ قلت له وكنت أجرأ عليه منا: من كنت يا رسول الله مستخلفاً عليهم؟ فقال: خاصف النعل فنظرنا فلم نر أحداً إلا علياً، فقلت: يا رسول الله ما أرى إلا علياً، فقال: هو ذاك، فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

فقالت: فأي خروج تخرجين بعد هذا فقالت: إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله.

فقالت: أنت ورأيك. فانصرفت عائشة عنها[1].

وكتبت أم سلمة بما قالت وقيل لها إلى علي عليه السلام وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه المصنف في غريب الحديث في باب أم سلمة على ما أورده عليك قال: ومن الكلام المشهور الذي قيل أن أم سلمة

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج٦ ص٢١٨ وقد ذكر شطراً منه جار الله الزمخشري في الفايق في غريب الحديث، وابن قتيبة.

رحمها الله كتبت به إلى عائشة انك جنة بين رسول الله ﷺ وبين أمته وأن الحجاب دونك لمضروب على حرمته وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه وسكن عقيراك فلا تصحريها لو أذكرتك قولة من رسول الله ﷺ تعرفينها لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو لقيك ناصة قلوص قعودك من منهل إلى منهل قد تركت عهيداه وهتكت ستره؟ إن عمود الدين لا يقوم بالنساء وصدعه لا يرأب بهن. حماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض اجعلي قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه وأنت على ذلك.

فقالت عائشة ما اعرفني بنصحك واقبلني لوعظك وليس الأمر حيث تذهبين ما أنا بعمية عن رأيك فإن أقم ففي غير حرج وأن أخرج ففي إصلاح بين فئتين من المسلمين(١).

ثم إن أم سلمة كتبت لأمير المؤمنين بما جرى بينها وبين عائشة، وما عزم عليه القوم، واتخذت الموقف الشرعي الذي يمليه عليها موقعها الديني، فقدمت ابنها جنديا في جيش أمير المؤمنين عليه السلام، والناظر في رسالتها يدرك مقدار الوعي الذي كانت تشتمل عليه هذه المرأة الرسالية. فقد روى هشام بن محمد الكلبي في كتاب الجمل أن أم سلمة كتبت إلى علي عليه السلام من مكة أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كريز ويذكرون أن عثمان قتل مظلوما وانهم يطلبون بدمه والله كافيهم بحوله وقوته ولو لا ما نهانا الله عنه من الخروج وامرنا به من لزوم البيت لم ادع الخروج إليك والنصرة لك ولكنى باعثة نحوك ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً.

وكرت سبحة التمرد فئة تتلو أخرى، فقد جاء الناكثون وبعد الناكثين

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٦ ص٢١٨.

قسط آخرون، وبعدهم جاء المارقون «كأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**. بلى لقد سمعوها ووعوها ولكن حليت الدنيا في أعينهم وغرهم زخرفها وزبرجها».

وقضى أمير المؤمنين شهيدا في محراب عبادته، وهل كان قميناً بغير الشهادة والمحراب؟ وعاد بنو أمية وتغلبوا على الأمة وقاموا ينزون على منبر رسول الله، فإذا بطرداء رسول الله زعماء المسلمين، وإذا بلعنائه يصبحون المقربين، ويأخذون ما كان بينهم وبين الأنصار والمدينة الطيبة من ثارات قديمة..

وأرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف حتى قدم المدينة.. وأرسل إلى بني سلمة والله ما لكم عندي أمان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر لأم سلمة واستشارها في ذلك، فقالت له: يا بني اذهب فبايع، احقن دمك ودماء قومك فإني قد أمرت ابن أخي أن يبايع وإني أعلم أنها بيعة ضلالة.

وفاضت دماً عبيطاً:

الانهيار الذي ابتدأ في زمن معاوية استمر في زمن يزيد كأبشع ما يكون، وهل تلد الحية إلا أفعواناً؟ ها هم قد احتضنوا خط الانحراف فأنتج وكما قالت الزهراء عليها السلام مستشرفة صورة المستقبل: «دماً عبيطاً وذعافاً ممقراً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الأولون».

ثلاث من السنين طبعت آثارها السوداء على جبين الأمة، ففي الأولى قتل السبط سيد شباب أهل الجنة، وفي الثانية وقعة الحرة وفي الثالثة هدم الكعبة، ولو بقي أكثر من ذلك لكانت الكارثة على كل الوجود الإسلامي.

كان قتل الإمام الحسين عليه السلام بتلك الصورة المفجعة عنوانا لما يجري

على الإسلام من انتهاك على يد الأمويين، ومن ذلك العنوان كان يمكن قراءة الرسالة التي تحته. لهذا لم يكن غريبا أن تجلس أم سلمة ذات يوم فزعة مرعوبة وقد رأت رسول الله في المنام أشعث أغبر باكي العين، ولما سألته أخبرها ببلوغ الكارثة مداها، وعلامة ذلك أن تنظر إلى القارورة التي أعطاها لها في حياته، فإنها تفيض دما عبيطا..[1]

لقد عادت بالذاكرة إلى أكثر من نصف قرن من الزمان عندما كان رسول الله ذات يوم في بيتها، وقال لها: لا يدخلن علي أحد فانتظرت فدخل الحسين عليه السلام، وحينئذ سمعت نشيج رسول الله، تقول أم سلمة: فاطلعت فإذا حسين في حجره والنبي صلى الله عليه وآله يمسح جبينه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت حين دخل.. فقال: إن جبريل عليه السلام كان معنا في البيت فقال: تحبه؟ قلت: أما من الدنيا فنعم، فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء. فتناول جبريل من تربتها فأراها النبي صلى الله عليه وآله، فلما أحيط بحسين حين قتل قال: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء. فقال: صدق الله ورسوله أرض كرب وبلاء[2].

وفي حديث آخر عنها أيضاً: أن رسول الله قال لها: يا أم سلمة إذا تحولت هذه التربة دماً فاعلمي أن ابني قد قتل فجعلتها أم سلمة في قارورة ثم جعلت تنظر إليها في كل يوم وتقول: إن يوماً تحولين دماً ليوم عظيم[3].

أيها الموت عجل.. فما طعم الحياة؟ ذهب الذين أحبهم وبقيت فيمن لا أحبه. ولم تكمل أم سلمة سنتها تلك بعد أن فارقت روح حسين حياتها.

---

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ٢٥٣.
(٢) العسكري، مرتضى، معالم المدرستين عن معجم الطبراني، ح ٥١ و٥٣.
(٣) العسكري، مرتضى، معالم المدرستين عن معجم الطبراني، ح ٥١ و٥٣.

٢- أروى بنت الحارث بن عبد المطلب

٣- الزرقاء بنت عدي الهمدانية

من المجلوبات إلى معاوية

كان من الطبيعي أن تصل الأمور إلى هذه النتيجة، وأن تذوق الأمة نتيجة كسبها، عندما تخاذلت وتوانت عن نصرة حقها، فقد أنبأهم أمير المؤمنين علي عليه السلام بأن عدوهم سوف يظهر عليهم «أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأنهم أولى بالحق منكم ولكن لإسراعهم إلى باطلهم وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا وأسمعتكم فلم تسمعوا ودعوتكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا. شهود كغياب وعبيد كأرباب.. أيها القوم الشاهدة أبدانهم الغائبة عنهم عقولهم المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه.. ».

انتهت معركة صفين بخدعة انطلت على طوال اللحى وقصيري العقول (الخوارج)، فخدعوا بشعار حماية القرآن وحكم القرآن، بينما كان بينهم القرآن الناطق يدعوهم في أخراهم، ولكن لا حياة لمن تنادي، فإذا بمن يفترض أن يكونوا أنصاره قد شهروا السيف في وجهه إن لم يقبل حكم القرآن!! ومتى لم يكن (القرآن مع علي وعلي مع القرآن)، لكنها الفطرة المنكوسة!!

هاهم أصحاب المظاهر الدينية الفارغة من المحتوى، المتماوتون على الخضاب، والمتهالكون على قصير الثياب، الذين يلخصون برنامج الدين في سواك في الفم، ولحية في الوجه خالية من الترتيب، الحافظون لحروف القرآن والمضيعون حدوده، الذين يظنون أن الجنة لم تخلق لسواهم! وأن الحور العين لا تقبل بغيرهم.. فالأمة كلها ضالة إلا من اتبعهم، وعلي بن أبي طالب لا يفهم قدر ما يفهمون ولا يحرص على القرآن قدر ما يفعلون!!

وقبل علي راغماً مهزلة التحكيم، وعاد من صفين إلى الكوفة يجر ألمه، فقد انتهى الأمر إلى أن يقرر أمر المسلمين ومصيرهم بين مكر عمروي وسذاجة أشعرية.. وهكذا خلع الثاني إمامه وأثبت الأول حاكمه، وقد كانا يسعيان لما ذهبا إليه.

ونجم قرن الشيطان الخارجي، وغال علياً عليه السلام في محراب عبادته، وقرت عيون الشامتين، فسجد من سجد شكرا (لله بزعمه).

وها هو معاوية بن أبي سفيان، يتربع على كرسي الخلافة!! ويصبح أميرا للمؤمنين.. ؟ وما الذي ينقصه بزعمه عن غيره؟ وبدأ في تنفيذ برنامجه، للقضاء على النهج العلوي، والفكر الإمامي، فقد بعث في أصقاع البلاد المسلمة نسخة واحدة بأن يشتم أمير المؤمنين عليه السلام على كل منبر في كل جمعة ومن أبى ذلك يعزل كما فعل بسعيد بن العاص عندما امتنع عن اللعن فقد عزله عن المدينة وجعل مكانه مروان بن الحكم.

ثم بدأ بتتبع شيعة أمير المؤمنين عليه السلام عامتهم وخاصتهم، فأما العامة فقد أوذوا في أرزاقهم ومعاشهم، فقد أرسل لولاته أنه: من قامت عليه البينة أنه يحب أبا تراب فاقطعوا عطاءه ورزقه، وامحوا اسمه من الديوان وأن لا تقبل لهم شهادة في المحاكم والقضاء. فلقي شيعة أهل البيت من الأمرين عنتاً كبيراً.

وأما خاصتهم فقد أحصاهم، ثم بدأ (خال المؤمنين!!) ينفذ في

المؤمنين مخطط التصفية والقتل، فاعتقل محمد بن أبي حذيفة وأبقاه في سجنه إلى توفي ﵀، وسجن صعصعة بن صوحان العبدي مدة ثم نفاه إلى البحرين حتى مات فيها، وأمر بقتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه «المصلين العابدين الذي كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم.. قتلتهم ظلما وعدوانا من بعدما كنت أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة أن لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم..»[1].

ولم يقتصر في سعيه ذلك على الرجال، بل عمّ النساء بفعله، ولولا أن قتل النساء كان عارا عند العرب لرأيت رؤوس القانتات على الأنطاع مقطوفة، ولكنه لم يترك أن يستدعيهن إلى مجلس حكمه من الكوفة على بعد المسافة، لمحاسبتهن على ما قلنه أو فعلنه من نصرة لأمير المؤمنين ﵇.

وبالرغم من أن الموقف كان يقتضي منهن التنازل أو التراجع، حيث هن في موقف ضعف وانكسار وهو في موقف قوة واقتدار ظاهرة، لكنها قوة النفس وصلابة العقيدة، فما تراجعن ولا تنصلن من مقالاتهن، بل أكدنها، وثبتن عليها. والقارئ لما جرى بينهن وبين معاوية ومن كان في مجلسه، يعتقد بيقين أن عنوان الرجولة لا يعطي بذاتها لصاحبه امتيازا ما لم يصدقه بعمل يدلل على استحقاقه لذلك العنوان، كما أن الأنوثة ليست عارا يلحق حامله، إذا ما أحسن العمل، فـ﴿**مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾[2]. إننا نجد الفرق الهائل بين مثل هؤلاء المؤمنات الصادقات في مواقفهن، وبين مثل بعض أولئك الرجال الذين يمثلهم (الحتات بن يزيد) الذي دخل على معاوية فلما أعطى من كان معه أموالا كثيرة، وأعطاه أقل منهم، سخط وسأله فقال له معاوية:

---

(١) من رسالة الإمام الحسين ﵇ لمعاوية.

(٢) سورة النساء آية ١٢٤.

إني اشتريت منهم دينهم ووكلتك إلى دينك.. فقال له: ومني فاشترِ؟؟. فهل تضع هذا (الرجل الفحل!!) في ميزان واحد مع تلك النساء اللبوءات؟

ولو كان النساء كمن سمعنا   لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فضل للهلال

فقد نقل في العقد الفريد، استدعاء معاوية إياهن، ووفودهن عليه، وما دار بينه وبينهم من حوار يبين كم كان لهن من دور هام في التعبئة المعنوية وفي إلهاب حماس أفراد جيش أمير المؤمنين عليه السلام في صفين. وفي كسر الكبرياء السلطوي للأمويين حتى بعد أن سيطروا على الحكم.

هذه أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت قد طعن بها السن لكنها عندما دخلت على معاوية وعنده عمرو بن العاص وعدد من وزرائه، لم تتردد أن جبهته بالحق الذي تعرفه، وبينت له خطأ أسلافه، وإصراره على الخطأ بعدهم عندما نازع أمير المؤمنين ما هو أهله، فهلم معي نرَ عنفوان الوعي المتمرد على آثار العمر والشيخوخة، لنقرأ ما ذكره المؤرخون عن ذلك اللقاء:

لما دخلت أروى بنت الحارث على معاوية، فلما رآها قال: مرحبا بك وأهلا يا عمة، فكيف كنت بعدنا؟

فقالت: كيف أنت يا ابن أخي لقد كفرت بعدي بالنعمة وأسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الإسلام ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاتعس الله منكم الجدود وأصعر منكم الخدود حتى رد الله الحق إلى أهله وكانت كلمة الله هي العليا ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو المنصور على من ناواه ولو كره المشركون فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ونصيباً وقدراً حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم مغفوراً ذنبه مرفوعاً درجته شريفا عند الله مرضياً فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم

وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم نبينا بمنزلة هارون من موسى حيث يقول: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ ولم يجمع بعد رسول الله ﷺ لنا شمل ولم يسهل لنا وعر وغايتنا الجنة وغايتكم النار ولعل الناظر يلاحظ أنها لا تكتفي بإدانة فعل معاوية، ولا تكتفي بعدم الاعتراف به فحسب، بل تحتج على غيره أيضا ممن نقدم على أمير المؤمنين محتجا بقرابة الرسول والاختصاص به، بينما كان علي عليه السلام من الرسول بمنزلة هارون من موسى.. ثم لا تنسى أن تجتاز الظرف الحاضر لترى ببصيرة المؤمنين العاقبة المنتظرة للمتقين، وللأشقياء عندما تقول: غايتنا الجنة وغايتكم النار.

وهنا انفعل عمرو بن العاص انفعالا لم يقدر على إخفائه فقال لها: كفي أيتها العجوز الضالة، وأقصري عن قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك.!

وبهدوء الواثق من كلامه، ونفاذ بصيرته قالت أروى: يا ابن اللخناء النابغة أتكلمني أربع على ظلعك واعن بشان نفسك فو الله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ولقد ادّعاك ستة من قريش كله يزعم أنه أبوك ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر (فاجر) فائتم بهم فإنك بهم أشبه.

وكأنما ألقمته كوم حجر، فانحجر في مكانه ولم يتكلم.

فتكلم مروان بن الحكم قائلاً: أيتها العجوز الضالة ساخ بصرك مع ذهاب عقلك فلا يجوز شهادتك، قالت: يا بني أتتكلم، فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم، وإنك لشبهه في زرقة عينيك وحمرة شعرك مع قصر قامته وظاهر دمامته، ولقد رأيت الحكم ماد القامة ظاهر الأمة سبط الشعر، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب، فاسأل أمك عما ذكرت لك فإنها تخبرك بشان أبيك إن صدقت.

فساد صمت ثقيل في المجلس، ورأى الحاضرون سيفاً هاشمياً مسلولاً من لسانها، تنبو عنه السيوف، وتخنع له الرقاب، فختمت بمعاوية قائلة: والله ما جرّأ علي هؤلاء غيرك، وإن أمك القائلة في قتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لي عن عتبة من صبر أبي وغمى واخى وصهري

فشكر وحشي علي دهري حتى ترم أعظمي في قبري

فأجابتها بنت عمي وهي تقول:

خزيتِ في بدر وغير بدر يا بنت جبار عظيم الكفر

صبحك الله قبيل الفجر بالهاشميين الطوال الزهر

حمزة ليثي وعلي صقري

فقال معاوية لمروان وعمرو ويلكما أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما اكره، ثم قال لها لكي ينهي المواجهة التي لا يستطيع الثبات فيها، وليس من أهل مضمارها: عفا الله عما سلف يا عمة.. هاتي حاجتك!

❁ ❁ ❁ ❁

وموقف الزرقاء بنت عدي الهمدانية، في حرب صفين حيث القلوب تطير ولا يثبت إلا من كانت روحه المعنوية في الدرجة العليا، كانت الزرقاء في موقف المشجع الواعي والحافز لهمم أنصار أمير المؤمنين عليه السلام، حتى لقد قال لها معاوية إنها شريكة في كل دم أريق من أصحابه، ومسؤولة عن كل رقبة ندرت عن كواهلهم فاستبشرت وتمنت ذلك!! هذا مع أنها كانت في دولة قد أفل فيها نجم الحق وهي في مجلس عدوها يوم أمس.

فقد ذكر المؤرخون أنه قد تذاكر معاوية مع عمرو بن العاص وعتبة والوليد موقف الزرقاء في صفين فاستشارهم في أمرها فأشاروا عليه بقتلها!! فلم يستحسن منهم ذلك، وقال أيحسن بمثلي أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة

بعدما ظفر بها.. المهم أنه كتب إلى عامله بالكوفة أن يحمل إليه الزرقاء مع بعض محارمها، ويمهد لها وطاءا لينا، وأن يوسع لها في النفقة استمالة لها، ولكي يكون صاحب اليد الطولى عليها..

فلما وصلت إلى الشام، ودخلت على معاوية قال لها: مرحبا وأهلا، قدمتِ خير مقدم قدمه وافد.. كيف حالك؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين: أدام الله لك النعمة!

ثم سألها: أتدرين لِمَ بعثت إليك؟

قالت: أنّى لي بعلم ما لم أعلم؟

فقال: ألستِ الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين على القتال؟ وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبُتر الذنب، ولم يعد ما ذهب والدهر ذو غِير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.. وكأنما قالت هذه الكلمات العامة لإنهاء المحاورة.. لكن معاوية تصور أن هذا ضعف منها، فأراد أن يستخرج ما عندها، ويستثمر الحال تلك، فقال لها: صدقت.. أتحفظين كلامك يومئذ؟.

فقالت: لا والله لا أحفظه، ولقد أُنسيته.

قال: لكني أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس ارعووا وارجعوا، إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها، إن المصباح لا يضيء في الشمس ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد، ألا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه. أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبرا يا معشر المهاجرين

والأنصار على الغصص فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، ودمغ الحقُّ باطله فلا يجهلن أحد فيقول كيف العدل وأنّى؟ ليقض الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب النساء الحنّاء وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده: والصبر خيرٌ في الأمور عواقبا.

إيهاً في الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين..

ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه!!

فقالت: أحسن الله بشارتك فمثلك من بشّر بخير وسر جليسه!

قال: أو يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله، لقد سُررت بالخبر، فأنّى لي بتصديق الفعل.

فضحك معاوية، وقال: لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته.. اذكري حاجتك.

قالت: يا أمير المؤمنين آليت على نفسي ألاّ أسأل أميراً أعنت عليه أبداً..

٤- سفانة بنت حاتم الطائي

«يا محمد: أصاب الله ببركَ مواقعه ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ولا سلب نعمة قوم إلا جعلك سبباً لردها».

❁ ❁ ❁ ❁

كيف تتعامل المرأة مع المشاكل الحادثة على مجتمعها وقومها؟

تنقسم النساء في ذلك إلى أقسام: فقسم منهن لا يرى لنفسه أي دخل أو شأن في ما يطرأ من مشاكل وقضايا عامة.. وهذا القسم يمارس السلبية الكاملة حتى على مستوى الاهتمام بالشأن العام، فضلا عن الممارسة العملية. فماذا يعنيها أن تكون هذه الفئة غالبة وتلك مغلوبة؟ هذا لا يشغل أي حيز من تفكيرها إنها تابعة في كل شيء: تابعة في دينها ودنياها، في فكرها وعملها، وفي كل أمورها لأبيها قبل الزواج ولزوجها بعده.. فماذا ينفعها أن تفكر أو أن تهتم.. مادام غيرها هو الذي يقرر لها طريقة حياتها؟ فضلاً عن الحياة الاجتماعية.

وقسم آخر من النساء وهو أقل من الفئة السابقة، ترى أنها أيضاً قد أنعم الله عليها بعقل، وأمرها بأن تفكر وأن تتدبر وتتأمل، وتدرس أحوال الأمم السابقة، وأن الخطابات القرآنية الآمرة بالتفكر والتأمل والنظر تشملها كما الرجل تماماً.. فعليها إذن أن تهتم وأن تفكر. خصوصاً أن ما يجري في المجتمع سوف يؤثر بشكل أو بآخر عليها مباشرة، فانتشار الصلاح

والفضيلة في المجتمع يعينها على ذلك، كما أن اندلاع نار الفساد والانحراف يمكن أن تأتي على بيتها وأولادها.. إن اهتمامها بالشأن العام يعني اهتمامها أيضاً بشأن عائلتها وأولادها حيث لا يمكن عزل التأثير الخارجي عن تربية الأولاد..

ولكن يبقى حدود هذا الدور هو في الاهتمام والتفكير والتأمل، وبمنظور رعاية الوضع الخاص في العائلة من دون أن تقوم هذه الفئة بمحاولة للتأثير في هذا الشأن العام، بنحو من أنحاء التأثير.

وقسم من النساء وهو الأقل بعد طي مرحلة التفكير والتأمل وتكوين النظرية، تجد أن من اللازم عليها أن تقوم بعمل ما في ضمن ما تقدر عليه وما تسمح به الظروف المحيطة من ثقافة دينية ووضع اجتماعي وتسعى إلى تغيير الفساد، وإصلاح الوضع. وهذه الفئة لا بد أن تجتاز (بحاراً) من التشكيك والأوضاع غير المناسبة، لحراجة المهمة التي تقوم بها، إذ يتشابك فيها الأمر الديني الصحيح مع الأمر الاجتماعي غير الصحيح، والنية الحسنة بالتثبيط السيئ، وهكذا.. ونظراً لخطورة هذا الدور وحراجة الموقف تنسحب الكثيرات منه، مما يجعل الوضع الاجتماعي للنساء في المجتمعات الإسلامية بالغ السوء فالمستقيمات القادرات على الهداية والإرشاد والتغيير منسحبات عن الفعل الاجتماعي المؤثر في صفوف النساء، يحدوهن في ذلك تصورات غير تامة عن المفاهيم الدينية العالية، وتشجيع من بعض الرجال على الانسحاب.. ويبقى الميدان لغير المستقيمات لكي يمارسن ما يحلو لهن من إفساد وتخريب.

بينما نحن نلاحظ بعض الصور المؤثرة التي كان لها نتائج باهرة عندما قامت بعض النساء بدورهن في الشأن العام على مستوى قومها ومجتمعها..

سفانة بنت حاتم الطائي، امرأة استطاعت بشجاعتها وهمتها وبمعرفتها أن تنقذ قومها ونفسها وأن تكون سببا في إيمان أخيها حتى بلغ ما بلغ..

فكيف حصل ذلك؟

كما الضوء المنبسط على الأفق فجرا أحاطت خيول المسلمين في الفجر بحي طيء، وأحكمت ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**﴾ الطوق على ذلك الحي بعد أن ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾ وكان على الخيل صاحب السورة علي بن أبي طالب.. فما هي إلا برهة حتى أسر الرجال والنساء، وسيق الجميع إلى مدينة رسول الله ﷺ.

لما أدخل أسارى طيء إلى المدينة وكانت سفانة بينهم، أخذ الحاضرون بجمالها وحسنها، حتى إذا تكلمت بذلك الكلام الفصيح، أنستهم عذوبة كلامها، جمالها وشكلها. فقد جعلن في مكان منعزل قرب باب مسجد النبي ﷺ، فلما مر النبي ﷺ، أشار إليها علي بن أبي طالب أن تكلم النبي[1].

فقامت برباطة جأش مع ما يفرضه حال الأسر على الرجل فضلا عن المرأة من الضعف وقالت: أي محمد، مات الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي الأعداء، أو أحياء العرب، فإني ابنة سيد قوم، وان أبي كان يحب مكارم الأخلاق وكان يطعم الجائع ويفك العاني ويكسو العاري، وما أتاه طالب حاجة إلا ورده بها.

فقال النبي ﷺ: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، ثم قال النبي: أطلقوها كرامة لأبيها.

لم تكن الشجاعة والبلاغة توأما يتيما لدى سفانة، بل كان فيها إضافة إلى ذلك النجدة والشهامة التي تشمل عموم قومها، بحيث أنها لم تكن لتقبل بأن يطلق سراحها (وتنجو بنفسها بينما يبقى أبناء قومها في الأسر) فقالت: أنا ومن معي.

---

(١) الإصابة ٨/ ١٨٠.

قال النبي: أطلقوا من معها كرامة لها. ثم قال ﷺ: ارحموا ثلاثاً، وحق لهم أن يرحموا: عزيزا ذل من بعد عزه وغنيا افتقر من بعد غناه، وعالما ضاع ما بين الجهال.

ثم قالت سفانة: يا رسول الله أتأذن لي بالدعاء لك؟

قال النبي: ﷺ نعم.

فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة قوم إلا جعلك سبباً لردها، قال النبي: آمين.

ثم أمر النبي لها بإبل وغنم سدت ما بين الجبلين فعجبت من ذلك وقالت: يا رسول الله هذا عطاء من لا يخاف الفقر قال: هكذا أدبني ربي!

ثم قالت: أتأذن لي بالذهاب إلى منازلي؟

قال النبي: لا، أنت في ضيافتي إلى أن يأتي من بنى عمومتك من تثقين به فمكثت في ضيافة النبي إلى أن أقبلت ذات يوم وقالت: يا رسول الله اقبل من بنى عمومتي من أثق به، فأمر النبي أن يهيئوا لها هودجاً جعل غشاءه خزاً مبطناً وسيرها النبي مع بني عمومتها.

❁ ❁ ❁ ❁

كان عدي بن حاتم أخ سفانة الذي كان يتعبد بالنصرانية وهو سيد قومه، قد هرب عندما علم بقرب هجوم خيل المسلمين، وغادر منطقته إلى دومة الجندل الخاضعة للروم سياسيا. وبقي هناك منتظرا للنتائج بينما قامت أخته بذلك الموقف الشجاع فخلصت قومها وعادت محملة بهدايا رسول الله ﷺ، «وسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن كلميه، فقيل علي بن أبي طالب.. »[1] ثم عطفت عنان سفرها إلى حيث ذهب أخوها.

(١) تاريخ الطبري ١/ ١٨٦.

يقول عدي: فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلي تؤمنا. فقلت: ابنة حاتم!! فإذا هي هي. فلما وقفت علي انسحلت تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بنية والدك وعورته؟ قلت: يا أخية لا تقولي الا خيرا فو الله ما لي عذر لقد صنعت ما ذكرت!

ثم نزلت فأقامت عندي فقلت لها: وكانت امرأة حازمة ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى والله أن تلحق به سريعا فان يكن الرجل نبيا فالسابق إليه له فضيلة وإن يكن ملكا فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت!!

قلت: والله إن هذا للرأي.

كان نتيجة رؤية سفانة لخلق رسول الله ونجاة أهلها بفعل موقفها، وإكرام الرسول لهم كرامة لها، أن أشارت على أخيها بالعودة إلى المدينة، والاطلاع على الأمور عن قرب، فما أكثر العداوات القائمة على غير أساس، وليس لها من سبب غير سوء الفهم والبعد عن الحوار، بينما كان رسول الله ﷺ بالنسبة لعدي أشد الناس عداوة في زعمه وكان يكرهه أشد ما يكره أحد أحدا، فإذا يصبح بعد اللقاء والمعرفة: المفدى بالنفس والأهل والمال.. وهكذا كثير من النزاعات.

يقول عدي: فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه، فقال من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم! فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته فو الله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها.. فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك!! ثم مضى رسول الله حتى دخل بيته فتناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال لي: اجلس على هذه. قلت: لا بل أنت فاجلس عليها! قال: لا بل أنت! فجلست وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. قلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم!

قلت: إن لي ديناً!

قال: أنا أعلم بدينك منك!

قلت أنت أعلم بديني مني؟

قال نعم. نعم.. ثم قال: ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى. قال: ألست ركوسياً[1] ألست تأكل المرباع؟

قلت: بلى قال فان ذلك لا يحل في دينك! قلت أجل والله وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل.

❁ ❁ ❁ ❁

اسلم عدي بن حاتم كما أسلمت أخته سفانة، وجرى ما جرى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولاحظ عدي كيف كانت الأحداث تجري، ومواقف كل طرف ونظر إليها نظر المتأمل.. كيف يجري كل هذا؟ بعد ما كان من رسول الله في أمر الناس باتباع علي وأهل بيته عليهم السلام، وكيف يعمل الحاكمون ما يعملون بعد «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»؟[2] أين ذهبت (البخبخة)؟ وأين صارت «أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»؟

ها هو يرى بطل الأبطال؟ وقاتل مرحب أسد الله وأسد رسوله ولكن على غير الصورة النمطية التي يعرفها عنه، لقد صار مجروراً بالحبل بعدما كان منصوباً بالنص وساكناً عن النهضة بعدما كان مرفوعاً بنصر الرسول! يقول عدي:

---

(١) الركوسية دين بين النصاري والصابئة القاموس وغيره.

(٢) كان عدي بن حاتم من رواة حديث الثقلين وحديث الغدير.. إضافة إلى غيرهما مما سمعه من حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في علي عليه السلام.

ما رحمت أحداً رحمتي علياً حين أُتي به ملبباً فقيل له: بايع، قال: فإن لم أفعل؟ قالوا: إذاً نقتلك، قال: إذا تقتلون عبد الله وأخا رسول الله! فرفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم اشهد![1]

هذا الموقف جعله يتفانى في حب علي والانتماء إليه، فإذا كان الناس يقتتلون على الإمرة والرئاسة، فهذا علي عليه السلام يصبر عن حقه ولو كان «في العين قذى وفي الحلق شجى» من أجل مصلحة الإسلام، «فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب»، وهنا لا نجد لسفانة ذكرا في المصادر التأريخية إلا أننا نعتقد أنها بعدما رأت من أمير المؤمنين عليه السلام ما رأت حيث كان الطريق إلى نجاتها ونجاة قومها على المستويين من السبي، ونجاتهم بالإسلام، بعدما أشار إليها متكرراً أن تكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قد قصت هذا الأمر على عدي حين ذكر الحادثة ومهدت أرضية انتمائه لأمير المؤمنين حتى إذا جاء ورأى فـ«لا أثر بعد عين». وعُد من السابقين الأولين إلى أمير المؤمنين.

لكن عدياً واصل مشواره مع أمير المؤمنين عليه السلام وشارك في معاركه كلها، وفقئت عينه في حرب الجمل واستشهد أولاده الثلاثة في حروب أمير المؤمنين، ثم كان له الحظ الأوفى في نصر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بعد شهادة أبيه، وفي حشد الناس للسير خلف قيادة الإمام الحسن بعد أن استنهضهم لقتال معاوية فسكتوا وما تكلم منهم أحد ولا أجاب بحرف.

فلما رأى ذلك عدي قال: أنا ابن حاتم سبحان الله، ما اقبح هذا المقام؟ ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة فإذا جد الجد

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار ج٨٢ ص٣٩٣.

فرواغون كالثعالب أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها. ثم استقبل الإمام الحسن بوجهه فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنبك المكاره ووفقك لما يحمد ورده وصدره فقد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك وسمعنا منك وأطعناك فيما قلت وما رأيت وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب أن يوافيني فليوافي. ثم مضى لوجهه فخرج من المسجد ودابته بالباب فركبها ومضى إلى النخيلة وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه، وكان عدي أول الناس عسكرا. ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ومعقل بن قيس الرياحي[1].. وتتابع الناس كل يقول كما قال عدي..

الأصول الطيبة لسفانة وعدي، ومكارم الأخلاق التي ارتضعا منها في ذلك البيت الكريم، كان من الطبيعي أن تنتج طيبا، وكرامة وشرفا. أما قال أمير المؤمنين عليه السلام مبينا دور الأصول الطيبة في عهده لمالك الأشتر «ثم الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة. ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف».

---

(١) مقاتل الطالبيين.

٥- فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية
أم البنين وزوجة أمير المؤمنين.

توفيت بعد واقعة كربلاء ودفنت في المدينة.

❁ ❁ ❁ ❁

«كان لأمير المؤمنين علي عليه السلام من الولد سبعة وعشرون بين ذكر وأنثى:

فالحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم والمحسن (سِقط) أمهم فاطمة بنت رسول الله سيدة النساء عليها السلام، ومحمد (أبو القاسم المعروف بابن الحنفية) أمه خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية. وعمر ورقية (توأمان) أمهما أم حبيب بنت ربيعة. والعباس وعبد الله وجعفر وعثمان (شهداء كربلاء) أمهم أم البنين بنت حزام الكلابية. ومحمد الأصغر المكنى بأبي بكر وعبد الله (شهيدا كربلاء) أمهم ليلى بنت مسعود الدارمية. ويحيى أمه أسماء بنت عميس الخثعمية، فهؤلاء الأولاد لستِّ حرائر، والباقي لأمهات أولاد شتى وهن نفيسة ورقية الصغرى، وأم هانئ وأم الكرام، وأمامة، وأم سلمة، وميمونة، وخديجة وفاطمة وزينب الصغرى وجمانة..».

غير أن الناظر في التاريخ يلاحظ جهة اختصاص في هذه الزوجات وأولئك الأولاد، فبعد الزهراء عليها السلام وأولادها، تتربع أم البنين فاطمة بنت

حزام وأولادها الأربعة على صهوة المجد والثناء الحسن وإن كان لا ينسى لمحمد بن الحنفية فضله ولسائر النساء حسن حالهن. وهذا أمر حري بالتأمل. ذلك أنه يفترض أن الجميع من نساء ومن أولاد كانوا يعيشون في ظل التوجيه العلوي، والتربية الحيدرية، فما الذي ميز بعضهم على بعض، وفضل بعضهم على بعض، طبعا هذا الحديث لا يشمل الزهراء عليها السلام فتلك لها منزلة لا يقاس بها غيرها، وهكذا أولادها.

إن أول ما نلاحظه في طريقة اقتران أمير المؤمنين عليه السلام بأم البنين احتفافه بمراسم غير عادية، فها هو أمير المؤمنين يطلب من أخيه عقيل وكان عارفا بأنساب العرب وأخلاقهم أن يخطب له امرأة ذات مواصفات خاصة لكي تلد له فارسا شجاعا ينصر ابنه الحسين عليه السلام ويتقاسم في كربلاء معه شرف الدفاع عن الدين تابعا لأخيه، فهو يعد هذا الزواج لقضية سيكون على أثرها حياة الدين وبقاء الشريعة..

وعرك عقيل ذاكرته، وجاس في قبائل العرب، يفكر في أشجعها، وأفضلها مروءة وشهامة، فقال لأمير المؤمنين عليه السلام: أين أنت عن فاطمة بنت حزام بن خالد الكلابية؟ فإنه ليس في العرب أشجع من آبائها ولا أفرس، كان هذا في المدينة.

وفي الطرف الآخر؛ هاهي فاطمة تجد أول حلقة من تفسير رؤياها قد تحققت.. من مثلها وقد كانت تتمنى أن تخدم وصي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأجفان عينيها وتفديه بمهجة قلبها، هاهي تصبح زوجة له!! فيا سعد يومها!!

لقد رأت في المنام ذات ليلة كوكباً منيراً تتبعه أربعة نجوم قد نزلت إلى دارها فملأت البيت ضياء ونورا، ولما أفاقت سألت أمها عن ذلك.

وأجابت الأم: ابشري يا بنتاه يتزوجك رجل عظيم، تنجبين منه أربعة أولاد.

وطرق الباب، من رسول لعلي عليه السلام يخطب فاطمة. عليٌّ الذي لم يتزوج على فاطمة الزهراء عليها السلام، أيام حياتها، ولم يفكر في ذلك، وإن لفق الأمويون السابقون، والأمويون اللاحقون له أكذوبة خطبته لبنت أبي جهل، وظنوا أنهم يطعنون في علي عليه السلام، فإذا بهم يطعنون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي التزامه بالمبادئ التي جاء يبشر بها؟ وما يدريك لعل الأمر مقصود أن يطعن في الطرفين الرسول والوصي؟

لكن بعد شهادة الصديقة الطاهرة فاطمة عليها السلام، ووصيتها بأن يتزوج الإمام بابنة أختها زينب، أمامة بنت العاص بن الربيع، وفعلاً فقد تزوج في البداية أمامة، ثم تزوج بعد ذلك بفاطمة بنت حزام الكلابية المعروفة بأم البنين. هذا وإن كان بعض المؤرخين يرى أن زواجه عليه السلام بأم البنين كان سابقا على زواجه بأمامة، لكنه بعيد مع ملاحظة أن أبا الفضل العباس وهو ولدها البكر قد ولد في عام ٢٦ هجرية، ويبعد جدا أن يكون الإمام عليه السلام دخل بها بعد شهادة الصديقة الزهراء فاطمة في السنة الحادية عشر، وتبقى المرأة بلا إنجاب مدة خمسة عشر عاماً.

لقد أصاب عقيل المحل المناسب، والعطر لا يعرف بالوصف بل يتضوع فيدل على طيبه ورائحته.

أم البنين وحسن التبعل:

تتعرض زوجات الرسل والأئمة والأولياء الصالحين إلى ضغوط كثيرة، وبعضهن يتجاوزن هذه الضغوط والمحن ويخرجن منها قرينات لأزواجهن، وعاليات في منازلهن، بينما تتوقف أخريات في أول الطريق، ولذا رأينا أن النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، يصارح زوجاته من البداية بما ينتظرهن ويخيرهن بين الارتقاء والسمو وبين الانحدار إلى دركات حب الدنيا، وعبادة اللذة والشهوة، فيقول ﴿**إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ**

اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

ولذا كان أتباع مذهب أهل البيت لا يرون لزوجة الرسول أو الإمام فضلا بمجرد زواجه منها، وإنما يرون فضلها في انسجامها مع خطه، وفي استجابتها لتوجيهاته، وسيرها على نهجه، وكانت المفاضلة بين زوجاتهم أيضاً تخضع لهذا المقياس.

فمن الضغوط التي تتعرض لها زوجة النبي أو الإمام، ما يمارسه في حياته الشخصية من أرقى درجات الكمال الأخلاقي من الزهد والقناعة، والإنفاق، وكل ذلك ينعكس أولا في بيته وحياته ومع زوجاته، إذ لا يعقل أن يكون آمرا للناس بتلك المثل، ومخالفا لها في منزله. وهنا تتعرض الزوجة تلك للامتحان فإما أن تستجيب لنمط تلك الحياة طائعة وترتقي بنفسها إلى ذلك المستوى العالي لزوجها. فتسعده وتسعد به، كما كان حال الصديقة خديجة بنت خويلد عليها السلام مع النبي محمد صلى الله عليه وآله. وإما أن تبقى حيث هي، فلا تحظى من الرسول أو الإمام بغير المنام والمضاجعة!! وأحيانا بغير الطلاق والمفارقة!! لقد وجدنا من زوجات الأنبياء والأولياء من كانت كذلك.

ومن الضغوط التي تتعرض لها ما يرتبط بالرسالة، فإن حياة النبي أو الإمام الرسالية، لا تخرج من تعب إلا لتدخل في مشقة، وخذ مثلا لذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنه قد «أوذي كما لم يؤذ نبي قبله»، وعلي عليه السلام الذي صبر «وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهبا».. هذه الضغوط والمشاكل تنعكس على من يعيش معه وأولهم زوجته، أو حياة الأئمة المعصومين عليهم السلام، ولا شك أن أي امرأة تحب أن تعيش ﴿**الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ وتتمتع بحياة زوجية هانئة صافية مما يشوشها من بغي الكافرين وأذى الظالمين.. وهنا محل الامتحان فإن حياة النبي والإمام والمؤمن الرسالي لا تخلو من هذه المشاكل، ولا تصفو له الدنيا. وتبقى الزوجة هنا بين أمرين

(١) سورة الأحزاب آية ٢٨.

أحلاهما مر: بين التزامها وتدينها وإيمانها ورؤيتها أنه لم ترزق امرأة كالتي رزقت من شرف الزوجية هذه، وبين رغبتها في الهدوء ومحبتها للدنيا، ولاسيما عندما تنظر إلى قريناتها ممن يرفلن في المال والهناء الظاهري وهي لا تملك ذلك.. فأي الخطين تقدم؟

ولأهمية الموضوع فقد ضرب الله سبحانه وتعالى في القرآن مثلا للذين كفروا بامرأتين من زوجات الأنبياء خانتا خط الأنبياء، وتركتا المسيرة الرسالية، وأحبتا الدنيا وركنتا إليها، فكانتا مثلا لكل الذين كفروا!! **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾**[1].

ومن الضغوط التي تتعرض لها زوجة المعصوم -وغيرها لكن هنا بنحو مضاعف لاحتمال أن ينطبق على بعض زوجاته الأخريات عنوان معين كالعصمة مثلا، أو على أبنائه من غيرها عنوان خاص- كيفية التعامل مع من هم في دائرة النبي والإمام، مثل زوجاته الأخريات، وأبنائه من غيرها. فهنا يحدث الصراع بين ما هو في النفس البشرية قبل التهذيب الأخلاقي من استئثار وشح، بل وعداوة أو بغضاء في بعض الأحيان، وبين ما ينبغي أن تتمثل به زوجة المعصوم. فضلا عن غيرها من النساء.

ولذا نجد انه في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، جعل حسن التبعل جهادا للمرأة، تثاب عليه ثواب المجاهد المرابط على خط النار، المعرض نفسه للقتل، ومهجته للتلف، ولعمري إن الأمر كذلك، فإن ما على المرأة في داخل بيتها، من مهمة تربوية، وما تعايشه من ضغوط نفسية تجعل الفائزة في هذا الميدان بمثابة المجاهدة، فإن هذا هو ميدان جهاد النفس المسمى بالجهاد الأكبر.

---

(١) سورة التحريم آية ١٠.

إننا عندما نلاحظ العلاقة غير السوية التي تنشأ بين بعض الزوجات، والتي سميت الزوجة الأخرى لأجل تلك العلاقة في اللغة العربية (ضرة)، لأن من شأنها الإضرار بسابقتها، والسابقة بلاحقتها. بل ونلاحظ المستوى الذي تصل إليه بعض النساء، أحيانا حتى ضمن بيوت النبوة والإمامة، من قبل بعض الزوجات بحيث تكيد الواحدة للأخرى، وتتظاهر الأولى على الثانية، وتغار غيرة شديدة، حتى ينزل في ذلك قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار. وينقل حديث عن النبي ﷺ ويدون. فهذه تكسر إناء تلك الذي أهدت فيه للرسول بعض الحلوى حينا، وتتآمر على الزوجات الجديدات حتى يقلن شيئا يطلقهن النبي على أثر ذلك الكلام و.. و..

عندما نلاحظ هذه المظاهر من العلاقة غير السوية سواء بين الزوجات أنفسهن، أو بين الزوجة والزوج، ندرك أنه لم يكن جزافا اعتبار حسن التبعل جهادا للمرأة وأي جهاد.

ولقد كانت أم البنين رضوان الله عليها في المستوى الأعلى من ذلك، فإن التاريخ لا ينقل لنا صورة واحدة مما ينقله عن تجارب أخرى من التغاير أو التآمر، أو الإضرار، بل قد ينقل خلاف ذلك من المراعاة والملاحظة الشديدة للمشاعر، فإنه قد نقل أن فاطمة بنت حزام لما انتقلت إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام، ورأت شدة تعلق أبناء فاطمة عليها السلام بأمهم، كانت تبدي لهم من الود ولذكراها من الاحترام، ما يطيب خواطرهم، وربما كانت تلاحظ أدق التفاصيل في مشاعرهم، فقد نقل أنها طلبت من أمير المؤمنين عليه السلام أن يغير اسمها وأن لا يخاطبها أمامهم باسم (فاطمة) لكيلا يذكرهم باستمرار بفقد الأم العزيزة، أو بأن أخرى قد حلت مكانها، ونعم ما فعلت. ولذا اشتهرت بكنيتها (أم البنين).

كما أن رعايتها وعنايتها لأبناء فاطمة عليها السلام، كانت تفوق رعايتها لأبنائها هي، ولعل هذا ما كانت تراه أيضا في تعامل أمير المؤمنين مع أولاده، والذي عبر عنه محمد بن الحنفية عندما أراد أحد أن يستثير فيه الحسد بأن قال

له ما بال أبيك يبعثك للقتال ويترك حسنا وحسينا عنده، فقال: أنا يمين والدي، وهما عيناه والمرء يذب بيده عن عينيه وذلك لما سبق أن قال أمير المؤمنين له في مناسبة أخرى: إنك ابن علي وهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم !

فقد نقل المؤرخون أنها لما أدخلت على أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كان الحسنان مريضين، وربما كان عمرهما في تلك الفترة في حوالي السادسة عشر، فبدأت تلاطفهما وتخفف بحسن كلامها عنهما ما يجدان من المرض والألم وكان هذا العنوان، هو الذي طبع حياتها معهما ومع بقية أبناء وبنات أمير المؤمنين.

وسيأتي فيما بعد ذكر أنها سألت بشر بن حذلم عن حال الحسين عليه السلام قبل سؤالها عن أبنائها.

أم البنين الأربعة:

كانت نتيجة الفترة التي قضتها أم البنين مع أمير المؤمنين عليه السلام (أربعة مثل نسور الربى)، وكان ما أراده أمير المؤمنين من هذا الزواج قد بدأ بالتحقق عندما أطل قمر العشيرة واستهل في الرابع من شهر شعبان من سنة ست وعشرين للهجرة. واستبشر علي عليه السلام، فهذا هو الفارس الموعود الذي سيسجل التاريخ وقفته مع أخيه الحسين في كربلاء في موقف (عق فيه الوالدَ الولدُ).

بينما كان الجميع في حالة فرح واستبشار، لا سيما أمه، كان علي عليه السلام يحمل هذا الوليد المبارك، يقبله ويكشف عن ساعديه فيقلبهما ويقبلهما ويبكي، فيدهش أمَه حالُ أبيه، وتسأله عن سبب بكائه، وما الذي يدعوه لذلك في ساعة فرح كهذه؟ ويطلعها أمير المؤمنين عيه السلام على غامض القضاء، ونبأ المستقبل وما سيجري عليه في نهضة كربلاء، وكيف ستشهد قطع هذين الكفين بعد ملحمة وجِلاد بطولي رائع، فبكت هي بدورها وأعولت ومن حضر في الدار حينئذ، لكن سلاها وعزاها أن الشهادة لأهل البيت عادة متكررة، وأنها من بيت وفي بيت ما ماتوا إلا قصعاً بالسيوف،

وأن ابنها سيكون على نفس الطريق في الغاية، متلبسا بنصرة الحق، متدرعاً بطاعة الإمام[1].

وأنجبت أم البنين بعد العباس عبد الله، وبعده عثمان، وأخيرا جعفر، وكان بين العباس وعبد الله قرابة تسع سنوات وبين عبد الله وأخيه عثمان سنة واحدة، وبين عثمان وجعفر خمس سنوات، فعن أعلام الورى للطبرسي أن العباس قد استشهد بالطف وله ٣٤ سنة، وأن عبدالله كان له ٢٥ سنة، وأن جعفر قتل وله ١٩ سنة[2] كما ذكر المقرم أن عثمان بن علي كان له يوم الطف أربعة وعشرون عاما.

ويفترض أن أم البنين قد قدمت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة بعد انتقاله إليها كعاصمة للحكم بعد المدينة المنورة، وبقيت معه إلى شهادته، مثلما انتقل معه سائر ولده وأهله. وإن كنا لا نرى في رواية مقتل أمير المؤمنين عليه السلام ذكرا لها ولا لسائر زوجاته الأخريات، وهذا غريب إذ ليس معقولا أن يكن جميعهن غائبات عن حضور هذا الحدث العظيم. إلا أن تكون الروايات التي تتحدث عن مقتله عليه السلام، والتي تشير إلى أنه قد حمل من المسجد إلى بيته من غير تعيين، تقصد بيت أم البنين مثلا، أو أن يكون بيت واحد وفيه غرف أو دور متعددة، ولكل زوجة من زوجاته دار كما ليس ببعيد، بل هو السائد في السابق. وأن يكون الحديث عن حضور نسائه عنده للاطمئنان على حاله شاملا للحديث عن أم البنين، وإلا فليس معقولاً أن يكن غائبات في مثل ذلك.

إلى المدينة:

اغتيل أمير المؤمنين عليه السلام في محرابه، ولم يكن ليختم حياته إلا ببيت الله الذي بدأ حياته فيه، وعاش عمره له، وكان فخره به أنه ﴿**يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ**﴾

---

(١) المقرم، عبد الرزاق، العباس عليه السلام، ص١٣٨.

(٢) لا يمكن أن يكون عمره كذلك، فإن شهادة أمير المؤمنين كانت سنة ٤٠هـ، وبناء على ذلك لابد أن يكون عمر جعفر حين استشهد ٢٠ سنة فصاعداً.

وجرت الأمور على غير ما يهوى الهدى ويريد، واضطر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام على اثر خذلان أنصاره، وطغيان أعدائه، ورعاية لمصلحة الدين الذي كان يتربص به المتربصون أن يهادن معاوية الذي لم يقاتل ليصلي الناس ولا ليصوموا أو ليحجوا.

الكوفة التي جاء إليها أمير المؤمنين بأهله، وولده وبأصحابه، ها هي تودع ركب أهل البيت عليهم السلام، والحسن خارج منها، والحسين وأبناء أمير المؤمنين وأهل البيت عائدين إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان في الركب أم البنين رضوان الله عليها، كرت عائدة بعد أن فقدت الوصي الكرار، وآلت على نفسها أن لا تتخذ زوجا بعد الوصي علي عليه السلام، وفاءا والتزاما. وإن كانت قد بقيت زمنا طويلا بعد شهادة أمير المؤمنين فإنه ينقل أنها قد بقيت إلى ما بعد كربلاء، وبقاؤها إلى ما بعد كربلاء هو مقتضى القاعدة، فإن عمرها يكون حينئذ في أكثر التقادير قرابة خمس وخمسين عاما وهو ليس بالشيء الكبير، فمع ملاحظة أن أبا الفضل العباس عليه السلام قد استشهد في سنة ٦١ هجرية وعمره ٣٤ سنة كما عن أعلام الورى، أو ٣٨ كما عن آخرين، ولو فرض أنها تزوجت بأمير المؤمنين قبل ذلك وعمرها عشرون عاماً في أكثر التقادير، وإن كان يحتمل أن يكون أقل من ذلك.. لكان عمرها حين كربلاء قريب ما ذكرنا، ولا يوجد مانع من بقاء الإنسان العادي إلى هذه السن في الظروف الاعتيادية، ولذلك لا نرى أن استبعاد العلامة المحقق السيد المقرم رحمه الله في محله. فإنه بعد أن قال: لم اعثر على نص يوثق به يدل صراحة على حياة أم البنين يوم الطف، ثم بدأ بمناقشة رواية أبي الفرج الأصفهاني عن محمد بن علي بن حمزة عن النوفلي عن حماد بن عيسى عن معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام أن أم البنين كانت تخرج إلى البقيع تندب بنيها أشجى ندبة وأحرقها فيجتمع الناس إليها ليسمعوا منها وكان مروان يجيء فيمن يجيء لذلك فلا يزال يسمع ندبتها.. ثم شرع في مناقشة رواة السند، قائلا بأن رجال إسناده لا يعبأ بهم، فإن النوفلي وهو، حكي عن أحمد

أن عنده مناكير، وعند أبي زرعة ضعيف الحديث، وعامة ما يرويه غير محفوظ، وقال أبو حاتم منكر الحديث جداً، وقال النسائي متروك الحديث. ومعاوية بن عمار بن أبي معاوية قال أبو حاتم لا يحتج بحديثه، وإن أريد غير هذا فمجهول.. ثم عرج على المتن، وانتهى إلى أن نسبة أبي الفرج خروج أم البنين إلى البقيع هي فرية واضحة إذ لا شاهد عليها وغايته التعريف بأن مروان بن الحكم رقيق القلب.. ثم عطف المحقق المقرم على ذلك أن أبا الفرج ناقض نفسه بأن قال في موضع آخر أن العباس كان آخر من قتل من إخوته فحاز مواريثهم وورث العباسَ ابنُه.. عبيد الله، وهذا يفيدنا وثوقا بوفاة أم البنين يوم الطف فإنها لو كانت موجودة لكان ميراث العباس مختصا بها لكونها أمهم ولا يرثهم العباس لأنه أخوهم. ذكر ذلك في سفره القيم (مقتل الحسين).

ولنا مع العلامة المحقق المقرم ﵀ وقفتان:

الأولى: نقاشه في رجال السند:

فأول ما هو مذكور في رواية أبي الفرج (علي بن محمد بن حمزة) وهذا الشخص لا ذكر له في كتب الرجال أصلا، ويظهر أن في اسمه تقديما وتأخيرا والصحيح هو (محمد بن علي بن حمزة المعروف بالعلوي) وهو بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام والذي نقل عنه أبو الفرج كثيراً واعتمد عليه فقد ورد ذكره في أكثر من عشرين موضعا من كتاب المقاتل، وروى عنه النوفلي علي بن محمد أيضا في المقاتل، وهذا الرجل يظهر أنه كان محيطا بأخبار حركات أبناء الأئمة، وتاريخ نهضاتهم ضد الحاكمين فكان المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه أبو الفرج في كتابه، وهو كما يقول النجاشي: «ثقة عين في الحديث صحيح الاعتقاد له رواية عن أبي الحسن وأبي محمد عليهما السلام، وله مكاتبة وفي داره حصلت أم صاحب الأمر بعد وفاة الحسن عليه السلام». ويذكر آية الله الخوئي ﵀ في معجمه أن له كتاباً باسم مقاتل الطالبيين.

وأما النوفلي فإنه لقب رجال كثيرين منهم الحسن بن محمد بن سهل، وعبد الله بن الفضل بن عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وهو من أصحاب الصادق وثقة، والحسين بن يزيد بن محمد بن عبد الملك النوفلي، وهو من أصحاب الرضا، وعلي بن محمد بن سليمان النوفلي وهو من أصحاب الإمام الجواد والهادي والعسكري.

والمكثر للروايات في الفقه هو الحسين بن يزيد الذي يروي عن السكوني عادة، وله في أبواب الفقه روايات كثيرة.

ولكن الذي يروي عنه أبو الفرج في المقاتل ليس هذا، وليس كما ذكر السيد المقرم أنه يزيد بن المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم.. وإنما هو علي بن محمد بن سليمان النوفلي، ومع التتبع لكتاب المقاتل يظهر أنه يعتمد عليه اعتماداً كبيراً فيما ينقل من أمور ترتبط بأبناء علي عليه السلام في أكثر من ٢٣ موضعاً، وهذا بدوره ينقل عن أبيه كثيراً، فترى صاحب المقاتل ينقل عنه في قضية يحيى بن زيد ويعتمد على روايته بشكل أساسي في نقل أحداث حركة عيسى بن زيد، وفي ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن. وهذا النوفلي قد يذكر في الرجال تارة بعنوان علي بن محمد وأخرى علي بن محمد بن سليمان، ومع أن له رواية عن الإمام الجواد عليه السلام، ومكاتبة للإمام العسكري عليه السلام، وقد ذكره الصدوق في مشيخته، وطريقه إليه صحيح..

إلا أنه لا توثيق له بخصوصه وإن كان إمامياً، لكن يمكن استفادة ذلك من التوثيق العام بالنسبة لمن لم يستثن من كتاب نوادر الحكمة، بناء على أن عدم الاستثناء لهم لا يختص بتصحيح الروايات في الكتاب المذكور وإنما هو إضافة إلى ذلك توثيق للرواة. كما هو مسلك كثيرين.. فإنه قد ذكر علي بن محمد النوفلي في من لم يستثن من رواة كتاب النوادر.

والنوفلي روى في أصول العقائد كما هو في الكافي في أكثر من موضع، وفي الفروع أيضا، لكن يبدو أنه كان متخصصا أكثر في حقل التاريخ وضبط

أحداث معارضة أهل البيت وأبنائهم للحاكمين، ولذلك اعتمده أبو الفرج في مقاتله، وروى عنه الطبري أيضا أحداث الثورات التي تقدم ذكرها.

وأما حماد بن عيسى الجهني من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام كان ثقة في حديثه صدوقا، وممن أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم وأقروا لهم بالفقه.

وأما معاوية بن عمار بن أبي معاوية فهو العجلي الدهني، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وقد نص على توثيقه وجلالة شأنه من تعرض لذكره في الرجال، فقد قال النجاشي: كان وجها من أصحابنا متقدما كبير الشأن عظيم المحل ثقة، وكان أبوه عمار ثقة في العامة وجها، روى معاوية عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام ومات في سنة خمس وسبعين ومائة. ومثله ذكر في الخلاصة.

ولذا فمن العجيب أن ينقل العلامة المقرم قول أبي حاتم فيه: أن معاوية بن عمار بن أبي معاوية لا يحتج بحديثه، وإن أريد غير هذا فمجهول. إذ تضعيفه عندهم كما هو جار في غيره، إنما هو على أساس مذهبه وتشيعه، فإنهم يسارعون إلى الطعن فيمن عرف عنه تشيعه لعلي عليه السلام ويكفي عندهم لعدم الاحتجاج بحديثه كونه رافضيا كما يقولون فكيف إذا كان وجها عندنا وعظيم الشأن؟؟ ولم يكن منتظرا من المحقق المقرم الذي له الباع الطويل في هذا المجال أن يعتمد على تضعيف الرجاليين المخالفين لرواة أهل البيت، خصوصا أنه ذكر في المقتل بعض النماذج على التضعيف لأجل المذهب، وفي كتابه (العباس) قال في ذيل الحديث عن الأصبغ بن نباتة عندما نقل صاحب اللئالي المصنوعة فيه أنه متروك لا يساوي فلسا قال المقرم: ولقد طعنوا في أمثاله من خواص الشيعة بكل ما يتسنى لهم، ويشهد لهذه الدعوى مراجعة ما كتبه السيد العلامة محمد بن أبي عقيل (العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل) فإنه ذكر جملة من أتباع أهل البيت طعنوا فيهم بلا سبب إلا موالاة أمير المؤمنين وولده عليهم السلام.

وأما كلامه في المتن:

أما قوله أن خروج أم البنين فرية واضحة غايتها التعريف بأن مروان بن الحكم رقيق القلب فاستدرار الدمعة إنما يتسبب من انفعال النفس.. الخ، فإنه يمكن على فرض صحة الخبر أن يكون ذلك من إظهار البكاء، واصطناع حالة البكاء الكاذب، وليس هذا بعيدا من شخصية مروان المنافقة، حيث أنه قد يعمل الشيء وضده، والأمر وخلافه إذا رأى في ذلك مصلحة دنيوية عاجلة.. فهو على عدائه المعروف لأهل البيت لا يعدم وسيلة لكي يحوز بها على بغلة للحسن المجتبى عليه السلام فيدفع أحدهم لمدح الإمام مدحاً عظيماً.. إلى آخر ما ذكروه في أحواله. فمثل هذا الأمر حضوره في الجبانة وإظهار شخصه أمام السذج بمظهر المتعاطف ليس شيئا مستنكرا. فكم وجدنا من السياسيين، والزعماء الدنيويين من يقتل القتيل ويمشي في جنازته باكيا!!

ثم إنه بمراجعة كتابه الآخر (العباس) يتبين أن السيد المقرم رحمه الله يخالف نظريته في كتاب مقتل الحسين في أكثر من موضع ويبني على أساس أن أم البنين كانت موجودة إلى ما بعد زمان واقعة كربلاء، فقد ذكر في صفحة (١٣٣) أن السيدة زينب قد زارت أم البنين بعد وصولهم إلى المدينة تعزيها بأولادها كما كانت تزورها أيام العيد. وتعزية زينب عليها السلام وزيارتها لأم البنين بعد وصولهم إلى المدينة يشير بوضوح إلى حياتها إلى ذلك الوقت. بل أن ما نفاه هناك، أثبته هنا في مواضع متعددة منها في صفحة ٣٩٨ حيث قال: وأول من رثاه العباس أمه أم البنين كما في مقاتل الطالبيين فإنها كانت تخرج إلى البقيع تندب أولادها أشجى ندبة وأحرقها فيجتمع الناس لسماع ندبتها... ويستدل على خطأ ما نقله أبو الفرج والطبري من أنه أبا الفضل قدم إخوته ليقتلوا أمامه لكي يرثهم (!!) يقول في صفحة ٢٠٣: وما أدري كيف خفي عليهما أي المؤرخين المذكورين (عدم إمكان) حيازة العباس ميراث إخوته مع وجود أمهم أم البنين وهي من الطبقة المتقدمة على الأخ،

ولم يجهل العباس شريعة تربى في خلالها..

كما يقول مثبتا وجود أم البنين حتى يوم الطف، في صفحة ٢٠٦: وهناك مانع آخر من ميراث العباس لهم وحده حتى لو قلنا على بعد ومنع بوفاة أم البنين يوم الطف لوجود الأطرف وعبيد الله بن النهشلية.. كما يشاركهم سيد شباب الجنة وزينب وأم كلثوم وغيرهن من بنات أمير المؤمنين ...هذا إن قلنا بوفاة أم البنين يوم الطف، ولكن التاريخ يثبت حياتها يومئذ وأنها بقيت بالمدينة وهي التي كانت ترثي أولادها الأربعة..

ولا نعلم عن تأريخ الكتابين وأيهما المتقدم ليكون المتأخر هو الناسخ، والرأي الأخير للمؤلف، فإن كان العباس هو الكتاب الأخير يكون ما ورد فيه عدولا عن ما ورد في كتاب مقتل الحسين، وإن كان العكس فيلزم أن يشير إلى ما سبق أن شيده وأكده في كتاب العباس؟

وعلى كل حال فإن ما بذله المحقق المقرم رحمه الله من جهد في كتاب مقتل الحسين في نفي حياتها أخيرا مع أنه كان في بداية حديثه مقتصرا على عدم العثور على نص يوثق حياتها، لا يمكن المساعدة عليه أو قبوله. ونفس الكلام الذي قاله بعدم وجود نص يوثق حياتها يعود في عدم وجود نص يوثق وفاتها، مع أن بقاءها إلى ما بعد مقتل الحسين عليه السلام أمر طبيعي، وهو مقتضى الأصل.

بعد الفاجعة:

تلفعت كربلاء برداء حزنها وألمها، وودعت الركب الثاكل، بعد أن سكبت أرضها دموع الدماء، على فقد أبطال قد واصلوا الموت بقطع الوتين، وغادر ركب الثواكل تنشره الحسرة، وتطويه الغصة، إلى الكوفة ومنها إلى الشام ثم كر عائدا إلى كربلاء فالمدينة..

على أبواب المدينة نصب الإمام السجاد عليه السلام مخيم العزاء، لم يشأ أن يدخلها بصورة اعتيادية، فتمام جهاد الحسين عليه السلام، إعلان قضيته وإشهارها أمام الناس، وشرح مواقف البطولة، بطولة المواقف التي كتب سطورها

الأصحاب والهاشميون بدمائهم الطيبة، وبيان المآسي التي حلت على طاهرات النساء من نسل علي وفاطمة والمعاناة التي لقيها أطفال النبوة والرسالة..

لا بد من تعبئة المجتمع الراكد، بما يستثير عزائمه ويستنهض فيه عزته الغائبة، وشهامته المنحورة، ولا بد من ذكر الحسين، لذلك ما أن لقي الإمام زين العابدين بشر بن حذلم الكوفي حتى بادره بالسؤال إن كان يحسن الشعر، فلما أجابه بالإيجاب، أمره أن يدخل المدينة وينعى الإمام الحسين عليه السلام لأهلها، قال بشر: فركبت فرسي حتى دخلت المدينة، فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله، رفعت صوتي بالبكاء، وأنشأت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها   قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرج   والرأس منه على القناة يدار

وقلت: هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم، وأنا رسوله إليكم أعرفكم مكانه، فخرج الناس يهرعون ولم تبق مخدرة إلا برزت تدعو بالويل والثبور وضجت المدينة بالبكاء فلم ير باك أكثر من ذلك اليوم.

وينقل العلامة المامقاني في تنقيح المقال حوار أم البنين مع بشر مختصرا فيقول: ويستدل على قوة إيمانها وتشيعها أن بشر كلما نعى إليها بعد وروده المدينة أحدا من أولادها الأربعة قالت ما معناه: أخبرني عن أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فلما نعى إليها الأربعة قالت قطعت نياط قلبي، أولادي ومن تحت الخضراء (السماء) كلهم فداء لأبي عبدالله..

❁ ❁ ❁ ❁

يطوي الزمان التفاصيل، وينسى أهله صغائر الأمور بعد فترة من وقوعها، لكن تبقى المواقف والذكر الطيب، والانتقال من الكم المهمل إلى النوع المهم، وهذا ما فعلته أم البنين.

سلام على أم المواقف، وأم البنين ذوي المواقف.



في رحاب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

١	قنواء بنت رُشيد الهجري
٢	فاطمة بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
٣	أم الخير بنت الحريش البارقية
٤	آمنة بنت الشريد
٥	أمامة بنت أبي العاص بن الربيع



موجز عن حياة
الحسن بن علي (المجتبى) عليه السلام

الإمام أبو محمد٣ هـ-٥٥ هـ:

ولد سنة ٣ للهجرة، فكان أول ثمرة في البيت العلوي.

نشأ في حجر جده رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كان النبي يعطيه اهتماماً استثنائياً، ويشير إلى محبته إياه، وأنه- وأخاه الحسين- أئمة هذا الخلق بعد أبيهم.

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، شهد الإمام الحسن عليه السلام ما جرى من اغتصاب الخلافة من أبيه، وكان أول موقف له، وهو آنئذٍ في حدود التاسعة من العمر، أن جاء إلى المسجد ولما رأى أبا بكر عليه قال له: انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك.

بالرغم من وعيه لكيفية صرف الخلافة عن أبيه إلا أنه لما كان هدفه الإسلام فقد اشترك في الفتوحات الإسلامية سنة ٢٦ في إفريقية كما شارك في فتح طبرستان، مع شيعة والده ـ كما نقل ـ.

شارك أباه في مواقفه المختلفة بعد أن جاءته الخلافة، فقد شارك في حرب الجمل وأرسله أمير المؤمنين قبل بداية الحرب إلى الكوفة لاستنهاض أهلها لنصرة الإمام في حربه وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري الذي

كان يخذل الناس عن أمير المؤمنين، فعزله الإمام الحسن عليه السلام قائلاً له: اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا. كما شارك أباه في صفين.

بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام تصدى لشؤون الإمامة، وحيث أن أمير المؤمنين قبل شهادته كان يعد للقتال مع معاوية مرة أخرى، فقد واصل الإمام الحسن عليه السلام برنامج أبيه في تحشيد القوات. إلا أن المجتمع الكوفي آنئذٍ!، والذي لم يستجب لأمير المؤمنين، لم يستجب الاستجابة الكافية للإمام الحسن عليه السلام مع ذلك واصل الإمام الحسن خطته في المواجهة العسكرية، بذلك الجيش الضعيف (معنوياً).

استطاع معاوية أن يرشي بعض قيادات الجيش الكوفي وأن يستقطبهم إلى جانبه بالأموال. وأن يسمم الأجواء في هذا الجيش، وأضيف إليه رغبة الكثير في هذا الجيش عن الحرب، وحبهم للبقاء حتى لقد كان في هذا الجيش من كان مستعداً لاغتيال الإمام لو حصلت له الفرصة. فكان أن اضطر الإمام الحسن للصلح العسكري مع معاوية ضمن شروط ذكرها المؤرخون وكان منها: أن يكون شيعة أمير المؤمنين وأصحابه في أمن على حياتهم وأموالهم، وأن تكون الخلافة بعد معاوية للحسن، وأن يتم الامتناع عن شتم الإمام.. إلى غير ذلك.

استطاع الإمام الحسن أن يكشف من خلال الصلح وما تلاه- حقيقة معاوية ابن أبي سفيان أمام جميع المسلمين من أنه ليس ذا دين ولا عهد.وتعرض الإمام الحسن عليه السلام لحملة تشويه استهدفت النيل من شخصيته بين الناس، وقاد تلك الحملة مرتزقة الأمويين من الكتاب والمؤرخين، كالقول إن الإمام الحسن كان عثماني الهوى وأنه خالف أباه في كثير من خطواته، أو أنه كان كثير الزوجات، أو أنه (تنازل) عن الحكم لصالح معاوية ومع أن هذه الأقوال تخالفها حقائق التاريخ، والدراسة العلمية، إلا أنها وجدت لها من يلوكها من الكتاب، حتى من بعض المتأخرين.

عرف الإمام الحسن !ى بمساعدته المحتاجين، وإنفاقه عليهم،حتى أصبح لقب (كريم أهل البيت) خاصاً به.

استشهد الإمام الحسن مسموماً بتخطيط من معاوية سنة ٥٠ هـ ودفن في المدينة.



١- قنواء بنت رُشيد الهجري

«يا بنية: يأتي قوم بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهادنا..»

❁ ❁ ❁ ❁

نتاج تربية الصابرين:

(١)

﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[١].

(٢)

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن

(١) سورة الأحقاف، آية ١٥ـ١٦.

قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[1].

نموذجان يتكرران في صفحات التاريخ.. في درجات مختلفة من الشدة والضعف، نموذج يسبق إلى الرشد قبل زمان الأشد، وقبل الأربعين، فتراه وهو في مقتبل العمر ناضجاً حكيماً سيرته على هدي الأنبياء وصورته صورة العلماء..

يعين أبويه على الهدى، ويهيئ لهما سبل الراحة في طريق الخير، ينصحهما ويقبل نصحهما وينفعهما وينتفع بهما، وهو «ريحانة من رياحين الجنة» كما عن رسول الله ﷺ، وهو «أجمل الذِّكرين»[2].

ونموذج آخر هو الذي تحدثت عنه الآية، منسلخ عن عقائده، مغرور بنفسه، لا يكتفي بذلك بل يكون على أبويه وبالا في دنياهما، وعارا بعدهما، وهما يستغيثان الله منه، فهو «يهدم الشرف، ويشين السلف، ويفسد الخلف»[3]، وفي أقل التقادير فهو على غير طريق الهدى وفي سفينة الهلاك، ونتيجته أن ﴿**حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾.

وإذا كان هذا النموذج موجودا في صفحات التاريخ، ينتج ما ينتج من هدم وشين وفساد، كما حصل لعبد الله بن الزبير، فإن النموذج الآخر ليس بالقليل، بل إننا نجد مطالع نور، وكواكب هداية، وحججاً على الباقي هم الذرية الطيبة، وقرة الأعين، وميراث الله عز وجل من عباده المؤمنين.

بنت عبد الله بن عفيف التي أعانت أباها في مواجهته لأزلام الأمويين الذين جاؤوا لقتال أبيها وهي تدافع عنه، وترشده في القتال إذ كان كفيف البصر.

---

(١) سورة الأحقاف، آية ١٧ ـ ١٨.

(٢) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة ج ١٠.

(٣) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة ج ١٠ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي طليعة القائمة قنواء بنت رشيد الهجري. تلميذة نجيبة لعالم، يكفيه أنه تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام، حيث علّمه «البلايا والمنايا»[1]. رأى فيها أبوها امتدادا رساليا له، ولخطه، فقام بتربيتها على أسس تمكنها من مواجهة المشاكل المستقبلية.

* **يا بنية أميتي الحديث بالكتمان واجعلي القلب مسكن الأمانة**[2]: أول وصية أوصاها بها أبوها.. وأول قاعدة في الجهاد والعمل الرسالي، فكم من الجهود ضاعت على أثر انفراط حبل السرية والكتمان، وكم من الخطط فسدت تبعا لانكشاف أمرها قبل ذلك فإن «إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له». وبالرغم من توصيات المعصومين على التقية والتكتم باعتبارها استراتيجية في العمل، إلا أن بريق الظهور بمظهر العارف بالأمور، و(الشخص المهم) الذي يعرف القضايا المختلفة، يتغلب في كثير من الأحيان على مصالح العمل.

وإذا كانت الصورة الغالبة المعروفة للمرأة أنها لا تستطيع أن تستمسك على سر حتى تكشفه وتبديه، فإن هذه الصورة ليست هي النهائية، فإننا قد وجدنا نساء قد أئتمن على أشياء خطيرة وأسرار عزيزة وبقيت في مستقرها (ميتة في القلب). فهذه أخت محمد بن أبي عمير (من خلص

(١) هذا اللفظ يتكرر في ترجمة رشيد الهجري، وعدد آخر من خلص الأصحاب أن أمير المؤمنين عليه السلام قد علمهم علم البلايا والمنايا، ولا نعلم تفاصيل ذلك، فقد يكون الإمام عليه السلام قد علم هؤلاء الأصحاب القواعد الأساسية والسنن التاريخية التي تحكم مسيرة الأمة، وأن الأمة بناء على هذه السنن ستصل إلى تلك النهايات التي وصلت إليها، وقد يكون علمهم تفاصيل ما يجري مما علمه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبر ببعض ما سيجري على الأمة حتى لعامة أصحابه فيما سمي بأخبار الملاحم والفتن، واختص أمير المؤمنين بإخباره عن جميع ذلك. فمن رأى منه أمير المؤمنين عليه السلام قابلية لحمل تلك العلوم ربما كان يفيض عليه من عنده.

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤٢ ص١٣٩.

أصحاب الكاظم والرضا عليهما السلام) قد ائتمنها أخوها على كتبه حين سجنه أربع سنين، فقامت ودفنتها في الأرض عندما هم الحاكمون بتفتيش بيتها. وبقي خبرها مستورا إلى أن خرج أخوها من السجن.

كان هذا هو الأساس الأول الذي تعلمته قنواء من أبيها، ولا يعني ذلك أنها لا تظهر فكر أهل البيت أو أنها تنكفئ على نفسها، وإنما ينبغي التمييز بين الإرشاد والتبليغ والذي هو واجب، ونشر الفكر الديني، وبين التحفظ على ما لو ظهر لكان ضارا أو ضرره أكثر من نفعه.

* **الوعي أساس الإيمان**: تقول قنواء: قلت لأبي: ما أشد اجتهادك قال: يا بنية يأتي قوم بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهادنا[1].

يتصور البعض أن المشكلة في مجتمعاتنا هي مشكلة (دينية) بالمعنى الضيق للكلمة، وهو وهم، إنما المشكلة الحقيقية هي مشكلة الوعي، فلو كان الوعي موجودا لكان الإيمان مرافقاً له، ولو كانت البصيرة لما حدثت المشاكل الدينية حتى عند المتدينين أنفسهم، ولذلك كان تأكيد القرآن الكريم ﴿**أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾.

التخبط الذي نراه في بعض المجتمعات الدينية، بالرغم من تمسكها الظاهري بأهداب الدين، لا تفسير له إلا تشوش الرؤية، وانعدام البصيرة. وقلة المعرفة وهذا الدرس لو حفظته الأمة لما حصل هذا التخبط الذي نراه في مختلف بلادنا.

ولعمري.. هذه المقارنة الرائعة من قبل رشيد الهجري، بين البصائر وبين الاجتهاد (في العبادة والعمل والتحمل)، وأنهم وإن كانوا على شيء كبير من الاجتهاد العبادي والعملي إلا أن من يأتي ويكون لديه الاجتهاد النظري، والمعرفة العلمية، ووضوح الرؤية يكون إيمانه أفضل. ولعل رشيداً رحمه الله لا يريد

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤٢ ص١٣٩.

تأكيد المفاضلة، بقدر ما يريد أن يبين أهمية البصيرة ووضوح الرؤية، والمعرفة.

نعم نظرت قنواء إلى اجتهاد أبيها في عبادته، وعمله، فأشفقت عليه وتعجبت من ذلك بل أعجبت به، فقال لها إن محل الإعجاب ينبغي أن يكون في البصيرة الواضحة وقد كان رشيد نافذ البصيرة ثاقبها.

وكان ذلك هو الدرس الثاني الذي تعلمته من أبيها، فأعانها على مواجهة المشاكل، لا يهم ما الذي يحيط بالمرء من ظروف صعبة إذا كان (يضرب ببصره أقصى القوم) وكان (يعلم أنه لن يصيبه إلا ما قُسم له وكتب عليه).. وينتج عن هذا أن الجزع والخوف الذي يمنع الكثير من الناس من عمل الخير، والإقدام على الجهاد، سيتراجع تأثيره بل سينعدم.

وهذا هو نفسه الذي جعل رشيد يقدم على قدره في الشهادة من غير أن تكون قنواء بالنسبة له (مبخلة مجبنة)[1]، بل كانت مصداق ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾[2].

❁ ❁ ❁ ❁

تلك التربية أنتجت قنواء الصابرة التي ستواجه المستقبل برباطة جأش، من دون أن يؤثر فيها علمها بشهادة أبيها القادمة قريبا، على نحو سلبي، بل ولا يؤثر فيه علمها ذلك، فلن تجزع أو تقف مانعا له عن أداء رسالته بزعم الخوف على حياته، وأنها سوف تثكل به ولا والي لها أو كفيل..

---

(١) مفاد أحاديث متعددة أن الولد فتنة، وأنه منحلة أو مبخلة ومحزنة، أي محل لإثارة الحزن والبخل والجبن، وهذا صحيح بحسب الطبع الأولي العاطفي، إلا أن يتغلب الجانب الإيماني عند المرء، فيتعالى شعوره بالواجب والإحساس الديني على حزنه الشخصي وحرصه وتردده وخوفه على أبنائه. أو أن يكون الولد نفسه واعياً لمقدار الواجب وأهميته فحينئذ هو الذي يشجع أباه على المضي.

(٢) سورة الصافات آية ١٠٢.

فلا هي تأثرت سلباً بذلك العلم ولا هو تأثر كذلك. ها هي تتحدث عن معرفتها كمعرفته بكيفية الشهادة، ويلاحظ أن هذه الكيفية فيها من الهول ما لو تصوره إنسان في غير مثال رشيد وابنته ونظرائهما لفارق النوم عينيه حتى ليموت بعضهم من تصور الموقف قبل حدوثه.. ألم أقل لك، عزيزي القارئ، هذا نمط في التربية يؤدي إلى مستوى عال من التعامل مع المشاكل.. لنستمع إلى قنواء وهي تتحدث:

سمعت من أبي يقول: قال: حدثني أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا رشيد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك؟

فقلت: يا أمير المؤمنين آخر ذلك الجنة!!

قال: بلى يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة.

قالت قنواء: فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه الدعي عبيدالله بن زياد فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يتبرأ منه.

فقال له الدعي: فبأي ميتة قال لك تموت؟

قال: أخبرني خليلي أنك تدعوني إلى البراءة منه فلا أتبرأ منه فتقدمني فتقطع يدي ورجلي ولساني!

فقال: والله لأكذبن قوله فيك قدموه فاقطعوا يديه ورجليه واتركوا لسانه فحملت طوائفه[١] لما قطعت يداه ورجلاه.

فقلت له: يا أبه كيف تجد ألما لما أصابك.

فقال: لا يا بنية إلا كالزحام بين الناس.

---

(١) أي جمعت أطراف يديه ورجليه لما قطعت كما في رجال الكشي.

فلما حملناه وأخرجناه من القصر اجتمع الناس حوله فقال: ائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى أن تقوم الساعة فإن للقوم بقية لم يأخذوها مني بعد فأتوه بصحيفة فكتب الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم. وذهب لعين فأخبره أنه يكتب للناس ما يكون إلى أن تقوم الساعة فأرسل إليه الحجام حتى قطع لسانه فمات في ليلته تلك[1].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩/ ٦٣٣.



٢- فاطمة بنت
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

ها هي وقد امتد بها العمر طويلاً تتذكر، وبعض الذكرى تجديد للألم، لكنه الألم اللطيف الذي يحب الإنسان استعادته والحديث عنه بعدما زال وانتهى، وأعقب نصرا وبشرى. أما قالوا: «عند الصباح يحمد القوم السرى»؟

يتصور المرء وهو تحت ضغط الظروف القاسية أن الدنيا ليس لها غير هذا الوجه الكالح الذي تواجهه به، وأن هذا هو نهاية المطاف، مما يؤدي ببعضهم إلى اليأس فالكفر أو العبيثة والانتحار وكلها انتحار.. «حتى يظن الظان أن الدنيا معقولة على بني أمية تمنحهم درها وتعطيهم صفوها، وكذب الظان لذلك إنما هي مجة من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة»[1]. لكن أصحاب البصائر ينظرون في أتون المشكلة إلى بشائر النصر وطلائع التغيير.

ها هي فاطمة بنت أمير المؤمنين عليه السلام التي ولدت لأم ولد، وشاطرت أباها ثم أخويها الحسنين مواقفهم وحياتهم، تتذكر وتستفيد مما بقي من عمرها الذي أمتد لقرابة التسعين عاما في الحديث والرواية، ونقل ما مر على سمعها وبصرها طوال هذه المدة الطويلة..

(١) الإمام علي، نهج البلاغة.

من أبيها الذي لا صنو له، ولا شبيه بعد رسول الله ﷺ «ولم أر مثله حقاً أضيعا»! ها هي تروي لمن يريد الاستماع عن أسماء بنت عميس زوجة أبيها عن رسول الله ﷺ «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وتروي عنها حديث رد الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام

أم عن أخيها الحسن المجتبى ذلك الكوثر المهدور، والكامل الذي أُسلم في وقت الشدة، حتى هادن معاوية بن أبي سفيان.. باستثناء قلة عرفوا منه ما جهله غيره، فكانوا أنصاره في رخائه وشدته، ومنهم زوجها أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، الذي وقف نفسه على الدفاع عن آل علي عليهم السلام.. فهاهو في مجلس معاوية مع الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كما في شرح النهج - روى أبو عثمان أيضا قال دخل الحسن بن علي عليه السلام على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير وكان معاوية يحب أن يغري بين قريش فقال يا أبا محمد أيهما كان أكبر سنا علي أم الزبير؟

فقال الحسن عليه السلام: ما أقرب ما بينهما وعلي أسن من الزبير رحم الله عليا!

فقال ابن الزبير: رحم الله الزبير!

وكان هناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب فقال: يا عبد الله وما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه؟

قال: وأنا أيضا ترحمت على أبي!

قال: أتظنه نِدّاً له وكفؤا؟

قال: وما يعدل به عن ذلك كلاهما من قريش وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتم له.

قال: دع ذاك عنك يا عبد الله إن عليا من قريش ومن الرسول[1] حيث تعلم ولما دعا إلى نفسه أتبع فيه وكان رأسا ودعا الزبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ولما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وولى مدبرا قبل أن يظهر الحق فيأخذه أو يدحض الباطل فيتركه فأدركه رجل لو قيس ببعض أعضائه لكان أصغر فضرب عنقه وأخذ سلبه وجاء برأسه ومضى علي قدما كعادته مع ابن عمه رحم الله عليا

فقال ابن الزبير أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد لعلم! (يشير إلى الإمام الحسن عليه السلام).

فقال: إن الذي تعرض به يرغب عنك.. وكفه معاوية فسكتوا.

و أخبرت عائشة بمقالتهم ومر أبو سعيد بفنائها فنادته يا أبا سعيد أنت القائل لابن أختي كذا فالتفت أبو سعيد فلم ير شيئا فقال إن الشيطان يرانا ولا نراه فضحكت عائشة وقالت لله أبوك ما أذلق لسانك!! [2]

أم تراها تتذكر كربلاء؟ وهي التي شاركت فيها من أول أيامها إلى عودة الركب الحسيني إلى المدينة.. لقد نصبت نفسها للحديث عن تفاصيل الواقعة الكبرى في تاريخ الإسلام، لكي تستلهم الأجيال على امتداد الزمان والتاريخ منها الدروس والعبر. حتى ليكاد المرأ أن يرى أن تاريخ أبي مخنف الأزدي، في جملة كبيرة منه هو عنها بواسطة الحارث بن كعب، فهاهي تتحدث عن الشام وما جرى في مجلس يزيد:

---

(١) هنا يتبين أهمية نشر مناقب وفضائل أمير المؤمنين عليه السلام، الأمر الذي كان يقوم به أهل البيت عليهم السلام ومنهم فاطمة عليها السلام كما في الأسطر السابقة كحديث المنزلة وأمثاله، فإن أعداء أهل البيت عليهم السلام ذكروا فكرة خاطئة وهي أن علياً كغيره من الناس بل إنه فشل في الوصول إلى هدفه، ومعنى ذلك أن معاوية أفضل منه لأنه وصل إلى الحكم وبقي فيه.. ثم صدقوا تلك الفرية!

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١١ ص٢٠.

عن فاطمة بنت علي عليه السلام أنها قالت: لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية رق لنا أول شيء وألطفنا، ثم إن رجلاً من أهل الشام أحمر قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية يعنيني، وكنت جارية وضيئة، فأرعبت وفرقت وظننت أنه يفعل ذلك فأخذت بثياب أختي وهي أكبر مني وأعقل، فقالت: كذبت والله ولعنت ما ذاك لك ولا له، فغضب يزيد وقال: بل كذبت، والله لو شئت لفعلته، قالت: لا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا، فغضب يزيد ثم قال: إياي تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، فقالت: بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وجدك وأبوك، قال: كذبت يا عدوة الله، قالت: أمير يشتم ظالماً ويقهر بسلطانه، قالت: فكأنه لعنه الله استحيا فسكت، فأعاد الشامي لعنه الله فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية، فقال له: اعزب، وهب الله لك حتفاً قاضياً[1].

عن فاطمة بنت علي صلوات الله عليهما قالت ثم إن يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين فحبسن مع علي بن الحسين عليه السلام في محبس لا يكنهم من حر ولا قر حتى تقشرت وجوههم ولم يرفع ببيت المقدس حجر على وجه الأرض إلا وجد

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار ج٤٥ ص١٥٦، لا يخفى أن هناك روايات تفيد أن التي جرت لها الحادثة هي فاطمة بنت الحسين عليه السلام، وأنها لاذت بعمتها زينب عليها السلام، كما هو في جزء ٤٥ من البحار، ومع فرض عدم تكرر الحادثة فإن الأقرب هو أنها وقعت لفاطمة بنت الحسين عليها السلام التي قالت ـ بحسب تلك الرواية أوتمت وأستخدم! ـ وأن الكلام عن جارية والجارية: من لم تبلغ الحلم من النساء كما في كتب اللغة وبهذا يبعد أن تكون المقصودة فاطمة بنت علي عليها السلام التي كان لها في ذلك الوقت في أقل التقادير ثلاثون عاما، لو فرضنا أنها ولدت في عام ثلاثين أي قبل شهادة أمير المؤمنين عليه السلام بعشرة أعوام. نعم لو قيل بأن لفظ الجارية يطلق على الأمة وإن كانت كبيرة السن وأن الشامي تصورها جارية لصح، لكنه يضعف بأنها هي أكدت أنها جارية وضيئة.. ويحتمل أن يكون الشامي قد أشار إلى جهة النساء فتصورت فاطمة عليها السلام أنها المقصودة، حيث إنه لم يسم وإنما أشار إلى جهة النساء.

تحته دم عبيط وأبصر الناس الشمس على الحيطان حمراء كأنها الملاحف المعصفرة إلى أن خرج علي بن الحسين بالنسوة ورد رأس الحسين عليه السلام إلى كربلاء[1].

ولكن هل تستمر أيام الآلام؟ وهل الدنيا معقولة على أهل الظلم؟ كلا فما مرت الأيام حتى ايقظ دم الحسين عليه السلام في الأمة ما نام من خلاياها، وأحيا فيها ما مات من عزيمتها فإذا بها تنتفض (يا لثارات الحسين عليه السلام)، وقامت الكوفة مناصرة لخط من خذلت والتفت حول الطالب بالثأر، وعمت فرحة الانتصار في خط أهل الولاية، حتى لقد قالت فاطمة بنت علي ما تحنأت امرأة منا ولا أجالت في عينها مرودا ولا امتشطت حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد.

لقد شفى المختار الثقفي الغيظ، وأبان عن سنة أنه «بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين»، ولم يذهب علم أهل البيت الذي كان يأخذه على يد أشخاص منهم فاطمة، لم يذهب في غير محله ولا روى إلا أرضه، فأنتج فيها ولاء وانتماء، لقد كان المختار يتردد في بيت فاطمة يعين وربما «مهد لها الفراش، ومنها أخذ العلم»[2].

وإذا كان الحسين عليه السلام قد قدم في كربلاء للإنسان أعظم درس في الفداء والتضحية، وعلمه كيف يختار طريقة موته إن منع أن يختار طريقة الحياة التي يريدها، فلقد كانت الامة بحاجة أيضا إلى تصحيح علاقتها وارتباطها العبادي والروحي بالله.

فكان زين العابدين علي بن الحسين السجاد عليه السلام على الدرب،

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار ج٤٥.

(٢) ذكر الكشي في رواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، أخبرني أبي والله أنه ـ أي المختار ـ كان ليمر عند فاطمة بنت علي عليها السلام يمهدها الفراش ويثني لها الوسائد، ومنها أصاب الحديث.

مصباحا ينير للسالكين طريق معرفة الله ومحبته، والتضرع إليه، عالما أن العلاقة مع الخالق هي الأساس، فإن أحسنت الأمة علاقتها بخالقها، و﴿**مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ فكان أن أفاض السجاد على الأمة من عبادته ودعائه، ما يصنع لها برنامجا سليما لو اتبعته في معرفة الله والاستعانة به، والخشية منه. وبلغ في العبادة مرتبة أنه «ينادى يوم القيامة: أين زين العابدين فيقوم علي بن الحسين يتخطى الرقاب»! مما جعل البعض ومنهم عمته فاطمة بنت علي تخشى عليه من الدأب في العبادة إلى هذا المقدار. فهذا طاووس الفقيه يقول: رأيت في الحجر زين العابدين عليه السلام يصلي ويدعو عبيدك ببابك أسيرك بفنائك مسكينك بفنائك سائلك بفنائك يشكو إليك ما لا يخفى عليك.

و أتت فاطمة بنت علي بن أبي طالب عليه السلام إلى جابر بن عبد الله فقالت له: يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله إن لنا عليكم حقوقاً ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهادا أن تذكروه الله وتدعوه إلى البقيا على نفسه وهذا علي بن الحسين بقية أبيه الحسين قد انخرم أنفه ونقبت جبهته وركبتاه وراحتاه أذاب نفسه في العبادة.

فأتى جابر إلى بابه واستأذن فلما دخل عليه وجده في محرابه قد أنضته العبادة فنهض علي فسأله عن حاله سؤالا حفيا ثم أجلسه بجنبه ثم أقبل جابر يقول يا ابن رسول الله أما علمت أن الله إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟

فقال له علي بن الحسين: يا صاحب رسول الله أما علمت أن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد له وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم وقيل له أ تفعل هذا وقد غفر الله لك ﴿**ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ**﴾ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

فلما نظر إليه جابر وليس يغني فيه قول قال يا ابن رسول الله البقيا على

نفسك فإنك من أسرة بهم يستدفع البلاء وبهم تستكشف اللأواء وبهم تستمسك السماء.

فقال يا جابر لا أزال على منهاج أبوي مؤتسيا بهما حتى ألقاهما. فأقبل جابر على من حضر فقال لهم ما رؤي من أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين إلا يوسف بن يعقوب، والله لذرية علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف[1]!

هل أدركت أبا عبد الله الصادق؟

ورد في بعض الروايات أن فاطمة قد مد لها من العمر حتى أدركت أبا عبد الله الصادق عليه السلام، ولكن لم ترو عنه، وهذا ليس بالبعيد فمن المعلوم أن عمرها قد تجاوز السادسة والثمانين وهي لا تزال تحدث وتنقل الرواية لطلاب الحديث والمعرفة[2]، فلو فرضنا أنها ولدت ما بين السنة الخامسة عشر والثلاثين للهجرة فتكون وفاتها ما بين المائة والمائة وخمسة عشر للهجرة وعلى التقديرين تكون قد أدركت الإمام الصادق عليه السلام حيث أنه ولد سنة ثلاثة وثمانين للهجرة النبوية.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار ج٤٦ ص٧٩.

(٢) قال في العمدة: وبالإسناد المقدم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي عن أبيه. قال: حدثني يحيى بن سعد عن موسى الجهني، قال: دخلت على فاطمة بنت علي عليه السلام، فقال لها رفيقي أبو مهدي: كم لك؟ فقالت: ست وثمانون سنة، قال: ما سمعت من أبيكِ شيئا؟ قالت: حدثتني أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي».



٣- أم الخير بنت الحريش البارقية

«هلموا رحمكم الله إلى الإمام العدل والوصي الوفي والصديق الأكبر..».

❁ ❁ ❁ ❁

يكتنف موضوع المشاركة السياسية للمرأة في مجتمعاتنا الإسلامية، كثيرٌ من الحساسية بل أكاد أقول: يكتنف موضوع المرأة أصلاً ذلك المقدار من الحساسية، فأنت تستطيع الحديث بسهولة في الأمور المختلفة إلى أن يأتي هذا الحديث، فتختلط فيه العادات بالتقاليد، والشرعي بالاجتماعي، والشخصي بالعام.. وهكذا يضيع الصواب.

ومما زاد الأمر إشكالاً أن النماذج الحاضرة في الذهنية العامة للمشاركة السياسية النسائية نماذج غير مناسبة تماما سواء في الوقت الراهن أو في التاريخ.

بينما يفترض أن الممارسة الخاطئة لدور ما لا يعني خطأ ذلك الدور، وإذا كان أحد المصاديق سيئا فلا يعني ذلك أن السوء ملازم للطبيعة.

إن المشاركة السياسية للمرأة المسلمة بالنحو الذي سنبينه فيما بعد كانت في تاريخ الإسلام على مسمع ومرأى من المعصومين عليهم السلام بدءاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومرورا بعهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكذا سائر الأئمة ولم

تواجه بردع ما دامت في الحدود الدينية وضمن ضوابط الإسلام، تماماً كما هو الحال بالنسبة للممارسة السياسية للرجل. نعم لو خرجت تلك الممارسة عن الضوابط الشرعية تكون ممنوعة، وهذا لا يختص بممارستها السياسية ودورها الاجتماعي بل هو بالنسبة إلى كل عمل ومن قبل أي صنف.

المشاركة السياسية بما تعني من مسؤولية في تحديد جبهة الحق ومعرفة أهل الإيمان، وفصل ذلك عن جبهة الباطل، وهي مسؤولية مهمة وخطيرة لأنه على ضوئها يتقرر الأمر الثاني وهو الانتماء إلى تلك الجبهة والفئة المحقة فالانتماء موقف، ولا بد في هذه الحياة من الانتماء إلى جهة الحق والرسالة وإلا كان المرء منتمياً بنحو طبيعي إلى معسكر الباطل والعبثية، ولا توجد منطقة متوسطة بينهما فـ﴿**مَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ**﴾؟

وأخيرا الوعي بالمسؤوليات المترتبة على ذلك الانتماء، من الدعوة إليه والتبشير به وإبلاغ رسالته وإيصال صوته إلى الدفاع بكافة أشكاله، وبحسب المواقع التي يحتاجها في الدفاع، وحسب القدرة المتوفرة للمنتمي.

لقد وجدنا حالات كثيرة، ونماذج متعددة لمؤمنات استطعن الدفاع عن معسكر الحق في زمن السلم كما قاموا بذلك في زمان الحرب. وبالرغم من أن الصورة النمطية للمرأة في جبهات القتال لا تعجب الكثيرين إذ يتبادر إلى الذهن ما نراه في الوقت الحاضر من صور غير مشرفة، أو في الزمن الماضي من تجاوزات لدور المرأة الحقيقي إلا أن ذلك هو جزء من الصورة، وهناك جزء آخر مشرق شديد التأثير هو ما نقرؤه في التاريخ الإسلامي عن مجاهدات بين يدي رسول الله ﷺ، سواء في المعركة كأم عمارة، أو معبئات للحماس، والنشاط القتالي كما وجدنا في حرب صفين أمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبين أيدينا نموذج لمجاهدة مارست الأمرين في دفاعها عن القائد الرسالي والخط الإيماني المتمثل في أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد شهادته. سوف نحاول أن نتعرف على شخصيتها من خلال كلامها، وذلك أن الكلام

مرآة الثقافة والوعي، والوعي هو الذي يصنع الموقف الخارجي عادة، خصوصاً إذا كان هذا الكلام والخطاب في مكان لا محل فيه للتبجح والافتخار، كميدان المعركة.

سوف يظهر لنا من خلال التأمل الدقيق الذي أدعو إليه عزيزي القارئ أن ما قد ألقي في روع نساء مجتمعنا من الانكفاء والانسحاب والسلبية، ليس كما ينبغي فهذه لبؤة مؤمنة تزأر في ميدان المعركة مدافعة عن أمير المؤمنين منطلقة في كلماتها من وعي عقائدي عال، ومن معرفة سياسية ناضجة. فهلم معي لتشهد الموقف الذي وقفته أمام معاوية بن أبي سفيان بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، حيث الدنيا قد بسطت رداءها له، وتفرق عن الإمام الحسن عليه السلام أنصاره وأتباعه.

وأراد معاوية ووزراؤه أن (يتلهوا) باستقدام النساء المؤمنات المجاهدات، وإخافتهن بعدما استشهد أمير المؤمنين عليه السلام، وصار الإمام الحسن في موقع المحكوم. وهو في ذلك يريد تحقيق فوائد مختلفة، فإن استقدام هذه النسوة من أماكنهن البعيدة كالكوفة، وهن لا يعلمن ما المراد من ذلك يجعلهن ويجعل أهاليهن وقبائلهن نهبة الأوهام وفريسة القلق، وهذا أسلوب يعتمده البعض من الحاكمين أن يبقي الإنسان في دائرة المجهول فلا يعرف ما المراد منه، وما الذي سيجري عليه، فإذا طال به الزمان على هذا الحال ضعفت معنوياته وأراد أن ينهي هذا الوضع (الانتظار للمجهول) بأي ثمن. ثم إذا قدمت قد يقررها بأشياء في مذهبها وتأريخها وموقفها السياسي والجهادي، فهي لخوفها أو لترغيبها إما أن تتنكر لذلك الماضي، وتلعن تلك الأيام فيستفيد منها إعلامياً لإظهار صوابية منهجه. ويستدل عليه بأقوال أعدائه السابقين.. وإما أن لا تتنكر بل تظل ثابتة ولا يخيفها ما تراه من عنف أو حدة في الكلام ممن وصفتهم إحدى المجاهدات المؤمنات وقالت لمعاوية: «نبحتني كلابك..» فهنا لو أظهر لها لينا ولم يعاقبه فقد كسب صورة إعلامية في حلمه وسعة صدره.. فهو على التقديرين رابح

ولن يخسر شيئاً.. فلننظر كيف واجهت أم الخير ذلك الموقف؟

فقد كتب معاوية إلى واليه بالكوفة: أن أوفد عليّ أم الخير بنت الحريش ابن سراقة البارقية رحلة محمودة الصحبة غير مذمومة العاقبة واعلم إني مجازيك بقولها فيك بالخير خيرا وبالشر شرا فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فاقرأها إياه فقالت أم الخير أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري تجري مجرى النفس يغلى بها غلي المرجل بحب البلسن[1] يوقد بجزل السمر.

فلما حملها وأراد مفارقتها قال يا أم الخير إن معاوية قد ضمن لي عليه أن يقبل بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا فانظري كيف تكونين قالت يا هذا لا يطمعك والله برك بي في تزويقي الباطل ولا يؤنسنك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق.

فسارت خير مسير فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثا ثم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس..

فدخلت عليه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين!

فقال: وعليك السلام، وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم!

فقالت: مه يا هذا فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه.

قال: صدقت يا خالة وكيف رأيت مسيرك؟

قالت: لم أزل في عافية وسلامة حتى أوفدت إلى ملك جزل وعطاء بذل فإنا في عيش أنيق عند ملك رفيق.

فقال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم وأُعنت عليكم!

(١) البلسن: حب كالعدس. والسمر: نوع من شجر العضاة.

قالت: مه يا هذا لك والله من دحض المقال ما تردي عاقبته.

قال: ليس لهذا أردناك!

قالت: إنما اجري في ميدانك؟ إذا أجريت شيئاً أجريته.. فاسأل عما بدا لك!

قال: كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟

قالت: لم أكن والله رويته قبل ولا زورته بعد، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت.

قال: لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أيكم حفظ كلام أم الخير؟

قال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد. قال: هاته.

قال: نعم كأني بها يا أمير المؤمنين وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية وهي على جمل أرمك وقد أحيط حولها حواء وبيدها سوط منتشر الضفر وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: يا أيها الناس اتقوا ربكم أن زلزلة الساعة شيء عظيم إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم في عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف أم رغبة عن الإسلام أم ارتدادا عن الحق؟

أما سمعتم الله عز وجل يقول ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾، ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشر الرعب وبيدك يا رب أزمة القلوب فاجمع إليه الكلمة على التقوى وألّف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله.. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوصي الوفي والصديق

الأكبر إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس.

ثم قالت: ﴿فقاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَـهم لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ صبرا معشر الأنصار والمهاجرين قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم وكأني بكم غدا لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ومن لم يسكن الجنة نزل النار أيها الناس أن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطؤوا مدة الآخرة فسعوا لها.

والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته وأبي ابنيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وعلم المسلمين وأبان ببغضه المنافقين فلم يزل كذلك يؤيده عز وجل بمعونته ويمضي على سنن استقامته لا يعرج لراحة الدأب ها هو مفلق الهام ومكسر الأصنام إذ صلى والناس مشركون وأطاع والناس مرتابون فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد وفرق جمع هوازن فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا وردة شقاقا قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه.

قال: هيهات!! يا كثيرة الفضول ما تقولين في عثمان بن عفان؟

قالت وما عسيت أن أقول فيه استخلفه الناس وهم له كارهون وقتلوه وهم رِاضون.

فقال معاوية: إيهاً يا أم الخير هذا والله أصلك الذي تبنين عليه!

قالت: ﴿لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾ ما أردت لعثمان نقصا ولكن كان سباقا إلى الخيرات وانه لرفيع الدرَجة.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟

قالت: وما عسى أن أقول في طلحة اغتيل من مأمنه وأُتي من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة!

قال: فما تقولين في الزبير؟

قالت: يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيغ يعرك في المركن!

قال: حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك!

قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه وقد شهد له رسول الله ﷺ الجنة ولقد كان سباقا إلى كل مكرمة في الإسلام وإني أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشا تحدث انك أحلمها فأنا أسألك بأن تسعني بفضل حلمك وأن تعفيني من هذه المسائل وامض لما شئت من غيرها.

قال: نعم وكرامة قد اعفيتك[1].

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء.

وأول ما يلاحظه المتأمل هو التزامها بما التزم به إمامها بعد الصلح، فما دام الإمام قد صالح وهادن فقد أصبح الموقف الجديد يقتضي سلوكا جديدا، ولهذا لما استدعيت من قبل الحكم الجديد قالت إنها تستجيب وإنها لا تخلع طاعة وغير زائغة عنها. وهذا الموقف منها ينم عن وعي سياسي عال فإن الكثير من المعارضين لجهة عندما تتغير الظروف وتكون مصلحة المؤمنين أو الإيمان في الهدنة أو الصلح، لا يستطيعون (هضم) هذه الوجبة ، ويظلون يعيشون ضمن معادلات الظرف القديم.. وبعضهم يفعل ذلك بحسن نية ويرى أنه هو المجاهد الحقيقي بينما غيره المتخاذل.. وقد حدث أن جاء للإمام الحسين عليه السلام بعد الصلح جماعة من الشيعة يريدون منه النهوض والتمرد على الحالة الجديدة، وإعلان الثورة لكن الإمام أفهمهم بأن ذلك غير صحيح.

* ثم إننا نلاحظ التقييم الصحيح غير الناشئ من العقد السابقة أو الانتماء العقيدي، فنحن نراها وهي في قمة جهادها ورفضها للحكم الأموي لا يمنعها ذلك من أن تمدح مثلا سفرتها إليه وأنها كانت ميسرة فيها ومرفهة. وإن كان ذلك لا يعني تغييرها لموقفها من الحكم الأموي.

* كذلك نلاحظ ذكرها للإمام أمير المؤمنين بعنوان الوصي، وهذا مهم في البحث العقائدي فإن ما عليه فئة من المسلمين من إنكار وصية النبي للإمام يعتبر غير صحيح، ولقد فهم الذين عاصروا النبي والإمام أمر الوصية.. وهذا النص يكتسب أهمية كبرى لجهة القائل والسامعين وتاريخ النص حيث أنه يرجع إلى حدود سنة ٣٦ لهجرة النبي صلى الله عليه وآله..

* كما يمكننا النص السابق من ملاحظة وعيها التام لطبيعة الصراع الدائر بين معاوية وأمير المؤمنين، وأن القضية ليست كما يزعم بعض (فطاحل) العلماء من أن ما شجر بين الأصحاب اجتهاد وأن كلا مصيب.. أو أن المسألة مطالبة معاوية بدم عثمان ورفض أمير المؤمنين تسليم قتلته، ها هي تقول: إن القضية استمرار للصراع السابق وإنما هي الأحقاد البدرية،

والضغائن الأحدية، وقوم باعوا الآخرة بالدنيا.

* ويتجلى الموقف الرسالي في هذه الحركة فتقول أن الأمر بالنسبة ليس نزاعا على السلطة ولا طمعا في الولائم وإنما هو قضية الدين والخشية عليه، أتراها سمعت كلام أمير المؤمنين في الخطبة الشقشقية «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم عندي أهون من عفطة عنز»؟ أو سمعت حديثه الآخر «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنازعا في سلطان ولا التماسا لشيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك وتقام المعطلة من حدودك فيأمن المظلومون في بلادك».. أسمعت تلكم البصائر التي تعين خطوط العمل والتحرك الرسالي والإمامي فأعادت صياغته بعباراتها مذكرة الجيش بها؟ «.. لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه».

* وأخيراً ففي نفس الوقت الذي يكون فيه الرسالي ثابت الموقف قويا إلا أنه لا يكون غبيا فلا يسهل للعدو أمر استفزازه حتى يقتله (بسيفه) ويجرد عليه ما ألقاه لسانه فإننا نراها بعد أن استفزها معاوية فلم يفلح أراد أن يوقعها في شرك السؤال عن فلان وفلان حتى لا يقال إنها عدوته وإنما عدوة الصحابة وحينئذ يمكن معاقبتها ضمن مبرر معقول عند البعض، لكنها رفضت ذلك وطلبت منه أن لا يتركها كرجيع الصبيغ يعركه في المركن والمغسل، وعندما عزم عليها في ذلك كانت أذكى فقالت له: إن قريشاً تتحدث عنه أنه أحلمها فإن كان كذلك فليسعها حلمه، وبذلك وضعته على محك التحدي بذكاء وأنقذت موقفها.



٤- آمنة بنت الشريد
زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي

❁ ❁ ❁ ❁

«ارجع أيها الرسول إلى معاوية وقل له ولا تَطوِهِ (أي لا تخفه عنه): أيتم الله ولدك وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك!! ».

❁ ❁ ❁ ❁

من أول ما ابتدعه معاوية بن أبي سفيان، وكم له من ذلك!! سجن النساء كرهائن..

وكانت هذه السنة السيئة، فاتحة عهد ظلوم استمر عليه الأمويون، فكانوا إذا عجزوا عن القبض على مناوئيهم عمدوا إلى نسائهم، فسجنوهم كرهائن عندهم، حتى يضغطوا على الرجال في الاستسلام.. وكان له على أثر ذلك وزرها ووزر من عمل عليها.

ولقد كانت هذه الطريقة مؤثرة في بعض الحالات، تبعا لما كان المجتمع المسلم يعيشه من قيم الحفاظ على المرأة ورعاية سترها، بحيث كان الواحد منهم يضحي بنفسه لكي يحمي عرضه، وحجاب عائلته.

لكن موقف المؤمنات الصالحات، وقوة قلبهن أسقط هذا السلاح من

يد معاوية، لا سيما موقف المجاهدة آمنة بنت الشريد، زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي، فقد أسمعته من صليل لسانها ما يرن في مسمعه، وينكد عليه عيشه، أوليس «أعظم الجهاد كلمة حق عند إمام جائر»؟

بلى.. لقد تتبع معاوية بعد شهادة أمير المؤمنين علي عليه السلام، شيعة الكرار وراء كل حجر ومدر، وقد رفع قميص الخليفة عثمان راية له، وشعاراً كاذبا بينما كان هو أول خاذل له، وكل من أراد قتله من أصحاب أمير المؤمنين كانت تهمته جاهزة وهي الإعانة على قتل الخليفة عثمان.. وقد ساعده في ذلك فئة غير قليلة من الذين وترهم علي عليه السلام على الإسلام، فهذا قد قتل أباه المشرك وذاك قد جدل أخاه، فجاؤوا يثأرون للجاهليين آباءهم وأرحامهم، من علي في أتباعه وشيعته.

وكان عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد رُزق دعوة رسول الله حين سقى الرسول لبنا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم أمتعه بشبابه.. قال أرباب السير فمرت عليه ثمانون سنة ولم ير له شعرة بيضاء. وكان من مقربي أمير المؤمنين عليه السلام فقد عد في روايات أهل البيت من حواريي أمير المؤمنين الذين ينادى بأسمائهم يوم القيامة، وكان واضح الموقف واعي القلب انتمى لخط أمير المؤمنين ببصيرة، ولنستمع إليه يعرب عن ذلك وقد وقف المواقف الشجاعة في حرب الجمل وصفين، يقول: «يا أمير المؤمنين والله ما أجبتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتينيه ولا إرادة سلطان ترفع به ذكري ولكني أجبتك بخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنك أول من آمن به وزوج سيدة نساء هذه الأمة فاطمة بنت محمد، ووصيه، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله، وأسبق الناس إلى الإسلام وأعظم المهاجرين سهما في الجهاد ن فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي ونزع البحور الطوامي حتى يأتي على يومي في أمر أقوي به وليك وأهين به عدوك ما رأيت أني قد أديت كل الذي يحق علي من حقك»..

فرفع أمير المؤمنين يده داعيا له: اللهم نور قلبه بالتقى واهده إلى صراطك المستقيم.. ثم قال: ليت في جندي مائة مثلك!!

وفي موقف آخر أخبره أمير المؤمنين بأنه سيقتل بعده، فقال عليه السلام: إنك لمقتول بعدي وإن رأسك لمنقول وهو أول رأس ينقل في الإسلام والويل لقاتلك[1].

هذا هو إذن من يبحث عنه معاوية بن أبي سفيان، والتهمة جاهزة، إذ المهم تنفيذ القتل، ثم لن يعدم تهمة يحتج بها.. أي صيد ثمين قد حصل عليه؟

كان معاوية قد كلّف بهذه المهمة زياداً (المجهول أبوه)، والذي كان يفتش عن هوية وبطاقة شخصية لكي يخرج من حالة الشهادة الدائمة على زنى أمه، واستغل معاوية نقطة الضعف تلك فنسبه إلى أبيه (أبي سفيان) واشترى منه زياد ذلك بسعر غال، فقد أفحش في تتبع شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وقتلهم لكي يثبت أنه بعمله فعلا من الشجرة الملعونة ولا ينقص عن حقيقيي النسب فيها في حقدهم على أهل البيت. وجرد سيف بغيه فكان أن اعتقل حجرا بن عدي الكندي، وأصحابه، واستطاع عمرو بن الحمق الخزاعي أن يخرج من الكوفة متسللا، حتى نزل المدائن وكمن في جبل لكن عامل ذلك الرستاق، اطلع على خبره فجرد له فرقة عسكرية، وكان قد مرض بحيث لا يستطيع القتال، فأسر وأخذ إلى عامل الموصل الذي عرف شخصيته، فكتب إلى معاوية، الذي أصدر الأمر بقتله فوراً..

واستشهد عمرو بن الحمق، وبعث برأسه إلى معاوية وكان أول رأس حمل في الإسلام كما أخبره أمير المؤمنين عليه السلام.

وجيء برأس عمرو بن الحمق إلى الشام، إلى قصر معاوية، وقد استتب

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤١.

له الأمر، فدفعه إلى الحارس وأمره أن يذهب به إلى زوجته آمنة، وكانت قد سجنت فيه سنتين، وقال له أن يحفظ ما تتكلم به حتى يؤديه إليه، ترى.. هل كان معاوية يتوقع أن يسمع ذلك الرد العنيف المنطلق من قلب مؤمن بالله، واع بأن طريق الجهاد والولاية طريق محفوف بالمصاعب، والتضحيات، وأن نهاية المجاهدين فيه وأقصر طريق لهم هم طريق الشهادة وأنهم لا يدخلون الجنة إلا من أوسع أبوابها، وأنه لو فاتهم شهادة في صفين والجمل، فإن الله لن يحرمهم من شهادة أخرى متميزة؟

أم تراه كان يحب أن يسمع ضجيج امرأة ثاكل قد أحاط بها الهم في سجنه مدة سنتين من الزمان، هل كان سادياً يتلذذ بعذاب الآخرين، ويرتاح إلى أنين النساء وبكائهم؟

أو أنه كان يتوقع أن تنهد قوى المرأة المؤمنة تلك، فتتكلم بما يسره من الاستعطاف والاسترحام؟

فجاء الحارس وطرح الرأس في حجرها، فارتاعت هنيئة ثم وضعت يدها على رأسها وقالت:

واحزناه لمصرعه في دار هوان وضيق مجلس سلطان، نفيتموه عني طويلا ثم أهديتموه إلي قتيلا، فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية، وأنا اليوم له غير ناسية، ارجع أيها الرسول إلى معاوية وقل له ولا تَطوِهِ (أي لا تخفه عنه): أيتم الله ولدك وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك!!

وجاء الحارس وأخبر معاوية بما شاهده وما سمع، فأرسل إليها وأتوه بها، وهو في جماعة منهم إياس بن حِسل أخو مالك بن حِسل، وكان في شدقه نتوء عن فمه لعِظَم في لسانه وثقل.

قال معاوية لها: أنت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني؟

فقالت آمنة: نعم، غير نازعة عنه ولا معتذرة منه، ولا منكرة له

فلعمري إني قد اجتهدت في الدعاء (عليك) غاية الاجتهاد وإن الله من وراء العباد فما بلغت شيئا من جزائك، والله بالنقمة من ورائك.

فاعرض عنها معاوية. فقال إياس (المذكور): اقتلها يا أمير المؤمنين فوالله ما كان زوجها بأحق بالقتل منها.

كان هذا (الإياس) تجسيداً لصور المرتزقة الواقفين بباب السلاطين، صورة كما مر قبل قليل ومعنى، فهم الذين ينتظرون كلمة عطف أو نظرة لطف من الأمير حتى تنفتح عليهم الدنيا بزعمهم، ويزايدون على المواقف الكاذبة حتى يثبتوا لأميرهم أنهم أولياء له، ومتحمسون لقضيته، وهم يعلمون أنهم كذبة وأمراؤهم يعلمون أنهم منافقون خونة، لا يعرفون غير مصلحة أنفسهم، وشهوات ذواتهم، وأنهم بلا موقف.

ولم تمهله آمنة يسيغ بريقه، ولا يهنأ بذرب لسانه، فالتفتت إليه فلما رأته ناتئ الشدقين، ثقيل اللسان قالت: تباً لك ويلك، بين لحييك كجثمان الضفدع ثم أنت تدعوه إلى قتلي كما قتل زوجي بالأمس، ﴿**إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ فضحك منه معاوية ضحك سخرية. ثم قال لها وقد أعجب بقوة قلبها لله درك اخرجي ثم لا أسمع بك في شيء من الشام.

قالت: لأخرجن من الشام فما في الشام لي من حبيب، ولا أعرج فيها على حميم، وما هي لي بوطن، ولا أحن فيها إلى شجن ولقد عظم فيها دَيني، وما قرت بها عيني، وما أنا فيها بعائدة ولا حيث كنت لك بحامدة.

فأشار إليها بإصبعه بعدما رأى أنه لو تكلم لأسمعته من قوارص لسانها، وقوارض بيانها ما لا يسعه سمعه أن اخرجي.. فخرجت وهي تقول: يا عجبي لمعاوية، يكف عني لسانه، ويشير إلي ببنانه، والله لأعرّقن حضني قاتل عمرو - زوجها بكلام مؤيد شديد، أوجع له من نوافذ الحديد، الست بابنة الشريد؟؟

مرة أخرى وهي خارجة من ديوان معاوية، تلتقي برجل أصلع أسود أصعل هو الأسلع الهلالي، وإذا كان ما ذكر من وصف هو لشكله الخارجي، فلعل ذلك يشير إلى عريه من المواقف، وصلعه من الرجولة، وسواد مآله، وفعله، وما أكثر تواجد هؤلاء على أبواب السلاطين؟ فليس على المزابل غير الذباب. فسمعها وهي تقول ما تقول، فقال لها: لمن تعنين بهذا؟ لأمير المؤمنين عليك لعنة الله؟؟

فنظرت إلى وجهه وإذا هو يختصر معناه ووجوده، وما ابلغها، وما أفصحها هذه المرأة، هذا مع أنها في ظرف مصيبة وثكل.. لكنها معدن الذهب متى تزدد عليه نار المصائب يزدد صفاء وجودة ونقاء.. لله درها وهي تنقل هذه الصورة التي تعجز عن نقلها الكاميرات المتحركة، لهذا الشخص الواقف أمامها.

قالت: خزية لك وجَدعا، تلعنني واللعنة بين جنبيك، ومن قرنك إلى قدميك (أي أنت محتو على اللعنة وتحملها بين جلدك)؟ اخسأ يا هامة الصُّعل (الدقيق الرأس الطويل المعوج) ووجه الجُعَل (حشرة كالخنفساء)، وأذلل بك نصيرا وأقلل بك ظهيرا.

فبهت الأسلع ثم سأل عنها فأخبر بخبرها، فأقبل إليها معتذرا منها خوفا من لسانها. فقالت: قد قبلت عذرك وإن تعد أعد ثم لم أُقلك ولم أراقبك. فبلغ ذلك معاوية فقال: كلا زعمت يا أسلع أنك لا تواقف مع يغلبك أما علمت أن حرارة الشوك ليست بمجانسة لنوافذ الكلام عند مواقف الخصومة، ألا تركت كلامها قبل النصفة منها، ومنك الاعتذار إليها؟

قال: يا أمير المؤمنين لم أكن أرى امرأة تبلغ من معاضيل الكلام ما بلغت هذه المرأة، وقد جالستها فإذا هي تحمل قلباً شديداً ولساناً حديداً وجواباً عتيداً، فهالتني رعباً وأوسعتني سبًّا.

ثم إن معاوية أراد أن يسكتها فيما بعد، فقال إلى عبيد بن أوس: ابعث

إليها بما يقطع عني لسانها وتقضي ما ذكرت من دينها، وتخف به إلى بلادها، وقال: اللهم اكفني شرها وشر لسانها.

وجاء الرسول بما أمر به معاوية، من مال الله الذي يشتري به ذمم الشعراء، والرؤساء، فتراهم يتهالكون على ذلك الحطام الحرام الزائل، فلما رأته قالت: واعجبا من معاوية! يقتل زوجي ويبعث لي بالجوائز! فليت حظي من أبي كرب سد عني خيره وشره!!

وخرجت من دمشق بعد سنتين من السجن، تحمل معها ألم الغربة والسجن، وحرارة الترمل بعد زوج صالح مثل عمرو بن الحمق الخزاعي رضوان الله عليه، ووجهتها هذه المرة إلى الكوفة، وفي الطريق لما وصلت إلى حمص أصابها الطاعون، فماتت، ماتت.. وما ماتت مواقفها الكريمة، وقضت وما دفنت كلماتها المبدئية العزيزة، تهاوى الجسد أمام طاعون الظلم، وطاعون المرض، وبقيت مثلا كريما للعزة التي تتمرد على الطغيان، وللقلب العظيم الذي يواجه الباطل قويا ثابتا لا يتضعضع، يواجه الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وإذا كان (ذكر الفتى عمره الثاني) فلقد خلفت ذكرا عطرا تعبق بشذاه سماء المؤمنين.. وكم هي الفاصلة بين رجال (بالصورة) لا بالسيرة وبين امرأة أظهرت من المروءة، ما يكفي لأجيال ومن الشجاعة ما يسقي أمة.

انظر إلى النماذج التي عاصرتها، انظر إلى أولئك الصغار الزاحفين على الرمال ذلا وخضوعا، وإلى الأجراء البائعين دينهم، وعقيدتهم في سوق النخاسة والبخس.

ماتت.. وجاء الأسلع إلى معاوية كالمستبشر، فقال: أفرخ روعك يا أمير المؤمنين! قد استجيبت دعوتك في ابنة الشريد، وقد كفيت شر لسانها!

فقال معاوية: وكيف ذاك؟.

قال: إنها مرت بحمص فلقيها الطاعون.

قال معاوية: فنفسك بشر بما أحببت فإن موتها لم يكن بأروح لي منه عليك، ولعمري لقد انتصفت منك حين أفرغت عليك شؤبوباً وبيلاً.

فقال الأسلع: ما أصابني من حرارة كلامها شيء إلا وقد أصابك مثله وأشد منه[1].

(١) بلاغات النساء، وتاريخ دمشق.

٥- أمامة بنت أبي العاص بن الربيع

توفيت قبل سنة ٥٠ هـ.

❁ ❁ ❁ ❁

كان للنبي ﷺ عدة بنات[١] من خديجة: زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة وهي أفضلهن.

زينب تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس في مكة قبل البعثة وقبل إظهار النبي ﷺ لدعوته، وبعدها قام القرشيون بما زعموه ضغطا على الرسول، وإحراج حياته الشخصية، فتحدثوا مع أبي العاص ليطلق زينبَ ويرجعها إلى بيت أبيها، وفي مقابل ذلك سيعطونه أجمل بنات قريش!!

وكان أبو الربيع على الرغم من شركه حينئذ شهما يقدر نفسه والتزاماته الاجتماعية، ويرى أنه لا يمكن لغيره لأجل مصلحة سياسية أو شخصية أن يتحكم في أمر زواجه هو وطلاقه! فكان أن رفض ذلك العرض

---

(١) هذا على المعروف بين المؤرخين وإن كان بعض المحققين يشكك في ذلك، يراجع (الصحيح من سيرة الرسول الأعظم ﷺ ج ٢) و(بنات النبي ﷺ أم ربائبه) للسيد جعفر مرتضى العاملي، وسيكون حديثنا هنا على طبق ما هو المعروف لا الرأي الآخر. فليلاحظ.

جملة وتفصيلا.. بلى للرجال قيمٌ هي جزء شخصيتهم حتى قبل التزامهم بالدين، وهناك أناس لا قيم لهم حتى بعد انتمائهم لدين القيم.

نفس هذا الرجل وهو أبو الربيع، طلبت منه زينب زوجته أن تلحق برسول الله ﷺ في المدينة بعد أن أسلمت، فأجابها إلى ذلك وقبل منها!! ثم خرج إلى الشام لبعض تجارته.

في هذه الأثناء خرجت زينب مع بعض رفقتها لتلحق بالرسول، فلحق بها عدد من رجال وشخصيات (!!) قريش لمنعها من الذهاب إلى المدينة، ولكن أكثرهم رجولة!! كان هبار بن الأسود[١] الذي ظل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها وألقت ما في بطنها!

على الطرف الآخر كان أبو العاص زوجها في تجارته حتى إذا رجع قاصدا مكة المكرمة بدأت قريش بالاستعداد لحرب النبي ﷺ، وساقت الراغب والغاضب إلى المعركة شوقا وكرها، وكان ممن ذهب إلى بدر أبو العاص بن الربيع الذي ما أن بدأت المعركة حتى وقع أسيرا في يد المسلمين..

انتهت المعركة بنصر مؤزر للمسلمين، وعادوا بالغنائم: نصر واضح، ومعنويات متجددة، وعدد كبير من آلة الحرب، وسبعين أسيرا. سيشكلون قوة إضافية للمسلمين من خلال فدائهم أو تعليمهم المسلمين مبادئ القراءة والكتابة!

وجاءت الأموال ليفتدى بها كل أسير من قبل أهله.. وبينما الرسول يتفحص في أموال الفداء رأى قلادة عادت به إلى أيام الجهاد الأولى حيث ذكرى الحبيبة الغائبة خديجة! سأل عن القلادة فقيل هي من زينب لفداء زوجها أبي العاص.. فرق النبي ﷺ رقة شديدة، حيث كانت خديجة قد

(١) من العدد القليل الذين أباح النبي ﷺ دمهم عند فتح مكة، وكانوا الاستثناء من اليوم يوم المرحمة.

جهزت زينب بها عندما أدخلتها على أبي العاص.. وقال: إن شئتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا عليها مالها، ففعلوا وهنا طلب النبي من أبي العاص أن يرسل له زينبَ، فوعده بذلك.

وأعيدت زينب إلى مكة، لتحاول مرة أخرى فيما بعد الوصول إلى المدينة بتخطيط من رسول الله ﷺ كما يذكر صاحب كتاب الذرية الطاهرة النبوية: أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن حارثة ألا تنطلق فتجيئني بزينب!

قال: بلى يا رسول الله. قال: فخذ خاتمي فأعطها فانطلق زيد فلم يزل يتلطف حتى لقي راعيا فقال لمن ترعى؟ قال: لأبي العاص.

قال: فلمن هذه الغنم؟ قال: لزينب بنت محمد. فسار معه شيئا ثم قال له هل لك أن أعطيك شيئا تعطيها إياه ولا تذكره لأحد؟ قال: نعم. فأعطاه الخاتم فانطلق الراعي فأدخل غنمه وأعطاها الخاتم فعرفته.

فقالت: من أعطاك هذا؟ قال: رجل قالت وأين تركته؟

قال: مكان كذا وكذا. فسكتت حتى إذا كان الليل خرجت إليه فلما جاءته قال لها زيد اركبي بين يدي على بعيري قالت لا ولكن اركب أنت بين يدي فركب وركبت خلفه حتى أتت المدينة!!

كانت تلك المواقف التي شهدها منذ بداية دعوة النبي ﷺ، تتفاعل في داخل أبي العاص، ورأى من خلالها قوما يصعدون في المدى الإنساني إلى أعلاه حيث لا حديث عن الانتقام والسعار الحيواني، وإنما هي الرحمة وإنما هي القيم حين تتجلى في المؤمن.. وأنتج ذلك أن يؤمن أبو العاص بعد سنة واحدة من هجرة زينب، ويعود الشمل مجموعا له مع زوجته زينب وابنته أمامة وابنه علي.

آمن أبو العاص وكان مع الإمام علي عليه السلام، في طريقه إلى اليمن عندما بعثه رسول الله ﷺ. واستخلفه علي عليه السلام على اليمن عند عودته إلى المدينة.

كانت أمامة في هذا البيت فراشة ملائكية تحوم في أرجائه، فتبث فيه البهجة والسرور، وتستجلب نظر الرسول ﷺ، وهي في تلك السن المبكرة لكي يظهر للناس حبه إياها.. فقد يرى في الصلاة وهي على يديه فإذا سجد وضعها على الأرض[١]، وأخرى يحملها على عاتقه. وهو في ذلك يحقق أهدافا متعددة، فمن جهة تربوية هو يعلم الناس كيف يتعاملون مع أطفالهم لا سيما البنات منهم، بعد عقلية ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا**﴾ وعقلية (بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد).

ومن جهة أخرى يعلم المسلمين نهجا فقهيا يقوم على أساس أن (كل شيء نظيف حتى تعلم أنه قذر)، وما أحرى المسلمين باتباع هذا المنهج! فإننا نجد أن قسما منهم حتى يومنا هذا يجتنبون أطفالهم، فيحرمونهم من الحنان والقبلة واللمسة بزعم أن الطفل نجس، ويبعد عن المائدة فلا يؤاكل في صحن ولا يشارك في شرب بزعم أنه نجس وهكذا.. حتى ينشأ بهذه الطريقة المعوجة..

نشأت أمامة بنت أبي العاص وبنت زينب في هذا الجو مكرمة على يد الرسول ومحبوبة من الأسرة، لذلك كانت على انسجام نفسي رائع مع سائر أبناء الرسول وعترته مما كان له الأثر المهم في ترشيحها من قبل فاطمة الزهراء عليها السلام عند وفاتها لتكون زوجة لأمير المؤمنين عليه السلام، فلا يفهم أحدٌ أميرَ المؤمنين في ملكاته وصفاته وعلو ذاته كما تفهمه الزهراء البتول، ولذلك انتخبت له وصيانة لأبنائها منه تلك المرأة الطاهرة الطيبة، أمامة لأنها ترى أنها خير من يكون لعلي بعد رحيلها عليها السلام.

نعم ما أن هبت رياح الفتن عاصفة لتقتلع زهرة الزهراء الصديقة، حتى ذبلت تلك الوردة المحمدية اليانعة، وهاهي ترقد على فراش منيتها

---

(١) ورد في أكثر الكتب الفقهية ـ غير الشيعية ـ كما ذكره العلامة في منتهى المطلب وصاحب المدارك والحدائق والجواهر وغيرهم. وقد استفادوا منه عدم البأس بالحركة القليلة التي لا تخرج بالمصلي عرفا عن الهيئة الصلاتية. وبعضهم استفاد أن الحركة المتفرقة القليلة غير ضارة وإن كانت بحيث لو اجتمعت وانضمت تحسب كثيرة.

مغادرة هذه الدنيا بعين دامعة على فراق زوجها وأبنائها وأخرى ضاحكة للحاقها بأبيها النبي، هل رأيت يوما كيف يجتمع الحزن والفرح في وقت واحد؟ هل جربت هذا الشعور الصعب على النفس؟

طلبت من علي عليه السلام الحضور لتوصي له بوصاياها فلما حضر قالت له: يا بن عم إنه قد نعيت إلي نفسي وإنني لأرى ما بي لا أشك إلا إنني لاحقة بأبي وأنا أوصيك بأشياء في قلبي، قال لها علي عليه السلام: أوصي بما أحببت يا بنت رسول الله، فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت.

ثم قالت: يا بن عم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتك؟ فقال عليه السلام: معاذ الله أنت اعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفا من الله من أوبخك غدا بمخالفتي عزّ علي مفارقتك وفقدك، إلا انه أمر لا بد منه والله جدد علي مصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد عظمت وفاتك وفقدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمضها وأحزنها، هذه والله مصيبة لا عزاء عنها ورزية لا خلف لها، ثم بكيا جميعا ساعة واحدة، وأخذ عليه السلام رأسها وضمها إلى صدره، ثم قال: أوصني بما شئت فانك تجديني وفيا كلما أمرتني به واختار أمرك إلى أمري.

ثم قالت: جزاك الله عني خير الجزاء، يا بن عم أوصيك أولاً أن تتزوج بابنة أختي أمامة، فإنها تكون لولدي مثلي، فان الرجال لا بد لهم من النساء، وان تتخذ لي نعشا، فقد رأيت الملائكة تصوروا صورته؟ فقال: صفيه لي؟ فوصفته فأتخذه لها ثم قالت: وأوصيك أن لا يشهد أحد من هؤلاء الذين ظلموني واخذوا حقي فإنهم أعدائي وأعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا تترك أن يصلي علي أحد منهم ولا من أتباعهم، وادفني في الليل إذا هدأت العيون ونامت الأبصار[1].

وغابت الزهرة الزهراء في جوف الثرى، فما أقبح الغبراء!

---

(١) النقدي، الشيخ جعفر، الأنوار العلوية.

كان علي عليه السلام يجد عزاءه في إنفاذ وصية فاطمة، فتزوج أمامة بنت أبي العاص، الذي رأى نعمة كبرى في مصاهرة إمامه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان أبو العاص في ركاب علي عليه السلام منذ اسلم وذهب معه إلى اليمن، وها هو اليوم في بيته معتصماً معه مع النفر القليل الذين أصروا على أحقية الإمام بالخلافة تبعاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

تزوج الإمام أمامة، وكانت كما توقعت الزهراء عليها السلام، تلك المرأة المناسبة التي رعت أبناءه رعاية الأم الحقيقية، وما أحوج الأبناء في تلك السن المبكرة إلى (زوجة والد) تكون أما ثانية حانية. وأمامة في هذا تعطي نموذجا للنساء اللاتي يخلفن الأم الحقيقية..

ولو نظرنا إلى الواقع وما فيه من مشاكل تتبع الحالة السابقة لرأينا عظمة هذا الدور فإننا نلحظ أنه يحدث أن تتوفى الأم في مراحل مختلفة من العمر، وهنا إما أن يضطر الأولاد خصوصاً البنات أباهم لئلا يتزوج، تبعاً لما يسمعون من مشاكل بين زوجة الأب والأولاد.. وهذه مشكلة بالنسبة للوالد فـ(إن الرجال لا بد لهم من النساء) كما في وصية الزهراء، وإما أن يتقدم الرجل لزوجة ما وتريد هذه أن تستأثر بالبيت ورب البيت فلا تراعي للزوجة الراحلة حرمة وتظل في شجار وشقاق مع الأولاد، بل في اضطهاد كما تتحدث عن ذلك الكثير من الدراسات الاجتماعية.

لكن أمامة بسعة خلقها وعظمة نفسها أسعدت الوالد، ولم تنسِ الأولاد أمهم وكانت كما قالت الزهراء (فإنها تكون لولدي مثلي)..

بقيت مع أمير المؤمنين في هناء وهدوء، ومرت كما رياح الصبا لا كما نرى في بعض الزوجات، تمر عاصفة في صخب وتثير الغبار الذي يملأ العيون، وتصبح حديث المجالس بين مؤيد ومعارض. وأنجبت له على أقوى الروايتين محمداً الأوسط[1].

---

(١) النقدي، الشيخ جعفر، الأنوار العلوية، وقيل إن محمدا قد قتل مع أخيه السبط في كربلاء.

شاركت أمامة علياً حلو الحياة ومرها، وما أكثر الأخير عند علي عليه السلام، إلى أن «فاز ورب الكعبة» في بيت الله ساجداً ومضى شهيداً.. بينما مضت بغصتها وألمها الأمر الذي لاحظته أم الهيثم النخعية وهي ترثي أمير المؤمنين عليه السلام:

أشاب ذوائبي وأذل ركني   أمامةُ حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها إليه   فلما استيأست رفعت رنينا

وكما عرفت الزهراء فضل أمامة فأوصت عليا بهذا الدر الثمين، فقد عرف الإمام من فضلها بعشرتها الشيء الكثير لذلك كان عسيراً عليه أن يباع هذا الدُّر بعده على فحام فيضيعه، لذلك أوصاها بمن تتزوج فإنه لما حضرته الوفاة قال لأمامة بنت العاص: إني لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية بعد موتي يعني معاوية فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيراً.

فلما انقضت عدتها كتب معاوية إلى مروان يأمره أن يخطبها عليه وبذل لها مائة ألف دينار فأرسلت إلى المغيرة إن هذا قد أرسل يخطبني فإن كان لك بنا حاجة فأقبل فخطبها إلى الحسن فزوجها منه.

تماما كما اختارت الزهراء لعلي أمامة، اختار لها الإمام عليه السلام العشيرَ الصالح وفي هذا تعليم للمسلمين أن يتعاملوا مع الزواج بكثير من الواقعية الإسلامية، فنحن نرى مشكلة في هذه الجهة.. المرأة لا تتزوج بعد الزوج الأول لخوفها من مقالة الناس أنها كذا وكذا، مع حاجتها الداخلية الحقيقية للزواج.. ولكنها تلعق جراحها وتضطر أن لا تفعل مخافة النبز واللمز. وأخرى لا يتدخل أحد في أمر الزواج لأن الجو الاجتماعي لا يساعد على الخوض في هذا الأمر من قبل النساء لأنه (عيب)!! فتقبل بالموجود لأنها لا تستطيع النقاش في أمر نفسها!

لهذا قدم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن قبله الزهراء نموذجا طيبا في التعامل مع هذه القضية. انتخبت له الزهراءُ أمامةَ، وانتخب لأمامة المغيرةَ بن نوفل.

والمغيرة رجل من أصحاب أهل البيت والسائرين على خط الأئمة، وهو إضافة إلى علمه حيث كان قاضياً زمن عثمان، وشارك علياً في حرب صفين، وهو الذي قبض على عبد الرحمن بن ملجم المرادي بعدما اغتال أمير المؤمنين في المسجد، فلما همَّ الناس به حمل عليهم بسيفه ففرجوا له فتلقاه المغيرة بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الأرض وقعد على صدره وانتزع سيفه منه وكان أيدّاً شديداً.

ثم إنه كان الخليفة على الكوفة من قبل الإمام الحسن عليه السلام لما عزم على حرب معاوية، فولاه إياها وأمره بأن يستحث الناس ويعبِّئهم لقتال معاوية، ويرسلهم إليه في النخيلة.

كان اختيار الإمام لأمامة إمام الاختيار. وبقيت مع المغيرة وولدت له يحيى.. ومع هذه الميزات التي كانت للمغيرة إلا أنه يستفاد من بعض الروايات أن جودها وسخاءها كان أكثر منه، ولا يمتنع ذلك.. فقد نقل أنها عندما حضرتها الوفاة في أيام معاوية بن أبي سفيان اعتقل لسانها فلم تستطع أن تتكلم، وأرادت أن توصي بالعتق والعطاء فدعت إمامها الحسن والحسين عليهما السلام، كما نقل في الوسائل:

عن محمد بن الحسن بإسناده عن أحمد بن محمد عن ابن أبي عمير عن حماد عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أباه حدثه: أن أمامة بنت أبي العاص ابن ربيع وأمها زينب بنت رسول الله عليه السلام فتزوجها بعد علي عليه السلام المغيرة بن نوفل. إنها وجعت وجعاً شديداً حتى اعتقل لسانها فأتاها الحسن والحسين عليهما السلام وهي لا تستطيع الكلام فجعلا يقولان -والمغيرة كاره لما يقولان-: أعتقت فلاناً وأهله؟ فتشير برأسها: أن نعم، وكذا وكذا، فتشير برأسها: نعم، أم لا، قلت: فأجازا ذلك لها؟ قال: نعم[1].

---

(١) العاملي، وسائل الشيعة ط أهل البيت ج ٢٣ والرواية صحيحة.. وقد استفاد علماؤنا منها كفاية الإشارة المفهمة عند العجز عن النطق في العتق بل في غيره من العقود اللازمة والإيقاعات.

وقد تسبق المرأة زوجها في ميدان الإنفاق وفي غيره، والغريب هنا أن بعض الأزواج يجبرون من غير حق زوجاتهم في الأمور المالية بينما جعل الإسلام لهن حرية التصرف في مالهن الشخصي، ولم يجعل للزوج ولاية على الزوجة في هذه الجهات. فقد رأينا من هذه الممارسات غير الشرعية أمثلة، كأن يمنع (!!) الزوج زوجته من العطاء، أو من أداء الحقوق الشرعية، أو يجبرها على تحويل راتبها أو ميراثها إلى حسابه مع أن الله يقول إنما يجوز أن يأكل الزوج إذا طابت نفس زوجته بذلك لا فيما أجبرها عليه فعن محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن عثمان بن عيسى، عن سعيد بن يسار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك امرأة دفعت إلى زوجها مالا من مالها ليعمل به، وقالت له حين دفعته إليه انفق منه، فان حدث بك حدث فما أنفقت منه حلالا طيبا، وإن حدث بي حدث فما أنفقت منه فهو حلال طيب، فقال: أعد علي يا سعيد المسألة، فلما ذهبت أعيد المسألة عرض فيها صاحبها وكان معي حاضراً فأعاد عليه مثل ذلك، فلما فرغ أشار بإصبعه إلى صاحب المسألة، فقال: يا هذا إن كنت تعلم أنها قد أقضت بذلك إليك فيما بينك وبينها وبين الله فحلال طيب، ثلاث مرات، ثم قال: يقول الله جل اسمه في كتابه: فان طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً[1].

لقد ضربت السيدة أمامة مثلاً للمرأة المسلمة أنها لها الحق في التصرف في أموالها ما دامت فيها بقية حياة، وأنه ليس للزوج أن يتحكم في طريقة إنفاقها ما دامت ضمن الإطار الشرعي.

(١) العاملي، وسائل الشيعة، ط آل البيت، ج ١٧.



في رحاب الإمام الحسين الشهيد عليه السلام

١	الرباب بنت امرئ القيس الكلابية
٢	طوعة جارية الأشعث بن قيس
٣	أم وهب قمر بنت عبد (من النمر بن قاسط)
٤	مارية بنت منقذ العبدية
٥	دلهم بنت عمرو



موجز عن حياة
الحسين بن علي (الشهيد) عليه السلام

الإمام أبو عبد الله ٤ - ٦١ هـ:

ولد الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام سنة ٤هـ. واستشهد سنة ٦١هـ.

بالغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الاهتمام به وبأخيه الحسن منذ ولادتهما. باعتبارهما الامتداد الطبيعي له حيث ستكون ذرية الرسول من طريقهما، والامتداد المعنوي والرسالي حتى لقد أثر عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

«حسين مني وأنا من حسين»، ولقد نقل المحدثون من الفريقين من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله ما لا يحصى كثرة قي فضله وأخيه الحسن عليهما السلام.

كان دوره أيام أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ظلاً لدور الوالد، ذلك أن الإمام الحسين عليه السلام أيام أبيه كان «صامتاً» أي مع فعلية دور الإمام السابق، لا يبقى للإمام اللاحق من دور مستقل في الإمامة خاص به.

مع شهادة أمير المؤمنين عليه السلام بدأ الإمام الحسين يتحمل مسؤولية أكبر في عونه لأخيه الإمام الحسن ومع شهادة الإمام الحسن وتولي الحسين مقاليد الإمامة، أيام معاوية. عمل في اتجاهات عديدة لصيانة الإسلام من التحريف الأموي، فمن جهة عمل على مقاومة السياسة الأموية الرامية إلى إسقاط النموذج العلوي في الحكم والإيمان بإرساء «سنة الشتم» لأمير المؤمنين

عليه السلام والتعمية على فضائله وصفاته من خلال حرمان رواة أخباره من عطائهم وأحياناً بإيذائهم وهدم بيوتهم. عمل على مقاومة ذلك فكان دائم التحديث بسيرة أمير المؤمنين وكان يجمع الرواة في موسم الحج لكي يحدثوا بفضائل أمير المؤمنين وسيرته، وينقل بعضهم لبعض ما يعملون.

كان يعارض معاوية ويكشف حقيقته للناس من خلال التنديد بقتله لأصحاب أمير المؤمنين كحجر بن عدي وبالرغم من دعوة البعض الإمام الحسين للثورة على معاوية إلا أنه كان لا يستجيب، لأن الظرف لا يسمح بذلك، ولأن بينه وبين معاوية عهداً.

عندما هلك معاوية في سنة ٦٠هـ، أرسل يزيد للوالي على المدينة (الوليد بن عتبة) بأن يأخذ البيعة من الناس عموماً ومن الحسين خصوصاً، ولم يكن الحسين بالذي يبايع يزيد وهو «شارب الخمر عامل بالفسق والفجور»، فرفض بيعته وخرج إلى مكة المكرمة وكان ذلك التاريخ بداية الانطلاق الثوري الذي انتهى إلى عاشوراء وكان خروج الحسين من المدينة إلى مكة في الثامن والعشرين من رجب سنة ٦٠هـ.

عند وصوله إلى مكة تحول الحسين عليه السلام إلى محور لتوجهات المسلمين، حيث كانوا يرونه أفضل الناس وأولى الناس بقيادة المسلمين. وجاءت الكتب للإمام من الكوفة داعية إياه للنهوض بالأمر وأن يأتي إلى الكوفة فقد «اخضر الجناب وأينعت الثمار فإنما تقدم على جند لك مجندة».

استجابة لرسائل أهل الكوفة أرسل الإمام الحسين عليه السلام لهم ابن عمه (مسلم بن عقيل)، ومع أن أهل الكوفة قد أقبلوا عليه في البداية مبايعين، إلا أن الموقف تحول مع مجيء عبيد الله بن زياد إلى الكوفة حيث ضم يزيد إليه الكوفة بعدما كان والي البصرة بتخطيط من سرجون الرومي وهو أحد المتسللين إلى مركز القرار في البلاد الإسلامية منذ أيام معاوية.

في ذي الحجة من نفس السنة غادر الإمام الحسين مكة المكرمة بعدما علم

أن هناك خطة لاغتياله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، فقصد العراق. وفي الطريق كان أصحاب المطامع الذين خرجوا معه من مكة آملين في الغنيمة يتراجعون ويتسللون لواذاً. ولم يبقى معه إلا أهل بيته وخلص أنصاره.

في الجهة المقابلة كان الأمويون يحشدون الجيوش لقتال الحسين عليه السلام فبعد أن سيطر عبيد الله بن زياد على الكوفة، واستطاع قتل مسلم بن عقيل بعدما تخلى عنه أنصاره، أمر أن يخرج كل قادر على حمل السلاح إلى قتل الحسين تحت تهديد القتل لمن يتأخر.

نزل الإمام الحسين عليه السلام كربلاء بمعسكره الصغير الذي لم يكن يتجاوز عدد رجاله المائة إلا بقليل، بينما تكاملت جيوش بني أمية ثلاثين ألفاً.

في اليوم العاشر من المحرم دارت معركة تمثلت فيها البطولة الحقة والدفاع عن القيم بأعلى صورها من جهة، واللؤم وعبودية الدنيا بأدنى دركاتها في جهة الأمويين.. وكانت النتيجة أن استشهد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وعددهم (١٧) ثم استشهد صلوات الله عليه بعد قتال عنيف.. في عصر العاشر من المحرم سنة (٦١هـ) ودفن حيث مصرعه في كربلاء.

خلفت ثورة الإمام الحسين آثارا مهمة في حياة الأمة الإسلامية، كان منها على الصعيد الديني نزع الصفة الدينية عن بني أمية، وإظهارهم -على واقعهم- أعداء للدين، ومن كان حاله هكذا فلا يصلح لزعامة المسلمين. وعلى الصعيد الاجتماعي خلقت حالة ندم وتأنيب للضمير بين الناس مما أدى إلى اندلاع ثورات بعد الحسين عليه السلام كان منها ثورة التوابين وثورة المختار الثقفي اللتان اندلعتا تحت شعار يا لثارات الحسين، وأصبح قتل الحسين عنوانا لكل من يريد الانتقام من الأمويين، وجامعاً لكل الفئات على اختلاف مذاهبها ضدهم.



١- الرباب بنت امرئ القيس الكلابية
أثيرة الحسين عليه السلام

توفيت سنة ٦٢هـ

❁ ❁ ❁ ❁

كيف تحظى امرأة عند زوجها، وكيف تكون أثيرة عنده؟

لعل هذا السؤال، والإجابة عليه هو الهاجس الذي يدور في أذهان الكثير من النساء المتزوجات واللاتي سيتزوجن. فأن تحظى الزوجة عند زوجها يعني ذلك أنها قد قدرت على إسعاده، وبذلك ترسم لوحة السعادة في حياتها أيضاً.

إجابة هذا السؤال كانت شغل الكثير من النساء، فالبعض منهن سلكن دروبا ملتوية لا تؤدي إلا إلى السراب، كأن تستعين بالشعوذة و(كتابة الكتاب) لتجلب لها قلب زوجها، وتقصره عليها!! وبعضهن سلكن درب الجسم وظننَّ أن قلب الزوج سيكون بأيديهن لو كان جسدهن فتاناً، فحفظن برامج الحمية، وعناوين عيادات التجميل التي أصبحت مسجداً ومزاراً يوميا لهن.. وهكذا ضل الكثير منهن الطريق عن الكعبة فإذا به يصل بهن إلى تركستان!

وأمامنا نموذج للنساء اللاتي يردن الوصول إلى سعادتهن وإسعاد أزواجهن.. عنوان الوفاء والحب الذي يفنى فيه الجسد لبقاء القلب والروح،

الرباب ابنة امرئ القيس زوجة الإمام الحسين عليه السلام، والتي نقل أن الإمام الحسين عليه السلام كان يقول[1] فيها:

لعمرك إنني لأحب داراً تحل بها سكينة والرباب

ولعل ما رشح من تلك العلاقة بين الزوجين هو جزء صغير مما عليه الواقع، نظرا لطبيعة العلاقة الزوجية والتي تحاط عادة بالكتمان في تفاصيلها، لكن ما رشح منها يفيد إلى أي مقدار كانت هذه المرأة الصالحة وفية لزوجها الحسين عليه السلام، حتى أنها ماتت كمدا عليه بعد عام.. وقد يتصنع الإنسان الحزن، والبكاء لكنه لا يستطيع أن يموت كمدا لو لم يكن صادقا في مشاعر وفائه وحزنه.. ولنكن مع هذه السيدة من البداية.

يأتي أبوها امرئ القيس وقد كان مسيحيا قبلئذٍ في عهد الخليفة الثاني، فيظهر إسلامه مقتنعا بمبادئه وأحكامه، وقبل أن يعود يكون قد أصهر إلى أهل البيت، فإن لم يكن قد لقي النبي صلى الله عليه وآله فها هو صنو النبي علي عليه السلام، وقد تقدم إليه خاطبا، فما برح حتى زوجه ابنته المحياة، وزوج الحسين ابنته الرباب.

أنجبت الأولى لأمير المؤمنين عليه السلام بنتا صغيرة لم تلبث أن توفيت، بينما كان ثمرة زواج الحسين عليه السلام من الرباب، بنت هي سكينة[2] وولد هو عبد الله الذي قتل في كربلاء صغيراً.

(١) نفى البعض صدور هذا الشعر من الإمام الحسين عليه السلام، ونحن لا نرى هذا النفي في محله، بعدما نقل أغلب أو كل الذين ترجموا للرباب وابنتها سكينة، وليس في معناه ما يمنع الالتزام به، فإن إظهار أهل البيت عليهم السلام حبهم لزوجاتهم ليس مستنكرا فهذا النبي صلى الله عليه وآله يقول عن خديجة إني رزقت حبها، وسيأتي في الترجمات القادمة ما يبين قوة العلاقة والحب بين الزوجات وبين أهل البيت عليهم السلام وإظهار المعصومين لذلك.

(٢) المعروف عند المؤرخين أن اسمها أمينة، ولكن غلب عليها اسم سكينة بفتح السين وكسر الكاف، ولعل هذا يفسره ما نقل عن الإمام الحسين عليه السلام: أن الغالب عليها الاستغراق مع الله سبحانه وتعالى.

إلى كربلاء:

لا نجد حدثا غير عادي في حياة الرباب منذ اقترانها بالسبط الثاني عليه السلام، سواء في فترة بقائها في المدينة أو عند انتقالها معه إلى الكوفة أيام أمير المؤمنين عليه السلام. وهكذا في عهد الحسن المجتبى عليه السلام، لكن عندما اضطرب الوضع العام الإسلامي، وقام أبو عبد الله الحسين عليه السلام، ناهضا لنصر دين الله، وإعزاز كلمته، كان الموعد كربلاء.

عادة الثائرين المقاتلين، أنهم يتحملون مسؤولية موقفهم منفردين، فلا يحملون غيرهم تبعات ذلك الموقف، ولذا يحرصون على الفصل بين موقفهم الذي يعنيهم مباشرة ويتحملون مسؤوليته دون غيرهم، وبين أسرهم وعوائلهم فتجدهم يؤمنون وضع تلك العوائل حتى لا يصيبها خطر أو ضرر على أثر ثورة أوليائهم وذويهم.

غير أن الحسين عليه السلام كان منذ البداية قد صمم على أن تشارك نساؤه في تلك الثورة وأن يكتب لهن شرف تكميل رسالتها. ولذا فقد خرج من المدينة النبوية حاملاً معه نساءه وبناته، وأخواته، وجاء إلى مكة المكرمة في بدايات شهر شعبان سنة ٦١هـ حتى إذا حضر موسم الحج، وقد أحرم بعمرة التمتع، أحل من إحرامه وعدل بعمرة التمتع إلى عمرة مفردة. وساق ظعينته إلى حيث ينتظره الحج الأكبر الذي سيكون فيه هو الضحية وكبش الفداء العظيم للإسلام.

جاء الحسين إلى كربلاء «على قلة العدد وكثرة العدو وخذلان الناصر»، وأتم الحجة على قوم ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ**﴾، ولكن كان الدين بحاجة إلى دم يغسل عنه ما تراكم عليه من أوضار شهَوات الحاكمين، ووسخ الفقهاء المصلحيين ويوقظ العامة الغافلين.. ومن أصدق من الدم في إعراب المواقف؟

كان الفصل الأول من كتاب عاشوراء، فصل البطولة المدماة، فيها تختلط شهامة الموقف بمواقف الشهامة، وكلمات الشجاعة بشجاعة الكلمة،

ويتسابق فيه رجال أعاروا الله جماجمهم، وباعوه أنفسهم ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ابن عوسجة، برير بن خضير، وزهير بن القين.. أبطال المصر، وأهل البصائر، قوم مستميتون لا يقف دون الجنة أمامهم أحد إلا حطموه، وكانت النتيجة أن وصلوا فائزين.

وبنو هاشم: شبيه رسول الله، أبناء عقيل، أبناء جعفر، أبناء علي عليه السلام، وحامل اللواء.. وأخيرا بطل الملحمة، ومدار الموقعة الساعي إلى عزه بظلفه، وإلى نصر دين جده بدمه.. خدود تفرت ولم تضرع، ووجوه جفت فيها روح الحياة ولم تخضع وصاروا لمن بعدهم نموذج عز ومثال فخار:

وإن الألى بالطف من آل هاشم تآسوا فسنوا للكرام التآسيا

ولم تكن التضحية والشهادة وقفا على الكبار الناضجين، بل كانت دماء الرّضَع أيضاً سقاء لشجرة الإسلام، ها هو الحسين عليه السلام يأخذ ابنه عبد الله من يد أمه الرباب لكي يؤذن في أذنه أو يسقيه ماء، فيسقيه القوم شراب السهام، ويؤذن الموت في نحره ويعيده الحسين للرباب كحمامة بيضاء مطوقة بالدم. والرباب الصابرة استقبلت ذلك الذبيح بنفس مطمئنة، مقدمة رسولا لها ينتظرها على باب الجنة لا يدخل حتى تدخل.

❁ ❁ ❁ ❁

انتهت المعركة العسكرية وبقيت الحرب قائمة وما كان للحرب بين الحق والباطل أن تنتهي وإلا انتهت الحياة.. وبدأ الفصل الثاني في ذلك الكتاب وهو فصل: الكلمة الثائرة، وكان هذا هو دور النساء.. اللاتي «شاء الله أن يراهن سبايا»[1].

---

(١) كلمة قالها الحسين عليه السلام في جواب من سأله بمكة عن سبب حمله للنساء معه، وقد يبدو للنظر أن الأمر فيه جانب جبري وليس كذلك، فإن أهل البيت عليهم السلام وهم رواد الدعوة إلى الاختيار ومسؤولية الإنسان لا يمكن أن يتحدثوا عن الأمور بنحو ينتهي =

إن مسيرة الألم والسبي التي استمرت أربعين يوما بعد شهادة الحسين عليه السلام، كانت الصورة المكملة للثورة، ذلك أن الخطابات التي ألقيت في الكوفة وفي الشام كشفت للناس عظم الخطب والمأساة، والداهية التي أصيب بها الإسلام بولاية يزيد عليهم.

ها هو الركب الحسيني في بلاط يزيد، وقد أراد يزيد بن معاوية أن يجعل منهم أمثولة تردع غير الحسين عن التفكير في معارضته، فإذا كان الحسين وهو ابن رسول الله قد صنع به ما صنع، وسبيت نساؤه بهذه الصورة فأية حرمة تبقى لغيره؟

لكن انقلب السحر على الساحر، فإذا بالمجلس يتحول إلى عاصفة من النقد والاستنكار على يزيد، وعلى أعوانه.. وما نقله التاريخ من مشاهد في ذلك المجلس يبين بوضوح كيف أن الحسين عليه السلام كان منتصرا وهو لا يزال عفير التراب.

فقد قام السجاد علي بن الحسين عليه السلام وخطب في الحاضرين ذلك الخطاب الذي نقض فيه غزل يزيد انكاثاً بعد إحكامه. ثم قام زيد بن أرقم وقد رأى يزيدا يضرب ثنايا رأس الحسين عليه السلام بعود خيزران كان معه، قائلاً إنه طالما رأى النبي صلى الله عليه وآله يقبل ثناياه.

وأما الرباب فإنها وهي ترى قمر الرسالة في طشت يزيد، ظلت تتطاول للنظر إليه، ثم رثته بأبيات:

واحسينا فلا نسيت حسيناً أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً لا سقى الله جانبي كربلاء

❁ ❁ ❁ ❁

= إلى جبرية مخالفة للأصول العقائدية. والمقصود هنا هو كما في الجملة السابقة لها، وهي قوله: شاء الله أن يراني قتيلا، ومعناه أن الله يشاء مشيئة تشريعية أن يدعوني لنصر دينه، فأستجيب لذلك فأكون قتيلا في سبيل الله، ويشاء أيضا أن تستمر هذه المسيرة وتكتمل بدور النساء، فتتحمل النساء تلك المسؤولية فيكن سبايا.

عاد الركب الحسيني محملا بأثقال الألم، إلى جانب أكاليل النصر وتحقيق هدف النهضة الحسينية، واتجه إلى كربلاء.. حيث موطن الذكريات. وهناك التقى عند المصرع بجابر بن عبد الله الأنصاري[1] فقد روى الشيخ

---

(١) شكك الشيخ المطهري رحمه الله في (الملحمة الحسينية) بأمر لقاء الركب الحسيني بجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، وذكرها تحت عنوان التحريفات اللفظية: قصة زيارة الأسراء لقبر الحسين عليه السلام في كربلاء وملاقاة السجاد عليه السلام لجابر رضي الله عنه وذلك بعد أن وصل الأسرى إلى مفترق طريق بين المدينة والعراق والاستعانة بالنعمان بن بشير لمعرفة طريق كربلاء في حين أن حقيقة الزيارة المعروفة هي زيارة جابر وعطية العوفي رضي الله عنهما لقبر الحسين عليه السلام لا غير. هذا على فرض كون كل ما جاء في الطبعة العربية المترجمة صحيح النسبة إلى الشهيد المطهري رحمه الله وهو ما نفاه المحقق السيد جعفر العاملي.

ولم يذكر الشهيد المطهري رحمه الله ـ وهو المتتبع ـ ما يدل على كون الواقعة غير حقيقية، أو جهة كونها من التحريفات اللفظية! ولعل حرصه على أن تكون الأمور محققة وحماسه ضد المبالغات غير المقبولة في السيرة الحسينية كما يلحظ ذلك قارئ الملحمة أدى به لذلك.

فمع أننا لا نجد تأريخا صريحا للواقعة في المصادر التاريخية القديمة ـ في الباقي منها ـ كما هو الحال في الباقي من مقتل أبي مخنف الأزدي، والذي نقل منه الطبري كثيرا، ولم ينقله بكامله، وإنما نقل ما يرتبط بالقضية التأريخية التي تنفعه في كتابه.. ولا يضر عدم ذكره الواقعة فإنه لم يذكر أصل زيارة جابر الأنصاري رضي الله عنه، كما لا يضر عدم ذكرها في المصادر التاريخية القديمة فإن أول من ذكر الزيارة هو صاحب (بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله) المتوفى بعد سنة ٥٥٣ هـ فإنه قد التزم الشيخ الطبري بأنني سميته بكتاب (بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله لشيعة المرتضى عليه السلام) ولا أذكر فيه إلا المسند من الأخبار عن المشايخ الكبار والثقاة الأخيار.. والشيخ الطبري وهو من تلاميذ ابن شيخ الطائفة الطوسي قدس سره في تلك الطبقة يمكن أن تقبل شهادته في التوثيق وأنها عن حس لا عن حدس واجتهاد. ومع هذا يمكن الاطمئنان إلى وثاقة من هم في سند هذه الرواية التي نقلها في كتابه.. فإنهم يتحدثون في علم الرجال في باب التوثيقات العامة عن كتاب (بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله) كواحد من الكتب التي تفيد وثاقة من ورد في أسانيد رواياته ـ إما كل من ورد في سلسلة السند كما لعله الأظهر باعتبار أن صاحب الكتاب وهو الضليع في هذا الفن يريد أن يصحح رواياته وهذا لا يتم إلا بالحكم بوثاقة من هم في السند جميعا وإما خصوص مشايخه على الخلاف المبحوث في بابه ـ =

عماد الدين محمد بن أبي القاسم محمد بن علي الطبري في كتابه بشارة المصطفى قصة الحادثة كما يلي:

أخبرنا الشيخ الأمين أبو عبدالله محمد بن شهريار الخازن بقراءتي عليه في مشهد مولانا أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في شوال سنة اثني عشرة وخمسمائة قال أملى علينا أبو عبدالله محمد بن محمد البرسي قال أخبرني أبو طاهر محمد بن الحسين القرشي المعدل قال حدثنا أبو عبدالله أحمد بن أحمد ابن حمران الأسدي قال حدثنا أبو أحمد اسحق بن محمد بن علي المقري قال

= كما ذكر الشيخ الجليل نجم الدين جعفر بن محمد بن جعفر أبي البقاء هبة الله بن نما الحلي وهو الشيخ الفقيه الذي كان من الفضلاء والأجلة وكبراء الدين والملة، عظيم الشأن جليل القدر، وأحد مشايخ آية الله العلامة... كما ذكر المحدث القمي في (الكنى والألقاب) وغيره في غيره والمتوفى سنة ٦٤٥هـ في كتابه مثير (الأحزان) ص ٧٦ طبع المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف بنحو الاختصار موضوع اللقاء بين جابر وبين ركب السبايا فقال ولما مر عيال الحسين بكربلا وجدوا جابر بن عبدالله الانصارى رضي الله عنه وجماعة من بنى هاشم قدموا لزيارته في وقت واحد فتلاقوا بالحزن والاكتئاب والنوح على هذا المصاب المقرح لأكباد الأحباب،.. وقد طبع هذا الكلام في حاشية مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف الأزدي ص٢٢٠.

وقد ذكر الموضوع أيضا السيد علي بن طاووس الحلي قدس سره المتوفى سنة ٦٦٤ هـ في كتابه اللهوف في صفحة ١٩٦ فقال: ولما رجع نساء الحسين عليه السلام وعياله من الشام وبلغوا العراق قالوا للدليل: مر بنا على طريق كربلاء ووصلوا إلى المصرع فوجدوا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه وجماعة من بني هاشم قد وردوا لزيارة قبر الحسين عليه السلام فوافوا في وقت واحد وتلاقوا بالبكاء والحزن واللطم.

ونحن لا نرى وجود مانع يمنع من الالتزام بالرواية المذكورة، فمن الناحية التاريخية كان دخول السبايا إلى الشام في أول يوم من صفر كما رواه الكفعمي والبهائي والمحدث الكاشاني وكان بقاؤهم في الشام خمسة أو سبعة أيام، ثم عودتهم إلى كربلاء ـ مع ملاحظة أن ذهابهم كان أكثر من ذلك لتوقفهم في الكوفة، ولأنهم كانوا يريدون التفرج عليهم في رحلة الذهاب بخلاف ذلك في رحلة العودة، وعلى أي حال فإن خمسة عشر يوما أو ثلاثة عشر يوما كافية للوصول إلى كربلاء في رحلة العودة.

حدثنا عبدالله قال حدثنا عبيد الله بن محمد بن الإيادي قال حدثنا عمر بن مدرك قال حدثنا يحيى بن زياد الملكي قال أخبرنا جرير بن عبدالحميد عن الأعمش عن عطية العوفي قال: خرجت مع جابر بن عبدالله الانصاري زائرين قبر الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فلما وردنا كربلا دنا جابر من شاطئ الفرات فاغتسل ثم اتزر بإزار وارتدى بآخر ثم فتح صرة فيها سعد فنثرها على بدنه ثم لم يخط خطوة إلا ذكر الله تعالى حتى إذا دنا من القبر قال المسنية فألمسته فخر عل القبر مغشيا عليه فرششت عليه شيئا من الماء فلما أفاق قال يا حسين ثلاثا ثم قال حبيب لا يجيب حبيبه ثم قال: وأنى لك بالجواب وقد شحطت أوداجك على أثباجك وفرق بين بدنك ورأسك فاشهد انك ابن خاتم النبيين وابن سيد المؤمنين وابن حليف التقوى وسليل الهدى وخامس أصحاب الكسا وابن سيد النقباء وابن فاطمة سيدة النساء وما لك لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين وربيت في حجر المتقين ورضعت من ثدي الإيمان وفطمت بالإسلام فطبت حياً وطبت ميتاً غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة لفراقك ولا شاكة في الخيرة لك فعليك سلام الله ورضوانه وأشهد انك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا.

ثم جال بصره حول القبر وقال: السلام عليكم أيتها الأرواح التي حلت بفناء الحسين وأناخت برحله وأشهد أنكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وجاهدتم الملحدين وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين والذي بعث محمدا بالحق نبيا لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

قال عطية: فقلت له يا جابر كيف ولم نهبط واديا ولم نعل جبلا ولم نضرب بسيف والقوم قد فرق بين رؤوسهم وأبدانهم وأوتمت أولادهم وأرملت أزواجهم فقال يا عطية سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من أحب قوماً حشر معهم ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم، والذي بعث محمداً بالحق نبياً إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام

وأصحابه. خذني نحو إلى أبيات كوفان فلما صرنا في بعض الطريق قال يا عطية هل أوصيك وما أظن أنني بعد هذه السفرة ملاقيك أحبب محب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أحبهم وابغض مبغض آل محمد ما أبغضهم وإن كان صواماً قواماً وارفق بمحب محمد وآل محمد فانه إن تزل له قدم بكثرة ذنوبه ثبتت له أخرى بمحبتهم فان محبهم يعود إلى الجنة ومبغضهم يعود إلى النار[1].

إلى المدينة:

أيام قلائل كانت النساء فيها في كربلاء على قبور الأحبة، يفرغن أحزانهن، وآلامهن، عندها نادى زين العابدين عليه السلام بالرحيل، أمام دهشة الجميع الذين كانوا يودون البقاء لفترة أطول، لكن بصيرة الإمام عليه السلام، والذي كان يرى أن البقاء هناك لن يطفئ نار الأسى بل ستزداد استعارا، وربما قضت على حاملها.. فكان يخشى على العقائل العلويات أن يمتن كمدا على القبور.

عادت النساء إلى المدينة ولسان حالهن:

مدينة جدنا لا تقبلينا فبالحسرات والأحزان جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعا رجعنا لا رجال ولا بنينا

خلفت الرباب وراءها سيد شباب أهل الجنة، ورضيعا احتضنته الأرض، بعد أن أرضعه الأعداء ثدي الموت وقمطوه بدم نحره. عادت الرباب إلى المدينة لتجد بيتها وقد هدمه الحقد الأموي فقد قام سعيد بن العاص الأموي بهدم عدد من بيوت بني هاشم، من بينها بيت الحسين الذي كانت تسكن فيه الرباب[2]. عادت ليس لها من أنيس إلا ذكرى كطيب الربيع من الحسين، ولا رفيق لها سوى الدموع التي لم تستطع أن تساير حجم

(١) بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لشيعة المرتضى عليه السلام، ص ٧٥.
(٢) شرح الأخبار للقاضي المغربي، ج٣ص٢٦٩.

الحزن في قلبها فجفت، أُعلمت أن السويق يدر الدمع، فأمرت أن يصنع لها السويق لاستدرار الدموع. وكانت ترثيه بقولها:

إن الذي كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط الرسول جزاك الله صالحة عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلا صعبا ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن يغني ويأوي إليه كل مسكين
والله لا أبتغي صهراً بصهركم حتى أغيب بين الرمل والطين

وفعلا فلم تكن تبتغي صهرا غير صهر النبي ﷺ، فقد خطبت بعد خروجها من عدتها، وكان جوابها: ما كنت لأبتغي حموا بعد رسول الله.

ظلت ذكرى الحسين تؤرق نفسها، وهي زادها من الدنيا!! هل رأيت كيف يكون الألم زادا؟ وكيف تكون المعاناة معونة؟.. ولم يكن الجسم الذي فارقت روحه الحسينية قالبه ليمكث كثيرا في الأرض، بل غادر لاحقا بروحه، محشورا مع الحسين عليه السلام، غادرت السحابة البيضاء[1] النقية سماء الدنيا بعد أن أمطرتها وفاءً وصفاءً، ماتت الرباب في السنة الثانية لشهادة سيد الشهداء..

فسلام عليها وعلى ابنتها سكينة، وعلى ابنها عبد الله المقتول المصعد بدمه إلى السماء.

---

(١) معنى رباب: السحاب الأبيض المحمل بالمطر.

٢- طوعة جارية الأشعث بن قيس

مليارات من البشر، عبروا قنطرة التاريخ من العدم إلى الفناء، مروا.. بعضهم رافق مروره على تلك القنطرة (مدة حياته) ضجيج وطبول، وبعضهم مروا بهدوء لم يشعر بهم حتى الأقربون وانسلوا بصمت، منهم من عشق الخير وعمل له، وسعى فيه ومنهم من يمثلهم قول الشاعر:

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

لكن الجميع قد رحلوا، وانتهى ذكرهم، وجاء غيرهم ورحل إنما الذي بقي من أولئك مواقفهم.

والعجيب أن الناس في مدة حياتهم يصرفون جهدهم ومالهم وينفقون عمرهم على ما لا يبقى في الذاكرين، ولا ينتفع به الناس، وينصرفون عن الباقي والخالد.. تلك الاختصاصات التي يحرصون عليها يفنيها التراب، ولا يهم أحداً ذكرها هي عند البعض خلاصة الحياة، فتراه يهتم بفرق شعره، وبطريقة لبس هذا الثوب أو ذاك، ويسعى برهة من الزمان لتغيير رقم هاتفه مثلاً ليكون متشابهاً أو متسلسلاً، ويصرف أموالاً طائلة ليكون لون سيارته بهذا النحو تماماً لا بغيره ويغرق في تفاصيل التفاصيل، وكم يصرف من عمره لأجل ذلك!! لكن هذه لا تلبث أن تنتهي بنهايته فلا يعود يذكرها أحد، ولا تنفعه في غد.

ويعقل آخرون معنى الحياة، وأن هذه المدة ليست إلا مؤقتة (فاعبروها

ولا تعمروها)، وأنها ليست سوى مدة قصيرة، لا تستوعب الاهتمام بالصغائر والتفاصيل، بل على المرء أن يبادر بسرعة لمعرفة الاتجاه الصحيح، فيعمل فيها بجد ومثابرة، ولن يترك له الأجل مزيداً من الوقت، فليملأها بالعمل الصالح والمواقف الطيبة.

ولا يختلف في ما سبق الرجل والمرأة، والسيد والعبد، والعربي والمولى.. فمن يفهم المعادلة يصعد، ومن ينشغل في التوافه، والأمور الصغيرة ينته إلى الكارثة، عندما يجد نفسه، وقد أنفق المال وأهم منه العمر فيما لا ينفع، فكأنها كانت بيوت رمل لعب بها الأطفال على ساحل البحر حتى إذا جاءت الموجة لم تبق منها حتى الأثر!!

وحكم الزمان عادل، فإذا كان يمكن خداع أهله لمدة من الوقت بمظاهر كاذبة إلا أن ذلك لا يستمر طويلا.. تبقى المواقف الطيبة إضمامة عطر يتضوع، وإشراقة نور يتموج، و﴿**هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾. تنتصب كعمود ضياء في أفق الدهر، لا يعتريها الليل، ولا يستبد بها الظلام.

بينما تُسجل مواقف الخائنين والكاذبين والظالمين، علامة على مدى الإسفاف، الذي يمكن أن ينحدر إليه كائن إنساني فـ﴿**يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾. وهذه أولى المحاكم التي تنصب، قبل محكمة العدل الإلهي الكبرى في يوم القيامة..

ولو أردت نموذجاً يبين لك الصورتين، فستجده في حياة المرأة الصالحة طوعة..

من هي طوعة؟ علو النسب والانتماء إلى هذه القبيلة هو من الأمور التي تسفك فيها الدماء، وتتسبب في الحروب، ولكن ذلك في ميزان القيامة لا قيمة له إذ «كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي»[1] كما

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧ ص٢٣٨.

روي عن رسول الله ﷺ. لم يعرف عنها إلا أنها كانت جارية للأشعث بن قيس، وهو النموذج المقابل تماما لهذه المرأة.

الأشعث بن قيس من زعماء كندة!! وهذا اللقب (زعيم) هو الذي يدير الرؤوس، وكل ما فعله في حياته لصيانة هذا اللقب!! ألم أذكر لك عزيزي القارئ، أن من الناس من يستفرغ حياته في ما لا يبقى؟ لعب الرجل بالسياسة والدين، وقامر بالمواقف والمذهب!! ولم يكن مهما عنده أن يرتد منقلبا على عقبه عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ليحقق زعامته المطلقة على قومه!! ثم لم يبال أن يدل على قومه السيف ليصون وضعه مع الخليفة الجديد! وأن يتزوج ويزوج.. فهذه السوق يجوز فيها كل شيء ما دام الغرض هو الوصول إلى زعامة اليمن! بل ليس مهما عنده أن تضيع الرسالة في صراع على الرئاسة ولأجل تقديم الولاء القبلي، و«لئن يحكما فينا ببعض ما نكره وأحدهما من اليمن يقصد أبا موسى الأشعري أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان»!!

ليس مهما أن يتغلب الخبث العاصي على السذاجة الأشعرية، فينتجا ضعفا في كيان الإسلام، وخلافة أمير المؤمنين عليه السلام، إنما المهم عند الأشعث أن تكون القبيلة هي المتقدمة، وزعيمها نافذ الكلمة فيها، ثم ليذهب غير ذلك إلى الدمار. ولقد رسم أمير المؤمنين عليه السلام صورة ناطقة لهذا الرجل عندما قال له: عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى فما فداك من واحدة منهما مالك ولا نسبك، وإن امرأ دل على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحري أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد»[1].

وساقه هم نفسه، وشهوات ذاته، وأموره الصغيرة الأخرى، إلى شق معسكر الإمام، وتكوين الخوارج، وبعدها شارك في التآمر مع ابن ملجم

(١) الإمام علي، نهج البلاغة.

المرادي على قتل أمير المؤمنين عليه السلام.

هذا الشخص المفتخر بأموره الصغيرة، والتي يراها كبيرة في عينه، ويتوقع أن يراها الآخرون كذلك، وربما فعل بعض الغافلين ذلك وقالوا ﴿**يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ**﴾، إلا أن الرساليين وأولو الألباب لا يرون في ذلك ميزة، ولا لونا ولا رائحة، ولهذا لما قال الأشعث لأمير المؤمنين عليه السلام: غلبتنا هذه الحمراء يقصد الموالي غير العرب عليك.. غضب منه الإمام وقال: من يعذرني من هؤلاء الضياطرة؟؟ أي ضخام الجثة والذي لا نفع فيهم يتخلف أحدهم يتقلب على فراشه وحشاياه كالبعير، ويهجر هؤلاء للذكر.. أطردهم! إني إذن لمن الظالمين.

أراد الرجل أن يشتري بسمنة جسمه، وما نسجته أضراسه على هيكله من شخصية، وما اشتراه من (شرف) الثياب، والعباءة، موقعا متقدما على المؤمنين، الذي لم يكن لهم من (ميزات) النسب في عرف الجاهليين شيء يذكر، لم يكن نسبهم غير الإسلام، ولا شرفهم غير التقوى، كانوا موالي.. غير عرب، فجدوا لكي يصنعوا بأعمالهم لهم شرفاً، وحسباً ونسباً، وتخلف هؤلاء الذين يدعون الشرف القبلي، والذين لا يعتنون بغير الأفخاذ والعشائر، فكان أن صار «سلمان منا أهل البيت» بينما ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾.

وسبحان الله، فإن الرجل الذي كان يتميز غيظا من الموقع الذي اختص به الحمراء، والموالي، والجواري، بعملهم، بينما قصر به عمله، كانت له جارية اسمها طوعة، من أولئك الذين لا همّ لهم في التشرف بالنسب والعظام البالية، ومن الذين اعتبروا في عرف السادة العرب، ذوي درجات دانية في السلم الاجتماعي، هذه المرأة يقدر لها وعيها، وحسن موقفها، أن تدخل التاريخ فاتحة، مغبوطة، وأن تكون (الرجل) الوحيد بين ألوف (النساء) من رجال أهل الكوفة (العبارة ليست خطأ!!). أعتقها الأشعث بعدما كانت مملوكة له، وليته أعتق بدلا من جاريته نفسه من شحها،

وبخلها، وجهلها، وشهواتها.

طوعة التي لا نعرف عن نسبها الكثير، تزوجت بعد أن أعتقها من بقي في رق نفسه، فتزوجها رجل يقال له أسيد الحضرمي.. من هو أسيد زوجها؟ لا يبدو أنه من غير الكم المهمل في التاريخ، فلا ينقل عنه شيء استثنائي من موقف أو غيره، وأنجبت منه ولدا يقال له بلال.. لم يذكره التاريخ إلا بلعنة التجسس، والعمل عند الظالمين، وشراء الدين بثمن بخس.. لا أول له، ولا آخر، وإذا ذكر فإنما يذكر باللعنة! وفي هذا عبرة، فلا شك أنه عاش مدة من الزمان، وأكل وشرب، وتزوج، وصادق أناسا، وفارق آخرين، وكسب مالا وخسر غيره، ولبس من الثياب، وسعى هنا وهناك، لكن هذه الأمور كلها تنتهي، ويبقى للإنسان موقفه، فيبقى به درسا للأجيال كما كانت أمه طوعة، أو لعنة على الأفواه كما كان هو.

وكانت طوعة على موعد مع الخلود، والجنة حين اختارت لنفسها نصرة الحق، وإيواء مسلم بن عقيل سفير الحسين ورسوله إلى الكوفة، بعدما تخاذل «أسود الشرى في الدعة، والثعالب الرواغة حين البأس»، أسماء أفنت حياتها في التوافه.. الشرف المشترى بالملابس الفاخرة!! والحسب المأخوذ بالانتماء الاجتماعي!! وهياكل الأجساد التي تخبئ تحتها قلوبا بلا موقف، وأدمغة بلا بصيرة.. كل تلك صنعت فاجعة الهزيمة، وانتصر باطل ابن زياد على قلة عدده على جموع أهل الكوفة، وفيهم كما تقول الأخبار (الأشراف) والعدد الكبير!!

وإذا كانت كل تلك الجموع قد خرجت من الذاكرة، إما نهائيا وإما خرجت تشيعها لعنة المواقف الخائنة للرسالة، فإن اسما ظل مكتوبا بأحرف من نور على جبين الدهر، لامرأة علمت التاريخ أن الصورة الخارجية، والعنوان العام للإنسان (كونه أنثى أو ذكراً) ليس هو الذي يصنع له المجد، وإنما الموقف الذي يتخذه من الحق والباطل..

نعم بعدما سقط من يملكون (أدوات الرجولة)، أمام الخوف، والطمع.. كان لهذه المرأة موقف وأي موقف. ولكي تطلع عزيزي القارئ على الجو العام الذي ساد في الكوفة وهي تمخض بالحوادث، بعد قدوم مسلم ابن عقيل إليها رسولا من الحسين عليه السلام، ومبايعة الناس له ثم مجيء عبيد الله بن زياد واليا من قبل يزيد، ليستلم من النعمان بن بشير إمارة الكوفة، والصراع الذي دار بين ذوي الأهواء الأموية، وعبدة الطاغوت والساجدين للسلطان أيًّا كان من جهة، وبين أصحاب المواقف الذين ناصروا مسلما ودفعوا حياتهم القصيرة ثمنا لحياتهم الدائمة، وربح بيعهم كهاني بن عروة، وأصحاب الدين والجهاد كشريك الأعور.. وبين هؤلاء وهؤلاء ترى مواقف الأكثرية عندما تفكر في عاجلها، وتنسى مستقبلها، عندما تنهزم أمام الباطل نقدا وتريد أن تنصر الحق نسيئة!! عندما يختلف ما في قلوبها عما على سيوفها، وعندما تفكر في صغائر الأمور فتسقط من التاريخ والجغرافيا، والحاضر والمستقبل..

دعنا نستمع إلى الأزدي لوط بن يحيى، المؤرخ الذي عاصر الأحداث[1]:
ها هو ابن زياد قد أقبل إلى الكوفة متخفيا تحت عمامة حجازية وعباءة يمنية، ودخل قصر الإمارة عازلا النعمان بن بشير، ومسلم بن عقيل في بيت هانئ بن عروة زعيم مذحج، وأحد رجال المواقف البطولية، وبدأ عبيد الله بما لديه من طرق المكر والخبث والكذب يحاول السيطرة على الكوفة، فرأى أول شيء أن يعتقل هانئ بن عروة المرادي، حيث كان بيته بمثابة محل قيادة للعمل الحسيني. فجمع أصحابه و« قال لهم: ما يمنع هانئ بن عروة من إتياننا قالوا: ما ندري أصلحك الله وانه ليشتكي قال: قد بلغني انه قد برأ وهو يجلس على باب داره فالقوه فمروه ألا يدع ما عليه في ذلك من الحق فإني لا أحب أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب فأتوه حتى وقفوا عليه

(١) وسوف نستغني عن ذكر بعض أسانيده، ونقتصر على أصل الخبر، ونشير إليه بين هلالين.

عشية وهو جالس على بابه فقالوا: ما يمنعك من لقاء الأمير فانه قد ذكرك وقد قال: لو أعلم أنه شاك لعدته فقال لهم: الشكوى يمنعني فقالوا له: يبلغه انك تجلس كل عشية على باب دارك وقد استبطأك والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان أقسمنا عليك لما ركبت معنا. فدعا بثيابه فلبسها ثم دعا ببغلة فركبها حتى إذا دنا من القصر كان نفسه أحست ببعض الذي كان فقال لحسان بن أسماء بن خارجة: يا بن أخي إني والله لهذا الرجل لخائف فما ترى قال: أي عم والله ما أتخوف عليك شيئاً ولم تجعل على نفسك سبيلاً وأنت بريء وزعموا أن أسماء لم يعلم في أي شيء بعث إليه عبيدالله فأما محمد فقد علم به. فدخل القوم على ابن زياد ودخل معهم فلما طلع قال عبيدالله أتتك بخائن رجلاه وقد عرس عبيدالله إذ ذاك بأم نافع ابنه عمارة بن عقبة فلما دنا من ابن زياد وعنده شريح القاضي التفت نحوه فقال:

أريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وقد كان له أول ما قدم مكرماً ملطفاً. فقال له هاني: وما ذاك أيها الأمير قال: إيه يا هاني بن عروة ما هذه الأمور التي تربص في دورك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك وظننت أن ذلك يخفى علي؟؟

قال: ما فعلت وما مسلم عندي!

قال: بلى قد فعلت. قال: ما فعلت. قال: بلى.

فلما كثر ذلك بينهما وأبى هاني إلا مجاحدته ومناكرته دعا ابن زياد معقلا ذلك العين فجاء حتى وقف بين يديه فقال: تعرف هذا؟ قال: نعم. وعلم هانئ عند ذلك انه كان عينا عليهم وانه قد أتاه بأخبارهم فسقط في خلده ساعة ثم إن نفسه راجعته فقال له: اسمع مني وصدق مقالتي فوالله لا أكذبك والله الذي لا اله غيره ما دعوته إلى منزلي ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالسا على بابي فسألني النزول علي فاستحييت من رده ودخلني

من ذلك ذمام فأدخلته داري وضفته وآويته وقد كان من أمره الذي بلغك فإن شئت أعطيت الآن موثقاً مغلّظاً وما تطمئن إليه إلا أبغيك سوءاً وإن شئت أعطيتك رهينة تكون في يدك حتى آتيك وانطلق إليه فآمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض فاخرج من ذمامه وجواره.

فقال: لا والله لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به.

فقال: لا والله لا أجيئك به أبداً أنا أجيئك بضيفي تقتله قال والله لتأتيني به. قال: والله لا آتيك به.

فلما كثر الكلام بينهما قام مسلم بن عمرو الباهلي وليس بالكوفة شامي ولا بصري غيره فقال: أصلح الله الأمير خلني وإياه حتى أكلمه لما رأى لجاجته وتأبيه على ابن زياد أن يدفع إليه مسلما فقال لهانئ: قم إلى هاهنا حتى أكلمك فقام فخلا به ناحية من ابن زياد وهما منه على ذلك قريب حيث يراهما إذا رفعا أصواتهما سمع ما يقولان وإذا خفضا خفي عليه ما يقولان.

فقال له مسلم: يا هاني إني أنشدك الله أن تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك فوالله إني لا نفس بك عن القتل وهو يرى أن عشيرته ستحرك في شأنه أن هذا الرجل ابن عم القوم وليسوا قاتليه ولا ضائريه فادفعه إليه فإنه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة إنما تدفعه إلى السلطان.

قال: بلى والله إن عليَّ في ذلك للخزي والعار أنا ادفع جارى وضيفي وأنا حي صحيح اسمع وأرى شديد الساعد كثير الأعوان والله لو لم أكن إلا واحداً ليس لي ناصراً لم ادفعه حتى أموت دونه فاخذ يناشده وهو يقول والله لا ادفعه إليه أبداً.

فسمع ابن زياد ذلك فقال: أدنوه مني، فأدنوه منه، فقال: والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك!

قال: إذاً تكثر البارقة حول دارك.

فقال: وا لهفاً عليك، أبالبارقة تخوفني، وهو يظن أن عشيرته سيمنعونه.

فقال ابن زياد: أدنوه مني فأدنى فاستعرض وجهه بالقضيب فلم يزل يضرب انفه وجبينه وخده حتى كسر انقه وسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيب وضرب هاني بيده إلى قائم سيف شرطي من تلك الرجال وجابذه الرجل ومنع فقال عبيدالله احروری سائر اليوم أحللت بنفسك قد حل لنا قتلك خذوه فالقوه في بيت من بيوت الدار وأغلقوا عليه بابه واجعلوا عليه حرساً ففعل ذلك به »[(١)].

هاهو السيناريو المتكرر في كل الأدوار التاريخية، سلطان يتوسل بالجواسيس من جهة، ويخادع ذوي (الشرف) المصنوع، فيتوهمون أن لهم منزلة عنده، وأن لهم كلمة يمكن أن يعتمد عليها، وما علموا لفرط إعظامهم لأنفسهم، أنه لا وفاء له غير الوفاء لملكه، ولا كلمة تعجبه غير استكانة من تحته، ولا شيء يهمه كعرشه.. هو الذي لا يهتم بكلمات الله وقوانينه، كيف يهتم بكلمات رعيته، والمرتزقين على بابه؟

يسعى هؤلاء للوساطة، ويحاولون إقناع أهل الحق بالتنازل عن قضاياهم، انظر إلى طريقة حديث مسلم الباهلي الدلال والسمسار.. ليس غريبا عليه أن يعزف تارة على وتر (حياته) وأنه سيقتل، وأنه يخاف عليه من ذلك، ويخاف على عشيرته، وعلى زعامته إياها.. فمن الأفضل له أن يسلّم مسلماً إلى ابن زياد.. ثم إن ابن زياد لن يصنع به شيئا، وإنما سيطلبه لكي يكرمه وليس بضائره.. هكذا في عرف هؤلاء الدلالين كل شيء يجوز في هذه السوق التجارية، الكذب والخديعة وتزوير الحقائق وبيع الدين.!! ولنفرض أن الأمر يجر إلى إيذائه فما في ذلك؟ إنما هو سلطان ودفع المجرم إلى السلطان

(١) الأزدي، مقتل الحسين عليه السلام.

لا ضير فيه!! أرأيت كيف تكون المغالطة؟

«فقام إليه أسماء بن خارجة فقال: أرسل غدر سائر اليوم أمرتنا أن نجيئك بالرجل حتى إذا جئناك به وأدخلناه عليك هشمت وجهه وسيلت دمه على لحيته وزعمت انك تقتله؟!.

فقال له عبيدالله: وإنك لهاهنا فأمر به فلهز وتعتع به ثم ترك فحبس.

وأما محمد بن الأشعث فقال: قد رضينا بما رأي الأمير لنا كان أم علينا إنما الأمير مؤدب.

وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئاً قد قتل فاقبل في مذحج حتى أحاط بالقصر ومعه جمع عظيم ثم نادى أنا عمرو بن الحجاج هذه فرسان مذحج ووجوهها لم تخلع طاعة ولم نفارق جماعة.

وقد بلغهم أن صاحبهم يقتل فاعظموا ذلك فقيل لعبيدالله: هذه مذحج بالباب فقال لشريح القاضي ادخل على صاحبهم فانظر إليه ثم اخرج فأعلمهم انه حي لم يقتل وانك قد رأيته فدخل إليه شريح فنظر إليه.

قال شريح: دخلت على هاني فلما رآني قال: يا الله يا للمسلمين أهلكت عشيرتي؟؟ فأين أهل الدين وأين أهل المصر تفاقدوا يخلوني وعدوهم وابن عدوهم؟؟ والدماء تسيل على لحيته إذ سمع الرجة على باب القصر وخرجت واتبعني فقال:

يا شريح إني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين إن دخل على عشرة نفر انقذوني.

قال فخرجت إليهم ومعي حميد بن بكر الأحمري أرسله معي ابن زياد وكان من شرطه ممن يقوم على رأسه وأيم الله لولا مكانه معي لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به فلما خرجت إليهم قلت: إن الأمير لما بلغه مكانكم

ومقالتكم في صاحبكم امرني بالدخول إليه فأتيته فنظرت إليه فأمرني أن ألقاكم وأن أعلمكم أنه حي وأن الذي بلغكم من قتله كان باطلاً.

فقال عمرو وأصحابه: فأما إذ لم يقتل والحمد لله ثم انصرفوا».

وهكذا قام الباهلي بدوره في المرحلة الأولى ومن معه كمحمد بن الأشعث حتى إذا انتهى دورهم رماهم كعقب السيجارة من دون تأمل فيما أعطاهم من (مواثيق)!!، وجاء دور القضاة المرتزقة واللابسون قفطان الدين ليخذلوا الجمهور.. وهل قضى على الدين الحقيقي غير بلعم بن باعوراء وأمثاله المنسلخين عن آيات الله والمتصلين بآلات الشهوات؟؟ ولا يغرنك مقالته أنه لولا مكان حميد الأحمري لأبلغ أصحابه بما أراد هانئ، فإن ذلك من التزوير على الناس أيضا، وهو صناعة هذا الصنف من فقهاء السلاطين، فهم يريدون رضى الناس ورضى السلطان، ويريدون الدين ويحبون الدنيا، ويؤيدون الحكم الطاغي اليزيدي وأيضا يتمنون أن يحظوا لدي الثائرين عليه.. وهذه مما لا تجتمع في بعض المواقف. نعم يفيدنا ذلك علما أن ابن زياد كان يعلم بعدم الإخلاص عند هؤلاء، وأنهم باعة، يبيعون في السوق ما ينفق فيها، لذلك بعثه معه تهديدا له وتجسسا عليه.

«ثم لما ضرب عبيدالله هانئاً وحبسه خشي أن يثب الناس به فخرج فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطه وحشمه فحمد الله وأثنى عليه.

ثم قال: أما بعد أيها الناس فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتجفوا وتحرموا، إن أخاك من صدقك وقد أعذر من أنذر.

قال: ثم ذهب لينزل فما نزل عن المنبر حتى دخلت النظارة المسجد من قبل التمارين يشتدون ويقولون: قد جاء ابن عقيل قد جاء ابن عقيل فدخل عبيدالله القصر مسرعاً وأغلق أبوابه قال أبو مخنف: حدثني يوسف بن يزيد عن عبدالله بن حازم قال: أنا والله رسول ابن عقيل إلى القصر لأنظر إلى ما

صار أمر هانئ قال: فلما ضرب وحبس ركبت فرسي وكنت أول أهل الدار دخل على مسلم بن عقيل بالخبر وإذا نسوة لمراد مجتمعات ينادين يا عثرتاه يا ثكلاه!!

فدخلت على مسلم بن عقيل بالخبر فأمرني أن أنادي في أصحابه وقد ملأ منهم الدور حوله وقد بايعه ثمانية عشر ألفاً وفي الدور أربعة آلاف رجل فقال لي: ناد يا منصور أمت.. وناديت يا منصور أمت!! وتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه.

فعقد مسلم لعبيدالله بن عمرو بن عزير الكندي على ربع كندة وربيعة وقال: سر أمامي في الخيل ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وأسد وقال انزل في الرجال فانت عليهم وعقد لابن ثمامة الصائد على ربع تميم وهمدان وعقد لعباس ين جعدة الجدلي على ربع المدينة ثم اقبل نحو القصر فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز في القصر وغلق الأبواب.

قال أبو مخنف حدثني يوسف بن أبي إسحاق عن عباس الجدلي قال: خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف فلما بلغنا القصر إلا ونحن ثلاثمائة قال: واقبل مسلم يسير في الناس من مراد حتى أحاط بالقصر، ثم إن الناس تداعوا إلينا واجتمعوا فوالله ما لبثنا إلا قليلاً حتى امتلأ المسجد من الناس والسوق وما زالوا يثوبون حتى المساء فضاق بعبيدالله ذرعه وكان كبر أمره أن يتمسك بباب القصر ليس معه إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الرومين وجعل من بالقصر مع ابن زياد يشرفون عليهم فينظرون إليهم فيتقون أن يرموهم بالحجارة وان يشتموهم وهم لا يفترون على عبيدالله وعلى أبيه ودعا عبيدالله كثير بن شهاب بن حصين الحارثي فأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج فيسير بالكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم الحرب ويحذرهم عقوبة السلطان وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع رأيه

أمان لمن جاءه من الناس وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبحر العجلي وشمر بن ذي الجوشن العامري وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لقلة عدد من معه من الناس وخرج كثير بن شهاب يخذل الناس عن ابن عقيل.

قال أبو مخنف فحدثني ابن جناب الكلبي أن: كثيراً لقي رجلاً من كلب يقال له عبد الأعلى بن يزيد قد لبس سلاحه يريد ابن عقيل في بني فتيان فأخذه حتى أدخله على ابن زياد فاخبره خبره فقال لابن زياد: إنما أردتك، قال: وكنت وعدتني ذلك من نفسك فأمر به فحبس وخرج محمد بن الأشعث حتى وقف عند دور بنى عمارة وجاءه عمارة بن صلخب الأزدي وهو يريد ابن عقيل عليه سلاحه فأخذه فبعث به إلى ابن زياد لحبسه فبعث ابن عقيل إلى محمد بن الأشعث من المسجد عبدالرحمان بن شريح الشبامي فلما رأى محمد بن الأشعث كثرة من أتاه أخذ يتنحى ويتأخر وأرسل القعقاع بن شور الذهلي إلى محمد الأشعث قد حلت على ابن عقيل من العرار فتأخر عن موقفه. فأقبل حتى دخل على ابن زياد من قبل دار الروميين فلما اجتمع عند عبيدالله كثير بن شهاب ومحمد والقعقاع فيمن أطاعهم من قومهم فقال له كثير وكانوا مناصحين لابن زياد: اصلح الله الأمير معك في القصر ناس كثير من أشراف الناس ومن شرطك وأهل بيتك ومواليك.

فاخرج بنا إليهم فأبى عبيدالله وعقد لشبث بن ربعي لواءا فأخرجه. وأقام الناس مع ابن عقيل يكبرون ويثوبون حتى المساء وأمرهم شديد فبعث عبيدالله إلى الأشراف فجمعهم إليه ثم قال: اشرفوا على الناس فمنوا أهل لطاعة الزيادة والكرامة وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة وأعلموهم فصول الجنود من الشام إليهم. فتكلم كثير بن شهاب أول الناس حتى كادت الشمس أن تجب فقال: أيها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر ولا تعرضوا أنفسكم للقتل فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت

وقد أعطى الله الأمير عهداً لئن أتممتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع وأن يأخذ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب حتى لا يبقى له فيكم بقية من الله المعصية إلا أذاقها وبال ما جرت أيديها وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا فلما سمع مقالتهم الناس اخذوا ينصرفون».

ها أنت ترى بوادر الانكسار، وتراجع المجتمع عن حقه وركونه إلى صغائر أموره، وها أنت ترى كيف يبيع (الضياطرة) كما سماهم أمير المؤمنين عليه السلام كرامة الناس، ودين الله، وأهداف الثورة الحسينية، من أجل أن يحصلوا على حطام من الاحترام، وفتات من التكريم، لن يصل إليهم. لأن المهمات تتابع، والبيع لا يقف عند حد، فهذا اليوم يطلب منهم التخذيل، وغدا سيطلب منهم الشخوص لحرب الحسين ولن يستطيع أحد منهم التخلف حتى لو كان على غير قناعة بالقتال، أو كان يحب البقاء فإن حبل هؤلاء مشدود آخره بيد السلطان، ولن يرخيه حتى يستنزفهم بالكامل، وهذا ما علمه عمر بن سعد متأخرا، فلم يحصل على الري، ولا على الزعامة في الكوفة، وهكذا ﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾.

هل تجد لهذه الأسماء التي ذكرت آنفا شيئا من الدنيا؟؟ دع عنك الآخرة فهم لم يعملوا لها.

قال أبو مخنف فحدثني المجالد بن سعيد أن المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول. انصرف الناس يكفونك ويجيء الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول غدا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر انصرف فيذهب به فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفسا في المسجد حتى صليت المغرب فما صلى مع ابن عقيل إلا ثلاثون نفساً فلما رأى انه قد أمسى وليس معه إلا أولئك النفر خرج متوجها نحو أبواب كندة فلما بلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان والتفت

فإذا هو لا يحس أحداً يدله على الطريق ولا يدله على منزل ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو فمضى على وجهه يتلدد في أزقة الكوفة لا يدرى ابن يذهب حتى خرج إلى دور بنى جبلة من كندة فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها: طوعة أم ولد كانت للأشعث بن قيس فاعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالاً. وكان بلال قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظره فسلم عليها ابن عقيل فردت عليه فقال لها: يا أمة الله اسقيني ماءا فدخلت فسقته فجلس وأدخلت الإناء ثم خرجت فقالت: يا عبدالله ألم تشرب قال: بلى قالت: فاذهب إلى أهلك فسكت ثم عادت فقالت مثل ذلك فسكت ثم قالت له: في لله سبحان الله يا عبدالله فمر إلى اهلك عافاك الله فانه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا أحله لك. فقام فقال: يا أمة الله مالي في هذا المصر منزل ولا عشيرة فهل لك إلى أجر ومعروف ولعلي مكافئك به بعد اليوم فقالت يا عبدالله وما ذاك قال: أنا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء القوم وغروني قالت أنت مسلم قال: نعم قالت: ادخل فأدخلته بيتا في دارها غير البيت الذي تكون فيه وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعش ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرآها تكثر الدخول في البيت والخروج منه فقال: والله ليريبني كثرة دخولك هذا البيت منذ الليلة وخروجك منه إن لك لشأناً.

قالت يا بني: اِلْهُ عن هذا، قال لها: والله لتخبرني قالت: أقبل على شأنك ولا تسألني عن شيء، فألح عليها، فقالت: يا بني لا تحدثن أحداً من الناس بما أخبرك به وأخذت عليه الأيمان فحلف لها فأخبرته فاضطجع وسكت زعموا أنه قد كان شريداً من الناس. وقال بعضهم: كان يشرب مع أصحاب له.

ولما طال على ابن زياد وأخذ لا يسمع لأصحاب ابن عقيل صوتا كان يسمعه قبل ذلك قال لأصحابه: أشرفوا فانظروا هل ترون منهم أحداً فأشرفوا فلم يروا أحداً قال: فانظروا لعلهم تحت الظلال قد كمنوا لكم

ففرعوا بحابح المسجد وجعلوا يخفضون شعل نار في أيديهم ثم ينظرون هل في الظلال أحد وكانت أحياناً تضيء لهم وأحيانا لا تضيء لهم كما يريدون فدلوا القناديل وانصاف الطنان تشد بالحبال ثم تجعل فيها النيران ثم تدلى حتى تنتهي إلى الأرض ففعلوا ذلك في أقصى الظلال وأدناها وأوسطها حتى فعلوا ذلك بالظلة التي فيها المنبر. فلما لم يروا شيئا اعلموا ابن زياد ففتح باب السدة التي في المسجد ثم خرج فصعد المنبر وخرج أصحابه معه فأمرهم فجلسوا حوله قبيل العتمة وأمر عمرو بن نافع فنادى إلا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء أو المناكب أو المقاتلة صلى العتمة إلى في المسجد فلم يكن له إلا ساعة حتى امتلاء المسجد من الناس ثم أمر مناديه فأقام الصلاة. فقال الحصين بن تميم: إن شئت صليت بالناس أو يصلي بهم غيرك ودخلت أنت فصليت في القصر فإني لا آمن أن يغتالك بعض أعدائك فقال مر حرسي فليقوموا ورائي كما كانوا يقفون ودُر فيهم فإني لست بداخل إذاً مصلٍّ بالناس.

ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فان ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ومن جاء به فله ديته اتقوا الله عباد الله والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً يا حصين ابن تميم ثكلتك أمك إن صاح باب سكة من سكك الكوفة أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصدة على أفواه السكك وأصبح غداً واستبر الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل وكان الحصين على شرطه وهو من بني تميم.

ثم نزل ابن زياد فدخل وقد عقد لعمرو بن حريث راية وأمره على الناس فلما اصبح جلس مجلسه وأذن للناس فدخلوا عليه واقبل محمد بن الأشعث فقال: مرحباً بمن لا يستغش ولا يتهم، ثم أقعده إلى جنبه وأصبح ابن تلك العجوز وهو بلال بن أسيد الذي آوت أمه ابن عقيل فغدا إلى

عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث فأخبره بمكان ابن عقيل عند أمه.

قال: فاقبل عبدالرحمن حتى أتى أباه وهو عند ابن زياد فساره فقال له ابن زياد: ما قال لك؟ قال: أخبرني أن ابن عقيل في دار من دورنا فنخس بالقضيب في جنبه ثم قال: قم فأتني به الساعة.

قال أبو مخنف: فحدثني قدامة بن سعيد بن زائدة بن قدامة الثقفي: أن ابن الأشعث حين قام ليأتيه بابن عقيل بعث إلى عمرو بن حريث وهو في المسجد خليفته على الناس أن ابعث مع ابن الأشعث ستين أو سبعين رجلاً كلهم من قيس وإنما كره أن يبعث معه قومه لأنه قد علم أن كل قوم يكرهون أن يصادف فيهم مثل ابن عقيل فبعث معه عمرو بن عبيدالله بن عباس السلمي في ستين أو سبعين من قيس حتى أتوا الدار التي فيها ابن عقيل.

فلما سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنه قد أتي فخرج إليهم بسيفه واقتحموا عليه الدار فشد عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ثم عادوا إليه فشد عليهم كذلك.

فاختلف هو وبكير بن حمران الأحمري ضربتين فضرب بكير فم مسلم فقطع شفته العليا واشرع السيف في السفلى ونصلت لها ثنيتاه فضربه مسلم ضربة في رأسه منكرة وثنى بأخرى على حبل العاتق كادت تطلع على جوفه فلما رأوا ذلك اشرفوا عليه من فوق ظهر البيت فاخذوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في أطنان القصب ثم يقبلونها عليه من فوق البيت فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتاً بسيفه في السكة فقاتلهم فاقبل عليه محمد بن الأشعث فقال: يا فتى لك الأمان لا تقتل نفسك، فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أقتل إلا حرّا وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
كل امرئ يوماً ملاق شرّا ويخلط البارد سخناً مرا

رد شعاع الشمس فاستقرا   أخاف أن أكذب أو أغرا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تكذب ولا تخدع ولا تغر، إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك. وقد أثخن بالحجارة وعجز عن القتال وانبهر، فأسند ظهره إلى جنب تلك الدار فدنا محمد بن الأشعث فقال: الأمان فقال: آمن أنا؟ قال: نعم، وقال القوم: أنت آمن غير عمرو بن عبيدالله بن العباس السلمي فإنه قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل وتنحى.

وقال ابن عقيل: أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم وأتي ببغلة فحمل عليها واجتمعوا حوله وانتزعوا سيفه من عنقه فكأنه عند ذلك آيس من نفسه فدمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر، قال محمد بن الأشعث: أرجو إلّا يكون عليك بأس، قال: ما هو إلا الرجاء، أين أمانكم؟ إنا لله وإنا إليه راجعون، وبكى. فقال له عمرو بن عبيدالله بن عباس: إن من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك، قال: إني والله ما لنفسي أبكي ولا لها من القتل أرثي وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفاً. ولكن أبكي لأهلي المقبلين إلي، أبكي لحسين وآل حسين ثم أقبل على محمد ابن الأشعث فقال: يا عبدالله إني أراك والله ستعجز عن أماني فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلغ حسيناً فإني لا أراه إلّا قد خرج إليكم اليوم مقبلاً أو هو خرج غداً هو وأهل بيته، وإن ما ترى من جزعي لذلك. فيقول: إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير، لا يرى أن تمشي حتى تقتل، وهو يقول: ارجع بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي فقال ابن الأشعث: والله لأفعلن ولأعلمن ابن زياد إني قد أمنتك ».

ولأنت عزيزي القارئ تستطيع أن ترصد الأجيال الثلاثة في عائلة الأشعث، فالأب هو الأشعث بن قيس، رجل دخل سوق البورصة السياسية، فكان يتاجر بكل شيء لأجل زعامة اليمن، بالكفر مرة وبالإسلام

أخرى وبالارتداد ثالثة، وبدم أصحابه رابعة، وبشق معسكر أمير المؤمنين خامسة، وبتأسيس الخوارج وبقتل علي عليه السلام.. في سبيل هدف الزعامة والرئاسة لا يهم نوعية الوسيلة التي تستخدم!! كم من الأرواح قد ذهبت في هذه المدة القاتمة التي تشكل عمره، ليس مهما..

ومحمد بن الأشعث، يتآمر على هانئ بن عروة المرادي المذحجي، وهو من عرب اليمن أيضاً لو كان يريد التفكير بمنطق القبيلة، فيأتي به حتى يسلمه إلى ابن زياد ليشتر وجهه ويعترض أنفه بحديد حتى يهشمه، (هل كان هناك صراع زعامة أيضا وكان يطمح إلى أن يكون زعيم مذحج؟) حتى إذا اعترض أسماء بن خارجة لأنه لم يعلم بالمخطط المرسوم، أدلى له بعذر بارد وهو أننا نرضى بحكم الأمير علينا أو لنا؟ وكان عليه أن يرضى بحكم الحق لا الأمير.

وثالث القوم في نفس المضمار، عبد الرحمان ابنه، أيضاً يبدأ دوره السياسي باستقبال خبر الوشاية على مسلم من شاب سكير عربيد، ينتظر بضعة دراهم لكي يشتري له ما يغيبه عن هذه الدنيا من شراب، وسبحان الله الذي جعل النفوس مراتب ودرجات.. بين هانئ بن عروة الذي يقول: مسلم ضيفي وأنا قد أجرته ولا أستطيع أن أسلمه إليك حتى لو قتلت، هذا وهو في أيدي الحاكم، وهم يعلمون أنه في بيته.. بينما هذا (...) لا يعلم أحد أنه في بعض دورهم، إلا ذاك الشاب الأخرق الذي كان يكفيه أي شيء، فإذا بابن الأشعث يتصرف على هذا النحو؟؟ ويبالغ هؤلاء في الحمق أو التحامق حين يتصورون أن تفانيهم في طاعة من لا يستحق، وذلتهم أمام من لا قيمة له سوف تكسبهم موقعا وتجعل لهم دالة عليه، وأراد ابن الأشعث أن يجرب هذه المرة أن يعطي لنفسه حق الأمان والإجارة (وهو أمر يستطيعه أي واحد من المسلمين حتى مع الكفار ولا يحتاج إلى منزلة أو شخصية) فإذا بابن زياد يحرمه حتى من هذا المقدار!!

وأقبل محمد بن الأشعث بابن عقيل إلى باب القصر فاستأذن فأذن له

فأخبر عبيدالله خبر ابن عقيل وضرب بكير إياه فقال: بعداً له، فأخبره محمد ابن الأشعث بما كان منه وما كان من أمانه إياه، فقال عبيدالله: ما أنت والأمان كأنا أرسلناك تؤمنه! إنما أرسلناك تأتينا به.

فسكت وانتهى ابن عقيل إلى باب القصر وهو عطشان وعلى باب القصر ناس جلوس ينتظرون الإذن منهم عمارة بن عقبة بن ابي معيط وعمرو بن حريث ومسلم بن عمرو وكثير بن شهاب. قال ابو مخنف فحدثني قدامة بن سعد: أن مسلم بن عقيل حين انتهى إلى باب القصر فاذا قلة باردة موضوعة على الباب فقال ابن عقيل: اسقوني من هذا الماء.

فقال له مسلم بن عمرو: أتراها ما أبردها لا والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم

قال له ابن عقيل: ويحك من أنت؟

قال: أنا ابن من عرف الحق إذا أنكرته ونصح لإمامه إذ غششته وسمع وأطاع إذ عصيته وخالفت أنا مسلم بن عمرو الباهلي!

فقال ابن عقيل: لامك الثكل ما أجفاك وما أفظك وأقسى قلبك وأغلظك أنت يا بن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني ثم جلس متساندا إلى حائط. ثم كان ما ينتظره من أشرف الموت وهو القتل، ومضى على منهاج أهل البيت الذين كانت الشهادة كرامة لهم من الله، والقتل لهم عادة.

❁ ❁ ❁ ❁

بين تلك الجموع من أصحاب اللحى والشوارب المنهزمين الذين تخاذلوا أمام الباطل نقدا ولم ينصروا الحق حتى نسيئة، لم يكن هناك رجل، الرجل الوحيد كان (طوعة) المرأة العجوز التي اشترت بموقفها الشجاع خلود الدهر ثناءً وحمدا، ويوم القيامة جنات وغبطة..

مضى الجميع على قنطرة التاريخ إلى العدم، وامّحت التفاصيل والأمور الصغيرة.. الدراهم التي استلمها بلال الخائن الواشي، والمقام والمكانة التي كان يرجوها ابن الأشعث، والمزايدة الكاذبة على الولاء الأموي الذي كان يظهرها الباهلي.. كله قد انتهى بعد أن أنهى العمر الحقيقي لأولئك، وأضاع عليهم فرصة الانتماء إلى معسكر الخالدين دنيا وآخرة..

وبقي من أولئك امرأة انتمت حين تنصل الآخرون، ونصرت حين خذلوا، وآوت حين أسلموا مسلما إلى غربته وظلام الليل.. فهنيئا لها، وهي الصاعدة من تلك الأجواء الدانية في بيت الأشاعثة، وهنيئا له وهي الصامدة على الولاء الحسيني، والمؤيدة لسفير الحسين، في مجتمع كان قرار شهواته الهزيمة، والانهيار.



٣- أم وهب قمر بنت عبد (من النمر بن قاسط)

شهيدة كربلاء ٦١هـ

❁ ❁ ❁ ❁

بين حدي الجمود الكامل، والانفلات من القيم وُئدت المرأة المسلمة.

في الحد الأول عاشت المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية، مهمشة لا وعي لها حتى تتحرك، ولا ثقة لها بنفسها حتى تنهض، ولا دور لها في الإصلاح الاجتماعي.. فهي غير متعلمة، غير واعية، وغير قادرة بالتالي. وساهم في كل ذلك وجود فهم خاطئ عن التعاليم الإسلامية، هو فرع عن الفهم الخاطئ الذي ساد في عصور التخلف عن كل الإسلام، وفي جميع مناحيه.. فإذا بهذا الدين الحيوي المتحرك، الذي يصنع الحضارات، ويحي الأرض بعد موتها، إذا به هو نفسه يموت في نفوس أتباعه.

وشهدنا كيف تحولت العبادات وهي بوتقات لصناعة الإنسان الجديد، ذي القدرة على محاربة الشهوات، والمؤتمر بالمعروف المنتهي عن المنكر والفحشاء، والمتقي على أثر الصوم، المتطلع إلى وحدة إنسانية تترفع على حواجز اللون والوطن، على اثر الحج.. المتكافل صاحب الأحاسيس ﴿**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ❁ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى❁ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**﴾.

وإذا بتلك العبادات تفقد روحها في نفوس المسلمين، وتفارق أثرها، وهدفها، فالصلاة موجودة ولكن لا يوجد الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، ولا توجد الصلة الرابطة بين العباد وبين ربهم ومجتمعهم، والصوم موجود ولكن التقوى مفقودة، والحج موجود ولكنه طقوس، وأفعال ظاهرية خالية من المحتوى الداخلي.. وخلاصة الأمر لقد فُرغت العبادات من محتواها الداخلي، وأُكد على مظاهرها الخارجية.. تضخم الاهتمام بالظاهر، والوسواس في الطهارة والنجاسة.. وهذا مما أدى إلى أن يحدث الانفصال بين الإسلام كرسالة إحياء وإنهاض وبين النتائج المترتبة على الأخذ به، أصبح المرء لا يرى معادلة ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾ ولا يرى معادلة «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».. وما من خلل في تلك المعادلة وإنما هو في فهم ذلك الدين العظيم، وطريقة أخذه، والنظر إليه.

وكما حصل ذلك الفهم الخاطئ بالنسبة للعبادات فقد حصل أيضا بالنسبة إلى دور الإنسان المسلم، بقسميه الرجل والمرأة، فإذا بهما معطلان عن الدور، مهمشان عن الفاعلية. ولكن كان نصيب المرأة المسلمة أضعاف الرجل.. الحجاب الذي كان عزا للمرأة المسلمة أصبح بالفهم الخاطئ قيدا وغِلا. والطبيعة الخاصة بها والتي أهلتها الإرادة الإلهية بها لكي تتحرك حين يتعطل الرجل، بل لكي تدفعه حين يتوقف أصبحت مبررا للتوقف والجمود..

وكان لهذا الاتجاه الخاطئ رد فعل عنيف خاطئ، فقد انطلق دعاة تحرير المرأة في عالمنا الإسلامي متوهمين أن العقدة هي في تعاليم الدين، وتشريعاته، فإذا بهم يعلنون الحرب على تلك التشريعات زاعمين أنها هي التي أنتجت امرأة عاجزة جاهلة، فإذن لا بد من التخلص من تلك التعاليم حتى تنطلق طاقاتها، وتحلق في سماء التقدم والرفعة. وقد أخطؤوا التشخيص فأخطؤوا العلاج.

لقد طالبوا بتعليم المرأة، ولكن الإسلام قد سبقهم في ذلك، فجعل

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وطالبوا بأن تمارس دورها في المجتمع من خلال ترك الحجاب الذي تعرض لحملة ظالمة على أنه سبب تأخر المرأة، وما فطنوا أن المشكلة لم تكن في المظاهر حتى تعالج بالمظاهر من ترك الحجاب وإبداء الزينة والجمال وإنما المشكلة هي في الداخل، في الأعماق، في وعي المرأة بدورها الذي أعدت إليه، وفي ثقتها بنفسها بأنها الجزء الآخر الذي عليه مهمة إعمار المجتمع، وإصلاحه فـ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾.

وكما قلنا لأن تشخيص الداء كان خاطئا فقد كان العلاج قاتلا هذه المرة.. انطلقت دعوات تحرير المرأة كما قالوا لتمارس حريتها فقط في نزع الحجاب وفي الاستلاب الثقافي، وفي التقليد للمستعمر..

انتزعت المرأة (المحررة) من هويتها وبيئتها، ومجتمعها، لتتخذ هوية جديدة وثقافة جديدة، وقدوات جديدة ولم تستطع أن تأخذ من كل ذلك غير القشور، واكتفت بالتقليد للمظهر، فما صنعت حضارة ولا حازت تقدما، ولا حققت إنجازا.. لا تزال تعيش على الهامش، بلا دور إلا إتقان المظاهر.. أصبح تحرير المرأة مع الأسف مرافقا لعرض الجسد، والاهتمام بالشكل، وكان ينبغي أن يتم تحرير عقلها من الخرافة، ونفسها من الاهتمام بالصغائر والمظاهر، وأن تنطلق في عملية بناء حقيقي للذات والقدرات حتى تشارك في بناء المجتمع من غير موقع الحقارة ومحاولة إثبات الوجود.

كان ينبغي بدل النظر إلى الشرق والغرب لكي تستجدي النماذج والقدوات، أن تنظر إلى تأريخها الحافل بالنساء اللاتي بنين من المجد هياكل، ومن التضحيات صورا، في العلم والعمل، وفي الجهاد والاستشهاد.. فما أبقين مجالا إلا وقد زينّه بمواقفهن..

وكربلاء شاهد.. وهل أصدق من الدماء في الشهادة؟ ولم يقصر دور

المرأة فيها عن دور الرجال، فهي في مرحلة الإعداد للثورة، وحشد القوى وتنظيم الطاقات حاضرة، فهذه مارية العبدية في البصرة، تتحول دارها إلى محطة لتجميع القوى من البصرة للنصرة، فيجتمع فيها أهل الولاية والمنتمين إلى التشيع لكي يناقشوا أمور العمل والجهاد، ويلاحظ خطورة مثل هذا الأمر في بلد كالبصرة التي كانت مصنفة إلى ذلك الوقت على أنها مخالفة للتشيع، حتى أن أهل الجمل عندما أرادوا اختيار محل للبغي على أمير المؤمنين عليه السلام إنما اختاروا البصرة، لقلة أنصار التشيع فيها، لا سيما في الفترة التي سبقت ثورة الإمام الحسين عليه السلام حيث كان الوالي عليها هو عبيد الله بن زياد الحاقد على أهل البيت عليهم السلام وعلى شيعتهم، ومن ذلك يعلم أن الإقدام على تشكيل اجتماعات وخلايا لنصرة الحسين، وتهيئة الأسباب والوسائل والدعم اللوجستيكي يعتبر عملاً مخالفاً بقوة للسلطة، ويعني ذلك أن يعرض القائم به نفسه لخطورة مواجهة السلطة الأموية.

ولكن هذه مارية منقذ العبدية كان يجتمع عندها ناس من الشيعة بالبصرة في منزلها وكانت تتشيع وكان منزلها لهم مألفاً يتحدثون فيه[١]

وتلك الأخرى دلهم بنت عمرو زوجة زهير بن القين، التي ربما لولا موقفها في إثارة الحماس لدى زهير زوجها في أن يأتي الإمام الحسين عليه السلام فيسمع منه، لربما كان زهير لا يزال أموي الهوى والموقف وعثماني الرأي كما كان قبل لقائه بالحسين عليه السلام، ولكن الموقف الحاسم الذي أبدته تلك المرأة الصالحة منح زهيرا فرصة الخلود مع الشهداء.

فهذا نموذج آخر للمرأة المسلمة التي تغلبت على عواطفها ومشاعرها في التمسك بالزوج، وتقديم النصيحة والتشجيع له في ممارسة الإصلاح، وهي بذلك تعلن بوضوح أن من الممكن أن تصنع المرأة من زوجها بطلا، وأن تمنحه الخلود بموقفها، وبالتغلب على العواطف الباردة لصالح خدمة

---

(١) الأزدي، مقتل الحسين عليه السلام، ص١٧.

المجتمع، وتغييره.

ويتواصل العطاء مترقيا، والبر متصاعدا حتى يعلو كل بر، فإنه «فوق كل برٍّ، برٌّ حتى يقتل المرء في سبيل الله فليس فوقه برٌّ»، لقد أرادت نساء الإسلام أن يرين من بعدهن أن بإمكان المرأة أن تصعد، فلا تكون أسيرة للمكياج والجسد، ولاهثة وراء المظهر والرواء الفارغ.. بل أن تصل إلى مراتب الشهداء، بموقفها وعملها، فإنه «ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها».

أم وهب، زوجة عبد الله بن عمير الكلبي، مارست الدورين فهي من جهة قد أعانت زوجها على الخير، وهيأت له فرصة اتخاذ القرار الصائب، وساعدته على تلمس الطريق الصحيح وهي حجة بذلك على الكثير من النساء اللاتي يقنعن بالقليل والدون في الدنيا، في أنفسهن، ويمنعن أزواجهن وأبناءهن عن اختيار الطريق المناسب.. ألم ينقل لنا التاريخ صورا سيئة لمثل تلك النماذج في الكوفة من النساء اللاتي كن يأتين إلى أبنائهن فيأخذن بأيديهن مخذلات ومثبطات: ما لنا والدخول بين السلاطين؟ غدا يأتي جيش الشام.. غيرك يكفيك، لا تلق بنفسك إلى التهلكة.. إلى آخر قائمة الأعذار والكلمات المهزومة..

هذه المرأة الصالحة عندما عرض عليها زوجها أنه يريد نصرة الحسين عليه السلام، ومعنى ذلك أنها تترمل بعده، لكن وعي هذه المرأة دفعها لتشجيع زوجها قائلة له: أصبت أصاب الله بك وأرشد أمورك.. افعل وأخرجني معك.. ثم لم تكتف بذلك حتى خرجت معه في المعركة وهي تقول: لن أدعك دون أن أموت معك.. وكانت نيتها صادقة صافية صفاء بصيرتها، فكتب لها الله الشهادة إلى جانب الحسين عليه السلام وهي أول امرأة استشهدت في كربلاء.. ماذا يقول عنها التاريخ في تفاصيل الموقف العظيم وفي الشهادة الدامية؟

قال أبو مخنف حدثني أبو جناب قال: كان منا رجل يدعى عبدالله بن

عمير من بني عليم كان قد نزل الكوفة واتخذ عند بئر الجعد من همدان دارا وكانت معه امرأة له من النمرين قاسط يقال لها أم وهب بنت عبد. فرأى القوم بالنخيلة يعرضون ليسرحوا إلى الحسين.. فسأل عنهم فقيل له: يسرحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

فقال: والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصا وإني لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثوابا عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين.

فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد فقالت: أصبت أصاب الله بك أرشد أمورك افعل وأخرجني معك. قال: فخرج بها ليلاً حتى أتى حسيناً فأقام معه فلما دنا منه عمر بن سعد ورمى بسهم ارتمى الناس فلما ارتموا خرج يسار مولى زياد بن أبي سفيان وسالم مولى عبيدالله بن زياد فقالا: من يبارز ليخرج إلينا بعضكم. قال: فوثب حبيب بن مظاهر وبرير بن حضير فقال لهما حسين: اجلسا.

فقام عبدالله بن عمير الكلبي فقال: ابا عبدالله رحمك الله ائذن لي فلأخرج إليهما فرأى الحسين رجلاً آدم طويلاً شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين فقال: إني لأحسبه للأقران قتّالاً اخرج إن شئت.

فخرج إليهما فقالا له: من أنت فانتسب لهما فقالا: لا نعرفك ليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن حضير ويسار مستنتل (متقدم) امام سالم.

فقال له الكلبي: يا بن الزانية وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ويخرج إليك أحد من الناس إلا وهو خير منك ثم شد عليه فضربه بسيفه حتى برد فانه لمشتغل به يضربه بسيفه إذ شد عليه سالم. فصاح به: قد رهقك العبد قال فلم يأبه له حتى غشيه فبدره الضربة فاتقاها الكلبي بيده اليسرى

فأطار أصابع كفه اليسرى ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى قتله.

وأقبل الكلبي مرتجزاً وهو يقول وقد قتلهما جميعاً:

إن تنكروني فأنا ابن كلب حسبي ببيتي في عليم حسبي
إني امرؤ ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب
إني زعيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدما والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب

فأخذت أم وهب امرأته عموداً ثم أقبلت نحو زوجها تقول له: فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين ذرية محمد، أقبل إليها يردها نحو النساء فأخذت تجاذب ثوبه ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك فناداها الحسين فقال: جزيتم من أهل بيت خيراً، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن، فإنه ليس على النساء قتال فانصرفت إليهن..[1]

وكانت هذه المرأة قد نفضت يدها من تراب الحياة، وعلائقها فالذي يمشي في طريق الإله يكون أحب شيء إليه الإسراع في لقاء الله «ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»[2].

هي أيام يصطرع الناس على إبقائها وهي غير باقية، يرونها دائمة وهي تمر مر السحاب، السعيد فيها من اختار منها ما يبقى ويبقي له الذكر الخالد، والشقي فيها من يتعلق بصغائر الأمور فتعظم في عينيه، وتتلخص حياته فيها، فيخسر.. أما الذين عظم الخالق في أعينهم، وعايشوا الجنة فهم فيها منعمون، فإنهم يسرعون الخطى إلى حيث ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ ما

(١) الأزدي، مقتل الحسين عليه السلام ص١٢٣.

(٢) عبده، الشيخ محمد، نهج البلاغة.

أن استشهد عبد الله بن عمير زوجها، حتى خرجت إليه يزغرد قلبها فرحاً، وتطير بأجنحة الشوق إليه سرورا، وجلست عنده تمسح الدم والتراب عنه، وتقول: هنيئا لك الجنة!

أحد الصغار واسمه شمر بن ذي الجوشن، صغير الهمة، وداني الوعي، ومنعدم الأخلاق، وهذه الصفات (أهلته) لكي يرتكب عظيم الجرائم، وهل يرتكب عظيم الجرائم إلا صغار النفوس؟ أمر غلاماً له يسمى رستم: اضرب رأسها بالعمود!! وفعل العبد ما أمر به العبد الآخر، فشدخ رأسها بعمود فماتت مكانها![1]

هنيئاً لكِ الجنة يا قمر.

(١) الأزدي، مقتل الحسين عليه السلام ص١٤١، وعنه نقل أطراف الحادثة الطبري، وابن كثير وابن الأثير وغيرهم.

٤- مارية بنت منقذ العبدية

كانت موجودة إلى زمان شهادة الحسين عليه السلام

❁ ❁ ❁ ❁

يعيش الإنسان ضمن مجموعة اجتماعية، ويفرض عليه ذلك في العادة اللقاء مع أفرادها والتباحث معهم في أمور مشتركة، وقضايا تلفت انتباههم. وربما كانت هذه اللقاءات التي تتبلور في بعض المجتمعات في صورة مجالس دائمة، يقصدها أبناء عائلة أو طائفة أو صنف، أو منطقة جغرافية، من مكونات الوعي الاجتماعي العام، لما يتم تبادله فيها من آراء واهتمامات، فتؤثر في ثقافة قاصديها واهتماماتهم حتى من دون أن يشعروا بذلك أحياناً بل غالباً.

ولهذا فقد تناول الإسلام دور المجالس هذه ودعا إلى الحضور في المجالس والتجمعات التي تنتهي إلى زيادة معرفة، أو تحمل مسؤولية، أو رقي أخلاقي، ففي الحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا رأيتم روضة من رياض الجنة فارتعوا فيها! قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس المؤمنين. وفي رواية أخرى: مجالس الذكر!

وأوصى لقمان عليه السلام فقال: اختر المجالس على عينيك، فإن رأيت قوما يذكرون الله عز وجل فاجلس معهم فإنك إن تكن عالماً ينفعك علمك ويزيدونك علماً، وإن كنت جاهلاً علموك، ولعل الله يصلهم برحمة فتعمك معهم. [1].

---

(١) الري شهري، ميزان الحكمة ج١ ص٣٩٨.

وقال الإمام الرضا عليه السلام: من جلس مجلسا يُحيى فيها أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب [1]. وأكد الدين على ضرورة أن يكون الجليس نافعاً ومفيداً.. ففي الخبر عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن عيسى بن مريم: أنه سئل: يا روح الله من نجالس؟ قال: من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله.

وحذر من المجالس التي لا هدف فيها، حيث تزيد الإنسان غفلة فوق غفلته، وتبعده عن شأن أخراه ودينه، إلى شؤون لا تعنيه، فعن الإمام الصادق عليه السلام: ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله فيه ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة.

ونهى عن مجالس الظالمين والفاسقين والعابثين فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يسب فيه أمام أو يغتاب فيه مسلم، إن الله يقول في كتابه ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾».

❁ ❁ ❁ ❁

وبالرغم من هذه التوجيهات الدينية الصريحة، وما تفرضه التجربة وتهدي إليه من أن المجالس إذا كانت جادة هادفة، فإنها تعود على المجتمع بخير كثير، فكم وجدنا منافع من تلك المجالس التي تجمع أهل الرأي والمعرفة والفكر والاهتمامات الاجتماعية العالية، وتناقش فيها أمور البلاد وأحوال الناس، وتنبثق منها مشاريع عمل، وخطط تقدم لأبناء المجتمع.

ومجالس أخرى فارغة، لا موضوع لها ولا هدف، لا تنفع إن لم تضر، بل في الغالب يحدث الثاني، فإن مجلسا لا يزداد فيه الإنسان هدى ولا ينقص

---

(١) الري شهري، ميزان الحكمة ج ١ ٣٩٨.

من ضلالة، ولا يبعثه لترتيب أمر معاشه أو معاده، لهو مضرة واضحة إذ لا يتوقف الزمان، ولا يستعاد العمر، فتمضي الأيام، وتذهب السنوات، ولم يحصل صاحبنا إلا على ضحكة من هنا، وسخرية هناك.. بل إننا نجد أن كثيرا من المشاكل الاجتماعية تحصل في مجتمعنا على أثر انقطاع الرجل إلى تلك المجالس مهملا أسرته، فها هو قد أتى بيته قرب الغروب من العمل ليخرج بعد الغروب إلى السهرة، ومجالس غير هادفة.. فتبدأ المشاكل بينه وبين زوجته، ويبتعد عن توجيه أبنائه وبناته.

كل ذلك بزعم أنه يقتل وقت الفراغ وهو واهم فإنه هو الذي يُقتل، ذلك أن الوقت والعمر كالسيف إن لم تقطعه بالعمل المنتج المثمر، قطعك باستنفاذ مخزونك من السنوات.

ولا يقتصر الأمر على الرجال بل إننا نجد أن مجالس (البطالين كما في الدعاء) عند النساء لو لم تكن أكثر فليست بأقل. مجالس اللغو، والهذر وعدم الانتاج.. حديث الفساتين والموضة، والعطور، والمكياج، و.... حتى لقد بات يتعجب من وجود مجلس نسائي جاد يتحدث في أمور هادفة، ويناقش قضايا المجتمع، ويسعى لتقديم صورة أخرى على خلاف المألوف عن المجالس النسائية.

ونحن لا ترى أن هذه الصورة هي الصورة الحقيقية للمرأة المسلمة، فإنها كانت الدافع المؤثر لحركات التغيير، والشاحن العاطفي لانطلاقات الخير، كما تشهد بذلك سيرة خديجة وفاطمة، ونساء أنصار الحسين في كربلاء، دلهم زوجة زهير، وأم وهب، وزوجة حبيب، وغيرهن.. من تلاحظ سيرهن في هذا الكتاب.

ولا نرى أن المجالس الطبيعية للمرأة المسلمة هي مجالس اللغو والهذر، والهامشية بل كثيرا ما كانت مجالس العلم والفضيلة، بل والجهاد كما كان مجلس المرأة المجاهدة مارية بنت منقذ العبدية، التي كان لها مجلس في البصرة في الوقت الذي أعلنت فيه الأحكام العرفية وحالة الطوارئ مع

بدايات حركة الإمام الحسين عليه السلام، وكان الإقدام على أي تجمع من هذا القبيل يعد عملاً معارضاً يحتاج إلى قوة قلب عالية وإيمان بالمبدأ، وإصرار عليه مهما كانت النتائج. وكان ذلك المجلس محلا لاجتماع شيعة أهل البيت عليهم السلام وفيه يتناقشون أمورهم المختلفة.. ولا يذهب ببالك أن المجلس كان مجلس زوجها فإنها كانت أيّما لا زوج لها. ومن ذلك المجلس انطلق ستة من قُدّر لهم أن يكونوا شهداء مع الحسين عليه السلام هذا مع أن إخوتها كانوا في المعسكر الآخر، معسكر بني أمية ولنكن مع البداية.. مع أسرتها عبد القيس:

سكنت عبد القيس المنطقة التي تعرف اليوم بالقطيف (وكانت تسمى سابقاً بالخط وإليها تنسب الرماح المعروفة) والبحرين، ولما جاء الإسلام وأشعلت العرب الأرض نيرانا تحت قدمي رسول الله صلى الله عليه وآله رافضين للدين، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره فـ﴿جاء نصر الله والفتح) وأسلم عبد القيس طواعية، عندما كتب الرسول صلى الله عليه وآله إلى المنذر بن ساوى العبدي وهو واليها عن ملوك فارس بالدخول في الإسلام أو دفع الجزية سنة ٦ هـ فأجابوا دعوة الرسول، ﴿**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا**﴾

أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله العلاء الحضرمي الذي صار واليا من قبل الرسول صلى الله عليه وآله، واستجابوا له. ثم قدم كبارهم وأهل الحجى فيه على الرسول سنة ٧هـ. واستقبلهم رسول الله بما نقل أنه قال: «ليأتين ركب من قبل أهل المشرق لم يُكرهوا على الإسلام»، وفي ذلك إشارة واضحة إلى مثل قريش التي لم تسلم راغمة حتى جيشت الجيوش على النبي وانكسرت في صراعها معه[(١)]. ولما أقبلوا دعا لهم قائلاً: «اللهم اغفر لعبد القيس».

---

(١) العجيب أن قريشا كان ينبغي أن تطأطئ برأسها خجلاً بعد الانتصار النبوي، لأنها كانت العقبة الأولى أمام الدعوة، ولم تلق السلاح إلا بعد أن نصر الله النبي صلى الله عليه وآله عليها، لكن ما لبث أن توفي رسول الله صلى الله عليه وآله حتى عادت صفة القرشية مفخرة، بينما هي بحسب المواقف مسبة! وإذا بها تعيد كيل العداء لأهل البيت عليهم السلام وفي طليعتهم الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام كما يظهر من تشكيه الدائم واستعدائه الله عليها.

كان من طالع الخير لعبد القيس أنها من اليوم الأول كان عليها ولاة وعاة على خط أمير المؤمنين عليه السلام مثل العلاء بن الحضرمي، ثم أبان بن سعيد بن العاص [1]. واستمر ذلك في فترة حياة الرسول صلى الله عليه وآله، مما غرس في أنفسهم حب علي عليه السلام، وعرفهم حسن الانتماء إليه. وتولى عليها بعدهما من لم تزد سيرته عبد القيس إلا بصيرة بإمامهم من باب «وبضدها تتميز الأشياء».

. وفي زمن أمير المؤمنين ولاها عمر بن أبي سلمة، فدائي الإمام، والذي كان عند حسن ظن أمه أم سلمة في غرس الولاء الصادق لأهل البيت عليهم السلام إلا أن خرج مع أمير المؤمنين في حرب الجمل.

هذا الولاء الصادق، وتلك الشجرة الطيبة المباركة التي غرسها الرجال المخلصون في ولاء أمير المؤمنين والسائرون على نهجه، آتت أكلها سنابل **﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾** فازدانت مواقع أمير المؤمنين سلما وحربا برجال عبد القيس، فهاهم أبناء صوحان، صعصعة وسيحان وزيد.. وحكيم بن جبلة وغيرهم.. ولا سيما في حرب الجمل حي فكانت لعبد القيس رايتان،: عبد القيس من أهل البصرة، عبد القيس من أهل الكوفة[2].

---

(١) أبان بن سعيد بن العاص الأموي، بالرغم من أن أباه لم يكن سعيدا وبقي أمويا، حتى قتل على الكفر بسيف أمير المؤمنين عليه السلام إلا أن ابنه أبان والآخر خالدا كانا مصداقا لقول الله يخرج الطيب من الخبيث وكانا على خط أمير المؤمنين عليه السلام وهما يخاطبانه بعدما تأخر علي عليه السلام عن قبول ما جرى في السقيفة إنكم ـ يا بني هاشم ـ لطوال الشجر طيبوا الثمر ونحن تبع لكم. يراجع أحوال خالد بن سعيد في (رجال حول أهل البيت) للمؤلف.

(٢) ليس في المصادر تفصيل لحركة الانتقال لدى القبائل المسلمة من مكان لآخر، ولكن يظهر من هذا النص وغيره أن عبد القيس كان لهم وجود كبير في البصرة، ومقدمات حرب الجمل تشير إلى مواجهات بينهم وبين أنصار الجمل. وكذلك الحال في الكوفة حيث كان لهم خِطة جغرافية ومسجد يسمى باسمهم. وربما بقي بعضهم في البصرة بينما انتقل القسم الآخر إلى الكوفة أو العكس. ولبيان الجذور التاريخية لتشيع عبدالقيس يراجع: شيعة القطيف والأحساء.. عراقة الماضي وتطلعات المستقبل. للمؤلف.

و« كانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن مسلم فقتل وقتل معه زيد بن صوحان وسيحان بن صوحان، وأخذ الراية عدة منهم فتلوا منهم عبد الله بن رقبة وراشد ثم أخذها منقذ بن النعمان »[١]

ومنقذ بن النعمان هذا هو والد مارية التي نتحدث عنها. فقد ورثت التشيع من أسلافها العبديين، ومع أنه لا توجد معلومات كافية عن والدها، إلا أنه يظهر له دور في حرب الجمل وأنه كان حامل راية عبد القيس. ولكن هذا لم يكن المقوم الأساس في حياة مارية، ذلك أننا نجد سائر إخوتها رضي بن منقذ، ورجاء ومرة[٢] كانوا على حال سيئة وانتهى بهم الأمر إلى معسكر بني أمية.

هذا معنى الوعي والاختيار، فمع أن إخوتها اتجهوا إلى الدنيا لكنها آثرت الآخرة.

❁ ❁ ❁ ❁

لما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من مكة المكرمة مبتدئا منها ثورته التغييرية بدأ ببعث رسله ورسائله إلى مختلف المناطق، فأرسل إلى شيعته من أهل البصرة كتابا يخبرهم بذلك « أما بعد.. فإن الله اصطفى محمدا على خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨ ـ حوادث سنة ٣٦.

(٢) مرة بن منقذ هو قاتل علي الأكبر بن الحسين عليهما السلام، فقد نقل حميد بن مسلم أنه لما رآه يفتك بالجيش قال: عليّ آثام العرب إن مر بي وهو يصنع ما يصنع، ولم أثكل أباه به.. وبالفعل فقد كان علي الأكبر عليه السلام يطرد كتيبة أمامه، فجاءه مرة من خلفه وضربه بالسيف على رأسه. ورضي بن منقذ حمل على برير بن خضير الهمداني شيخ القراء في الكوفة واعتركا فأعان كعب بن جابر رضيا وطعن بريرا بالرمح وقتله. ورجاء بن منقذ كان من العشرة الذين وطؤوا جسم الحسين عليه السلام بخيولهم. وقد تتبعهم المختار رضي الله عنه فما بقي منهم أحد بعد سنة ٦٧هـ.

به وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه.. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه فإن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ».

وبينما قام أحد الجبناء وهو المنذر بن الجارود بتقديم الرسول إلى عبيد الله بن زياد، زاعما أنه خشي أن يكون دسيساً من عبيد الله.. وكان نتيجة ذلك أن قتل الرسول، إلا أن شيعة أهل البيت بعد وصول الخبر، اجتمع عدد منهم في مجلس مارية المذكور وكان مألفاً لشيعة أهل البيت يتحدثون فيه في ما يهمهم من أمور دينية وغيرها. وتناقشوا في أمر حركة الإمام الحسين عليه السلام تلك، وما الذي ينبغي فعله، فكان أن انطلق من ذلك المجلس ستة من أنصار أهل البيت.

قال أبو مخنف، وذكر أبو المخارق الراسبي فقال: اجتمع ناس من الشيعة بالبصرة في منزل امرأة من عبد القيس يقال لها مارية ابنة منقذ[1] أياما، وكانت تتشيع، وكان منزلها مألفاً لهم يتحدثون فيه، وقد بلغ ابن زياد إقبالُ الحسين فكتب إلى عامله بالبصرة أن يضع المناظر ويأخذ بالطريق.. فأجمع يزيد بن نبيط وهو من عبد القيس الخروج إلى الحسين وكان له بنون عشرة، فقال: أيكم يخرج معي؟ فانتدب معه ابنان له: عبد الله وعبيد الله، فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة: إني قد أزمعت على الخروج وأنا خارج.. فقالوا له: إنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد. فقال: إني لو قد استوت أخفافها بالجدَد (الطريق الرملي) لهان علي طلب من يطلبني.

ثم خرج فتقدى (أي أسرع) حتى انتهى إلى الحسين عليه السلام فدخل في

(١) ذكر الطبري اسم أبيها مرددا بين كونه سعداً أو منقذاً، والصحيح هو ما أثبتناه.

رحله بالأبطح، وبلغ الحسين مجيئُه فجعل يطلبه، وجاء الرجل إلى رحل الحسين فقيل له قد خرج إلى منزلك، فأقبل في أثره، ولما لم يجده الحسين جلس في رحله ينتظره، وجاء البصري فوجده في رحله جالسا، فقال: ﴿**بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ**﴾، فسلم عليه وجلس إليه فخبره بالذي جاء له، فدعا له بخير، ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه، وقتل هو وابناه. (١)

المجالس كثيرة.. ولكن شتان بين مجلس لا يصعد منه إلا الهباء والهباب، ولا يسوده إلا اللغو واللهو، ولا ينتج إلا النميمة والسخيمة.. وبين مجلس يصنع الشهداء، ويُنصر فيه خط الأنبياء.

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٨

٥- دلهم بنت عمرو

كانت موجودة إلى سنة ٦١هـ

❁ ❁ ❁ ❁

« خار الله لك أسألك أن تذكرني في القيامة عند جد الحسين ».

❁ ❁ ❁ ❁

تعيش المرأة في علاقتها مع زوجها حالة من حالات متعددة، فهي إما أن تكون تابعة بالكامل له في ثقافتها وفكرها وطريقة حياتها، وترى أنها لكي تحمي ذلك الكيان الأسري فلا بد لها من الانسجام مع هذا الزوج. خصوصا أن الخيارات الأخرى ليست الأنسب، لأدائها إما إلى الطلاق، أو التوتر في داخل البيت.

وقد لا تكون كذلك وإنما تستطيع أن تستقل بنمط من الحياة وإن كان يختلف عما يؤمن به الزوج وتكون لديهما القدرة على التعايش ضمن نمطين من الحياة بحيث يكون كل منهما قد اختار طريقه الخاص به، من دون أن يؤثر الآخر فيه أو يقسره على سلوك لا يرتضيه.

وقد تؤثر المرأة في زوجها وهو قليل بحكم الأوضاع الاجتماعية والثقافية التي تحكم المجتمع.

إننا في الغالب نلتقي بمظاهر عن الحالة الأولى وهي أن الزوج هو

الذي يعين الاتجاه، وتبرز المشكلة عندما يكون الزوج غير مستقيم والزوجة صالحة، أو يكون غير مؤمن والزوجة متدينة.. فكثيراً ما يستخدم الزوج في هذه الحالة حضوره القوي في التأثير على مسار زوجته فيلقيها في حياة العبثية أو البعد عن الإيمان. فكم من النساء تتساءل عن موقفها عندما يضطرها زوجها إلى إلقاء الحجاب الإسلامي، ويدفعها إلى ما يخالف ثقافتها والتزامها، وماذا تصنع خصوصاً لو كان لهما أولاد، وكان ثمن الرفض والمخالفة لأوامر الزوج أحياناً الانتهاء إلى الطلاق؟ ماذا تصنع عندما يدفعها زوجها بزعم أن عادات عائلتهم هي هكذا إلى التكشف مثلاً أمام إخوانه وأصهارهم، وأن عليها أن تنسجم مع تلك العادات، لكيلا تكون منبوذة، أو تعرف بأنها (معقدة)؟

ماذا تصنع حتى في الحالة الثانية لو كان زوجها يمارس الانحراف الأخلاقي والديني حتى لو لم يدفعها إليه؟ ما هي مسؤوليتها معه وهو يشرب الخمر في البيت، أو يستعمل المخدرات مع أصحابه أو يسوقها في المجتمع؟

ماذا لو كان الزوج يعيش من ثمن إيقاع المؤمنين في شراك أعدائهم، ويبني عظام أولاده وزوجته من أكل لحم غيرهم، وتدمير مستقبل الآخرين.. ماذا تصنع؟ وإلى أي مقدار تستجيب؟

إن كثيراً مما يلاحظ من مشاكل يرجع في قسم من أسبابه إلى عدم تبين الدور الذي ينبغي أن تقوم به المرأة في هذا المجال.. هل يصح منها أن تكون سلبية إلى الحد الذي تفقد فيها إيمانها وهو حياتها الحقيقية لأجل الحفاظ على حياتها الزوجية؟ وأيضا إلى عدم معرفة مقدار الحق الواجب[1] على الزوجة

---

(١) يتفق علماؤنا على أن على الزوجة للزوج حق التمكين والاستمتاع الجنسي، فيجب عليها في هذه الجهة أو تستجيب له في ما يطلب وهذا أمر اتفاقي، وهناك حق آخر هو عدم خروجها من بيته إلا بإذنه، وهنا المسألة خلافية بين قائل بعدم جوازه مطلقاً إلا بإذنه، وقائل بعدم جوازه إذا كان منافيا لحقه في الاستمتاع.

في طاعة زوجها..

ونظراً لحساسية دور الزوجة المؤمنة في صمودها أمام ضغوط زوجها المنحرف، فقد (جلّى) القرآن الكريم، موقف آسية بنت مزاحم زوجة فرعون التي تحدّت في عمل بطولي تعالت فيه على شهوات الدنيا التي كانت تجري بين يديها، وزخارفها تلك التي يتنافس عليها (من يُنشّأ في الحلية)، كما صمدت في وجه عذاب فرعون، حتى أوصلها ذلك إلى أن كانت مثلا لأهل الإيمان على مر الأزمان ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[1]. وإذا كانت آسية قد قاومت إغراء وتهديد فرعون فصارت مثلا في القرآن يتلى وهو عمل عظيم دون ريب فإن تغيير بعض النساء لتوجه أزواجهن وإخراجهم من خط الزيف إلى خط الحقيقة، ومن وهدة التخلف مع القواعد إلى ذروة القتال مع ابن رسول الله، ومن الهروب إلى الإقدام، لهو عمل عظيم جدا.

امرأة قالت كلمة فكانت (شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها). دلهم بنت عمرو زوجة زهير بن القين، قالت كلمتها في الوقت المناسب فكان هذا المصير الرائع الذي أهدته إلى زوجها وهدت إليه زوجها.

كلمة.. وما أدراك ما خطر الكلمة؟ وما يدريك ما دورها؟ فـ«ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة يزيده الله بها هدى أو يرده عن ردى» كما يقول الرسول الكريم ﷺ. و«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، و«أوثق العرى كلمة التقوى». وعندما جاء كبار قريش للنبي ليمنعوه عن تبليغ رسالة الله قال لهم: «هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب، ودانت لكم العجم»؟ قالوا: إنها لكلمة مربحة نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها.. فقال لهم: قولوا لا إله إلا الله..

---

(١) سورة التحريم آية ١١،

وهي كلمة لو قالوها لحصلوا على ما وعدهم النبي ولكنهم نفروا منه.

الكلمة الطيبة التي تأتي في الموقع المناسب هي بمثابة كلمة السر التي تفتح للإنسان دخول عوالم من الكمال والرقي، وبدونها كان يمكن أن يبقى ككثير غيره يتمنى الدخول من دون معرفة الطريق..

وقد فتحت دلهم لزوجها طريق الكمال والشهادة والجنة، عندما أعطته كلمة السر فدخل بواسطتها البوابة الحسينية. كيف؟

ها هو زهير بن القين يشارك في الغزوات والفتوحات التي كانت تجري على أطراف العالم الإسلامي، وجاءت سنة ٢٥هـ، وأرسل جيش من المسلمين إلى ما وراء فارس مما يعرف ببلاد الخزر، وكان على رأس ذلك الجيش سلمان بن ربيعة الباهلي[١] وكان قبلها قاضي الكوفة، إلى وصل إلى بلنجر وفتحها وفرح المسلمون بما أصابوا من الغنائم المتنوعة والثمينة فقال القائد سلمان لهم: فرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقالوا: نعم. قال: إذا أدركتم قتال شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم مما أصبتم اليوم من الغنائم. ثم تقدم لفتح غيرها ولكنه استشهد في تلك المعركة.

وزهير بن القين الذي كان إلى ذلك الوقت عثماني الهوى والانتماء، وبعيدا عن الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام، سمع ذلك الكلام ولم يؤثر فيه إلا بمقدار ما انطبع في ذاكرته من دون أن يؤثر في سلوكه السياسي والاجتماعي العام.. ولذلك بعدما رجع مرة أخرى إلى الكوفة بقي محافظا على انتمائه الاجتماعي والسياسي.. وحتى عندما تحركت الكوفة في اتجاه الحسين عليه السلام على اختلاف دوافع ذلك التوجه بقي زهير بعيداً عن ذلك، بل قام بالهروب إلى الأمام، متصورا كما يظن البعض أن الهروب الجغرافي أو النفسي سيجعل

---

(١) قال عنه ابن سعد في الطبقات: ثقة قليل الحديث.

الإنسان في راحة من الصراع وتعيين الموقف.. وأن ﴿**لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء**﴾ في معركة الحق والباطل هو الحل الأمثل، ويخطئون في ذلك.. فكم يستطيع الإنسان أن يهرب وإلى متى؟ إن حلبة هذا الصراع أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، فهي تدور في قلبه وضميره قبل أن يشارك فيها على أرض الواقع.

على هذه الخلفية كان زهير بن القين لا يريد اللقاء بالحسين عليه السلام مع أن الطريق يقضي عليهم بالاجتماع، فكان يتخلف إذا سار الحسين، ويسير إذا تخلف لأنه لم يكن أبغض عليهم من مسايرته عليه السلام، إلى أن اضطروا إلى النزول على ماء سوية، ولم يجدوا بدا من البقاء، ولكنه بقاء غير الراغب في اللقاء، فنصبوا خيامهم بعيدا عن محل نزول الحسين عليه السلام.

يقول أحدهم[١]: فبينا نحن جلوس نتغدى من طعام لنا إذا أقبل رسول الحسين حتى سلّم ثم دخل فقال: يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه قال فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير..

ها هو يواجه الصراع الذي هرب منه وتخفى!! لم تنفع إذن محاولات دفع الأمور إلى الأمام وتأجيل البت فيها، وتأخير القرار.. ماذا يصنع؟ كل هذه السنوات وهو في حالة هروب.. وهاهو يصطدم بما كان قد هرب منه وجها لوجه.

هنا تنفع الكلمة الطيبة، هنا تحيا النفوس وقد تموت!! هنا يكون الخيار بين الشجرة الطيبة المثمرة، وتلك المجتثة من الأرض والتي لا تنتج غير الرماد!!

كثيراً ما يتوقف التحول الكيميائي على شيء (كتيار كهربائي) حتى

---

(١) ذكر أطراف اللقاء أبو مخنف الأزدي في المقتل ونقل عنه الطبري في تأريخه.

يخلق من الغاز والهواء المبعثر في الأفق ماء تحيا به الأرض بعد موتها.. وكان التحول في نفس زهير متوقفا على ذلك التيار الضوئي وكانت كلمات دلهم زوجته، ذلك التيار. كانت الحزمة الدافعة التي حركته بالاتجاه الصحيح. وكانت أفضل هدية قدمتها إليه في حياتهما المشتركة التي ربما استمرت قرابة أربعين سنة هي تلك الكلمات..

قال أبو مخنف فحدثتني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين، قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟؟ سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت.

فأتاه زهير بن القين فما لبث أن جاء مستبشرا قد أسفر وجهه..

لقد انتهى الصراع وحُسم، وتلك الغمامة التي كانت تحجب إشراقة الوجه، والكدر الذي كان انعكاسا للصراع الداخلي المستمر، قد تغير إلى وضوح تماما كما هو وضوح الموقف.

قالت دلهم: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم وحمل إلى الحسين. وقد رافقه في ذلك سلمان بن مضارب البجلي.

ثم قال لامرأته أنت طالق الحقي بأهلك فإني لا أحب أن يصيبك من سببي إلا خير ثم قال لأصحابه من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد إني سأحدثكم حديثاً غزونا بلنجر ففتح الله علينا وأصبنا غنائم فقال لنا سلمان الباهلي: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم، فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فإني أستودعكم الله.

وقد رافقه في ذلك ابن عمه سلمان بن مضارب البجلي.

كان الوداع ساخنا بينها وبين زوجها.. مثلما كان الصراع بين قلبها وعقلها، قلبها يريد الاحتفاظ بالزوج والبقاء معه ولو أدى ذلك إلى بقائه

هاربا (من الحق) ولو أدى إلى أن يخسر هذه الفرصة التي لا تعوض. من تستطيع أن تهدم (عزها) بيدها، وتقدم له النصيحة لكي يستشهد فترث منه الثكل والترمل؟ من تقدم على أن تفتح ملف أحزانها بيدها؟ كيف تستطيع أن تركل بقدمه كل الذكريات؟ وتمسح شريط أربعين سنة من العيش المشترك؟ هذا ما كان يقوله قلبها.

وعقلها ذلك الواعي ينير لها دروبا أخرى من البصيرة، الموت حق وإن لم يأت هذا اليوم فسيأتي غدا. وإذا كانت لا تستطيع القتال كما الرجال فالكلمة موقف وتسهيل طريق الجهاد والاستشهاد للزوج جزء من الجهاد..

خار الله لك يا زهير أسألك أن تذكرني في القيامة عند جد الحسين!

كانت هذه الكلمة إنهاء لما يعتمل في النفس من الأسى والشجن، ما دمت قد اخترت هذا الطريق فهو نعم الخيار، وسينتهي بك إلى لقاء النبي ﷺ، فاذكر لي هذا الموقف فأنا شريكة فيه، أنا جزء المعادلة..



في رحاب الإمام السجاد عليه السلام

١	(أم عبد الله) فاطمة بنت الحسن المجتبى عليه السلام
٢	فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام
٣	عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية
٤	أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر



موجز عن حياة
علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

الإمام أبو محمد ٣٨- ٩٥ هـ:

ولد الإمام علي بن الحسين (السجاد) سنة ٣٨ هـ وتولى الإمامة بعد شهادة أبيه سنة ٦١ هـ وعمره آنئذٍ ٢٣ سنة وكانت مدة إمامته ٣٤ سنة.

كان مع أبيه الحسين في كربلاء وشهد مصرعه، ولم يسمح له الإمام الحسين بالاشتراك في المعركة لئلا يقتل فينقطع نسل الإمامة.. وبعد شهادة أبيه عليه السلام كان على رأس قافلة أسرى أهل البيت، واستطاع من خلال ذلك إيقاظ حسّ الندم، والشعور بالتقصير، في المجتمع الكوفي بخطبه وكلماته، والتعريف بثورة أبيه وأهدافها، وموقع الحسين عليه السلام من الرسول صلى الله عليه وآله في المجتمع الشامي. فكان عمله ذلك بحق ثورة أخرى حسينية.

استمر الإمام السجاد عليه السلام بعد عودته إلى المدينة بتذكير المسلمين بكربلاء وما ارتكب الأمويون فيها بالبكاء على أبيه وانتشر ذلك بين المسلمين حتى اضطر يزيد بن معاوية الحاكم الأموي إلى التنصل من مسؤولية قتل الإمام الحسين.

أثمرت أعمال الإمام السجاد في إيقاظ الشعور بالندم في المجتمع الكوفي، انتفاضة التوّابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي سنة ٦٥هـ حيث انطلقت مجاميع من شيعة أهل البيت من الكوفة بشعار يا لثارات الحسين في عملية فدائية

واجهت فيها جيوش الأمويين وهي وإن كانت عملية استشهادية لم تؤد إلى النصر الخارجي، إلاّ أنها كانت فتيل الثورات على الأمويين.

ما إن حلت سنة ٦٦ هـ حتى بدأ المختار ابن أبي عبيدة الثقفي بثورة تحت نفس الشعار، واستطاع المختار السيطرة على الكوفة والاقتصاص من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن وأمثالهم.

لما كانت سياسة الأمويين تقوم على العنف والإفساد الخلقي، فقد تكفلت الثورات (الحسينية وامتداداتها) بمواجهة العنف بالشهادة، وواجه الإمام السجاد الافساد الخلقي بتوجيه الأمة إلى حقيقة العبودية لله، وفي هذا فقد خلّف الإمام السجاد تراثاً روحياً عظيماً، من الأدعية وطرق المناجاة، والتضرع إلى الله. أوقف – إلى حدّ كبير– مسيرة الانحدار الخلقي الذي أراده الأمويون للأمة.

اعتاد أن يشتري العبيد بماله، ويضعهم تحت رعايته وتربيته لمدة طويلة ثم يعتقهم، وكان هؤلاء أشبه بدم سليم، يضخ في جسم ذلك المجتمع الذي يعيشون فيه، وقد برز من هؤلاء علماء كان لهم دور في الأمة.

كان وجوده في المجتمع الإسلامي-بما كان يحمل من علم وخلق- يذكر الناس بسيرة آبائه الطاهرين وخلف تراثاً فكرياً مهماً سواء في العقائد أو في التنظيم الاجتماعي والحقوق، أو في الأخلاق والتربية.. وكانت شخصيته- وهو المجرد من عناصر القوة الظاهرية- أقوى من شخصية الخليفة وهو حاكم وقد تجلى ذلك في الطواف حول الكعبة.

عاصر من حكام بني أمية يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان.

قضى نحبه عام ٩٥ ودفن في المدينة المنورة.

١- (أم عبد الله) فاطمة بنت الحسن المجتبى عليه السلام

* أولاد الحسن بن علي عليه السلام خمسة عشر ولدا ذكرا وأنثى زيد بن الحسن وأختاه أم الحسن وأم الحسين أمهم أم بشير بنت أبي مسعود بن عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجية والحسن بن الحسن أمه خولة بنت منظور الفزارية وعمرو بن الحسن وأخواه القاسم وعبد الله ابنا الحسن أمهم أم ولد وعبد الرحمن بن الحسن أمه أم ولد والحسين بن الحسن الملقب بالأثرم وأخوه طلحة بن الحسن وأختهما فاطمة بنت الحسن أمهم أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي وأم عبد الله وفاطمة وأم سلمة ورقية بنات الحسن عليه السلام لأمهات شتى[1].

* أولاده عليه السلام ثلاثة عشر ذكراً وابنة واحدة عبد الله وعمر والقاسم أمهم أم ولد والحسين الأثرم والحسن أمهما خولة بنت منظور الفزارية والعقيل والحسن أمهما أم بشير بنت أبي مسعود الخزرجية وزيد وعمر من الثقفية وعبد الرحمن من أم ولد وطلحة وأبو بكر أمهما أم إسحاق بنت طلحة التيمي وأحمد وإسماعيل والحسن الأصغر ابنته أم الحسن فقط عند عبد الله ويقال وأم الحسين وكانتا من أم بشير الخزاعية وفاطمة من أم إسحاق بنت طلحة وأم عبد الله وأم سلمة ورقية لأمهات أولاد[2].

---

(١) المفيد، الشيخ محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد.

(٢) المناقب لابن شهرآشوب

* أبو طالب المكي في قوت القلوب أنه تزوج مائتين وخمسين امرأة وقد قيل ثلاثمائة وكان علي عليه السلام يضجر من ذلك فكان يقول في خطبته إن الحسن مطلاق فلا تنكحوه. أبو عبد الله المحدث في (رامش افزاي) أن هذه النساء كلهن خرجن في خلف جنازته حافيات!!

* روى محمد بن سيرين أنه خطب الحسن بن علي عليه السلام إلى منظور بن ريان ابنته خولة فقال والله إني لأنكحك وإني لأعلم أنك غلق طلق ملق!!![1]

توضيح: رجل غلق بكسر اللام سيئ الخلق ورجل ملق بكسر اللام يعطي بلسانه ما ليس في قلبه وقال الجزري في حديث الحسن إنك رجل طلق أي كثير طلاق النساء.

هل تستطيع عزيزي القارئ أن تجد مخرجا صحيحا من هذه النصوص؟

كيف يمكن لشخص عدت أولاده في أكثر ما قيل بأنهم سبعة عشر ولدا (بين ذكر وأنثى) وبين كونه قد تزوج ثلاثمائة (تنبه للرقم جيدا) ثلاثمائة امرأة، ويظهر أن ذلك كان بالنكاح لا بملك اليمين، كما هو مقتضى الحديث عن الزواج، فإنهم عادة يتكلمون عن الزوجات ثم يتكلمون عن الاماء

---

(١) العجيب أنهم يروون أن الحسن تزوج خولة ولم يكن أبوها موجودا حيث أنها ثيب، بعدما قتل عنها زوجها محمد بن طلحة، فلما سمع أبوها جاء فلما سمع أبوها جاء إلى المدينة وركز رايته على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبق في المدينة قيسي إلا دخل تحتها، ثم قال: أمثلي يغتال عليه في ابنته ؟ فقالوا: لا. فلما رأى الحسن عليه السلام ذلك سلم إليه ابنته فحملها في هودج وخرج بها من المدينة فلما صار بالبقيع قالت له: يا أبه أين تذهب إنه الحسن بن أمير المؤمنين علي عليه السلام وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟! فقال: إن كان له فيك حاجة فسيلحقنا، فلما صاروا في نخل المدينة إذا أبا لحسن والحسين وعبد الله بن جعفر قد لحقوا بهم فأعطاه إياها.. كما عن عمدة الطالب.. ولا ندري ولا من قالوا الخبر ـ كيف يجتمع في وقت واحد أنه يخطب ابنته إليه، وفي نفس الوقت يكون غير موجود وبعترض عندما يعلم؟ وإذا كان قد أنكحه قبل ذلك وهو يعلم بها ذكر وأنك وأنك.. فلماذا يأخذ خولة ويخرج بها حتى صار إلى البقيع أو في نخل المدينة ؟

وأنهن بملك اليمين لا بالنكاح!!

تصور شخصاً فارغاً من كل عمل يريد أن يتزوج ثلاثمائة امرأة (زواجاً دائماً).. فكم يحتاج من المال والوقت لهذه المهمة؟ مع ملاحظة أنه لا يستطيع أن يجمع أكثر من أربع نساء في وقت واحد!! وأنه لكي يتزوج واحدة إضافية فإنه يحتاج إلى الانتظار ثلاثة أشهر حتى تخرج من عدتها مع فرض أن الطلاق رجعي! مع هذا الحساب سوف يحتاج إلى سنة كاملة لكي يكون بإمكانه الزواج بستة عشر امرأة، لو فرضنا أنه يطلق أربعاً في كل دفعة بتلك الصورة.. ويحتاج إلى عشرين سنة لا شغل له ولا عمل لكي ينجز هذه المهمة (!!) التي تتخللها حسابات واعتداد وملاحظة شروط الطلاق الشرعي من كونه بشاهدين عادلين في طهر غير طهر المواقعة والمرأة غير حائض.. الخ.

❁ ❁ ❁ ❁

ثم إننا نجد أن الروايات تنص على أن الله يبغض الرجل المطلاق الذواق، ويكون الإمام الحسن عليه السلام لو صحت رواية صاحب قوت القلوب، مصداقا لها فيكون مبغوضاً لله والعياذ بالله! ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل يبغض كل مطلاق ذواق»[1]. هذا مع ملاحظة تعبير بعض ما نقل وأحياناً عن أمير المؤمنين عليه السلام من أن الحسن مطلاق!!

* في بعض ما نقل أن (الحسن غلق ملق طلق) كلها على وزن (فَعِل) ومعناها سيئ الخلق ومزدوج الشخصية وكثير التطليق.. فهل ترى أن أحدا كالإمام الحسن صاحب الهيبة والإجلال العظيم كما سترى بعد قليل في صفاته يقبل من شخص أن يصفه بهذه الأوصاف على مسمع منه ومنظر، ويتهجم عليه بأنه مزدوج الشخصية وأنه سيئ الأخلاق وهي صفات ليست

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، فروع الكافي، ج٥ ص٦٦.

فيه ويقبل منه ذلك، من أجل أن يتزوج بنت ذلك الشخص الكذائي؟ أي مهانة أرادوها للحسن عليه السلام ثم هل ترى أن طبيعة شخصية الإمام الحسن عليه السلام تناسبها هذه الصفات؟

تعال واقرأ ما ذكر في صفات أبي محمد الحسن المجتبى، وهو قليل من كثير وغيض من فيض، فقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له:

« أشبهت خلقي وخُلقي » فهل تلك أخلاق رسول الله حتى يشابهه فيها؟ ونقل أن فاطمة سألت النبي أن ينحل ابنيها، فقال: « أما الحسن فله هيبتي وعلمي ». ووصفهما بأنهما خير أهل الأرض بعده وبعد أبيهما.. أترى أن ثالث رجل في الأرض غلق ملق طلق؟ وأنه « ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما بلغ الحسن، فقد كان يبسط له على باب داره فإذا خرج وجلس انقطع الطريق فما مر أحد من خلق الله إجلالاً له ».. ولهذا فقد قال له رجل: إن فيك عظمة!! فقال عليه السلام: بل في عزة، إن الله يقول: ﴿**وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[(١)]

* ثم كم كانت الفترة التي أقامها أمير المؤمنين ومعه ابنه الحسن في الكوفة حتى استطاع أن يطلق فيها خمسين امرأة؟ إنها لم تزد على أربع سنوات ونصف تقريبا، مع ما تخللها من حرب الجمل وصفين والنهروان.. والأحداث العاصفة العاصفة التي كانت فيها..!

* ولا يخلو الأمر (الطلاق المذكور) من كونه مشروعا أو غير مشروع.. فإذا كان مشروعا فلماذا ينهى عنه الإمام أمير المؤمنين، وإن كان غير مشروع فكيف يعمله الإمام الحسن؟ وعلى الأول فإما أن يكون راجحا أو غير راجح.. والأول مخالف لما هو في الارتكاز الديني، وللروايات التي تصرح بأنه الله يبغض المطلاق الذواق.. وعلى الثاني فكيف يقوم به الإمام

---

(١) للتفصيل يراجع بحار الأنوار، ج ٤٣

الحسن عليه السلام، بناء على ما هو مقرر من عدم فعل الإمام للمكروه لا سيما إذا كان على نحو الاستمرار والدوام! وإذا كان يخل بموقع الإمام الحسن فقد كان على والده تنبيهه[1].

وهل بلغ الأمر بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا يستطيع أن يأمر الحسن ابنه بشيء وييأس (!!) من قبوله كلامه حتى يضطر إلى تحذير الناس والخطاب العام فيهم؟؟ أن لا يزوجوه.. أو بلغ الأمر بالحسن عليه السلام أنه لا يقبل كلام أبيه ولا يعيره اهتماما لا على سبيل النصيحة ولا على سبيل الأمر والنهي؟

وهكذا يبلغ الأمر ببعض همدان وهم الأسبق إلى طاعة أمير المؤمنين كما هو معروف إلى الرد على الإمام وهو يخطب فيهم بأن لا يزوجوه!! بأنهم سوف يزوجونه بالرغم من نهي علي عليه السلام. وأنهم أعرف منه بالمصلحة!!

وهكذا عزيزي القارئ لو أريد مناقشة التوالي الفاسدة لهذه الفكرة لطال بنا المقام.. لكن يكتفى بهذا المقدار.. ومن هذا المنطلق فمنطلق فإننا لا نستطيع قبول هذه الفكرة، مع أنه توجد روايتان معتبرتان سندا في هذا المجال.. وإن لم يمكن توجيههما ببعض الوجوه، فلا بد من رد علمهما إلى قائليهما على فرض الصدور.

---

(١) نقل العلامة المجلسي في البحار ٤٣: أن قوما من أهل الكوفة قالوا أن الحسن عليه السلام عيٌّ لا يقوم بحجة ولعل ذلك أن المنبر كان سيده أمير المؤمنين عليه السلام فمن يصل إليه؟ فجاء الإمام عليه السلام وأخبر ابنه الحسن عليه السلام بمقالتهم قائلا: قال فيك قوم من الكوفة مقالة أكرهها، وأمره أن يقوم بين الناس خطيبا فصعد الحسن عليه السلام المنبر وخطب خطبة بليغة، فلما أتمها قام الإمام من أقصى الناس يسحب رداءه من خلفه حتى علا المنبر مع الحسن عليه السلام وقبل ما بين عينيه ثم قال له: أُثبت على القوم حجتك ووجبت عليهم طاعتك فويل لمن خالفك!! أفتراه يسكت عن شيء يشين ابنه الحسن عليه السلام كالذي زعموه أو يقوم هو عليه السلام بشين ابنه وعيبه على المنبر ؟

وأخيرا فإنه يفترض أن يتناسب عدد أولاده مع ما زعم من عدد زوجاته المائتين والخمسين أو الثلاثمائة[1]، فلو فرضنا أن نصفهن قد حملن بواحد فقط فإن ذلك يعني وجود مائة وخمسين ولد للحسن عليه السلام مع أنه لم يذكر له أكثر من خمسة عشر ولدا، من زوجات معروفات ضبطت أسماؤهم، ولتوضيح الأمر نقول أن أمير المؤمنين عليه السلام كان له خمسة عشر ولدا من ست حرائر والباقي وهم أحد عشر لأمهات أولاد! والحسين عليه السلام كان له من الولد ستة أولاد وقيل اكثر من ذلك ومن النساء خمس. ولزين العابدين خمسة عشر ولدا من حرة والباقي أمهات أولاد..

* والعجيب أننا لا نجد في ما لُمز به الإمام الحسن من قبل مناوئيه الأمويين الذين كانوا يحاولون كسر شخصية الحسن، والعيب عليه كما يلحظ ذلك من مناظراته مع معاوية وأنصاره. لم يذكر أحد منهم هذه الصفات مع أنها لو كانت في أحد من عامة الناس لعيب بها ولُمز وانتقد، فكيف غفل عنها أولئك مع أنهم كانوا يتحينون الفرص لعيبه؟[2]

❁ ❁ ❁ ❁

معذرة.. عزيزي القارئ، كنا نريد الحديث عن سيدة من سيدات بيت النبوة والرسالة، ووعاء من أوعية الإمامة وهي بنت الإمام الحسن عليه السلام، وقد ساقنا إلى الحديث عن أبيها وزوجاته وما أشيع عنه، ما نراه من التنافر بين ذكر

---

(١) تردد العدد بين سبعين كما قال المدائني الذي أجهد نفسه في الإحصاء بقوله: وتزوج امرأة من بني كذا وامرأة من ثقيف!! هكذا من غير هوية.. ثم لم يستطع أن يأت بعشرة أسماء.. وقال إنه أحصي عددهم فبلغن سبعين!! لكن صاحب قوت القلوب لم يعجبه العدد فصعد به إلى مائتين وخمسين وكأنه استقل العدد فقال إن بعضهم قال: إنهم ثلاثمائة، وجاء المحدث أبو عبد الله في كتابه رامش أفزاي آل محمد فمشّاهن حافيات في جنازته!! أقول: نفس هذا التردد بهذه المسافة بين سبعين وثلاثمائة يضعف هذه الأخبار طرًّا، فقد يتردد الأمر ويشتبه بين عشرة وأحد عشر واثني عشر، لا كالمقدار المذكور.

(٢) راجع (الاحتجاج للطبرسي)، و(البحار للمجلسي ج٤٤).

أبنائه وبناته وتعدادهم القليل وبين ما ذكر من عدد زوجاته.. وإحدى من ذكر المؤرخون من أبنائه عليه السلام هي فاطمة (أو أم عبد الله) زوجة الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام وأم أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام

اقترن الإمام زين العابدين عليه السلام، بأم عبد الله فاطمة ابنة عمه، فكان نتاجهما الإمام الباقر محمد وهو أول علوي بين علوي وهاشمي بين هاشميين وفاطمي بين فاطميين، وقد كانت هذه المرأة الصالحة قد تعلمت على يد أبيها الحسن عليه السلام، ثم زوجها السجاد عليه السلام، وكان حريا بها أن تغدو بعد هذه التربية (صديقة) كما قال الإمام الصادق: كانت صديقة لم يدرك في آل الحسن مثلها!!

وكانت وهي من نسل الإمامة وأيضاً وعاء للإمامة، شديدة القرب من خالقها، كيف لا وهي ترى مناجاة زوجها، وتوسله وتخضعه لله سبحانه وتعالى، مما بقي بعده مجموعا باسم الصحيفة السجادية.. ومن ما يروى في أحوالها ما عن ابنها أبي جعفر الباقر عليه السلام قال كانت أمي قاعدة عند جدار فتصدع الجدار وسمعنا هدة شديدة فقالت بيدها لا وحق المصطفى ما أذن الله لك في السقوط فبقي معلقا حتى جازته فتصدق عنها أبي بمائة دينار.

ويفترض أنها كانت في كربلاء وشهدت الواقعة، وما جرى فيها بالرغم من أننا لا نعثر على حديث صريح في المقاتل عنها، والذي يدعونا إلى ذلك الاعتقاد هو أن ولادتها بالباقر عليه السلام كانت في حدود سنة سبع وخمسين أو ثمان وخمسين، وقد كان الباقر مع أبيه السجاد حاضرين في كربلاء، وليس من الطبيعي أن يكون الباقر وهو في تلك السن المبكرة، وهو ابن سنتين أو ثلاث أن يكون منفردا عن أمه، كما أنه لم يكن من الطبيعي أن يترك الإمام السجاد زوجته في المدينة أو مكة ليخرج إلى كربلاء مع أبيه.. وهو وإن كان له عدة زوجات إلا أن أفضلهن بلا ريب بنت الحسن وأم الباقر عليهما السلام التي كانت (صديقة) كما يقول الإمام الصادق عليه السلام.

وبالرغم من أنها لم ترى بعينيها شهادة أحد من أبنائها، وذلك انه كان لها الباقر وقد كان حينها صغير السن، وعبد الله الباهر كذلك، إلا أنها رأت شهادة إخوتها من أبناء الإمام الحسن (أبي بكر، وعبد الله والقاسم) وجرح الحسن المثنى..

وخرجت من تلك البقعة الطاهرة تاركة خلفها أجساد إخوتها، وأقاربها لتبدأ في معايشة المعاناة المؤلمة لما كانت تراه يجري على زوجها السجاد من المصائب والهموم، فمن تهديده بالقتل قبل الرحيل عندما هجم القوم على المخيمات، إلى محاولة ابن زياد في الكوفة لقتله، إلى مشاكل السفر والسبي.. إلى الشام وما جرى فيها على النساء، وهي صابرة مسلمة أمرها لله سبحانه وتعالى.

ومما يلفت النظر في حياة هذه النساء الصالحات، حسن تعاملهن مع أزواجهن فمع وجود التعدد في الزوجات في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وما يجره هذا في العادة بين النساء من المشاحنات، والاختلاف إلا أننا نجد عند دراستنا لحياة المعصومين الشخصية، انعدام هذه الحالات أو قلتها إلى أدنى الحدود، بحيث لم يؤثر ظهور تلك الحالات على السطح إلا نادرا.

٢- فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام

توفيت حوالي سنة ١١٠هـ

❁ ❁ ❁ ❁

« ولكني أختار لك ابنتي فاطمة فأما في الدين فهي تقوم الليل وتصوم النهار، وفي الجمال تشبه الحور العين.. ».

❁ ❁ ❁ ❁

يعتمد الإسلام في صنع نهضة المجتمع على بناء الإنسان، وتربيته، ولذلك فهو يتوجه إلى الوالدين ويحملهم أولا مسؤولية تربية الأولاد، ويرى أن تأثير التربية الصالحة أقوى من تأثير الظروف المحيطة، والضغوط الخارجية، وإن كان هذا لا يعني أن تأثيرها حتمي لا مرد له، فقد يمكن أن تتهيأ التربية الصالحة، ولكن لا يكون الشخص صالحا لاستقبال خيراتها، أو تغلبه شهواته، ولكن القاعدة هي ما ذكرنا.. ولهذا يقول الإمام زين العابدين عليه السلام محملا الوالدين مسؤولية الأولاد: « وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره وأنك مسؤول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة له على طاعته فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه معاقب على الإساءة إليه »[1].

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦٧ ص٧.

وإنما أُتي مجتمعنا، واخترق حين أصبحت تربية الوالدين أبناءهما إلى مسألة هامشية، فالرجل يخرج ليقضي سحابة نهاره في عمله، وإذا فرغ من عمل دخل في آخر، وإذا عاد إلى البيت هو متعب لا يريد أن يسمع ولا يتكلم، ولا.. وإنما يريد أن يرتاح، وربما وجد أنسه خارج المنزل بعيدا عن مشاكل الأبناء والبنات، فليمرح قليلا مع الصحب والأصدقاء!!

والأم إما هي امرأة عاملة، وحالها حال الزوج، وإما غير مسيطرة في داخل المنزل في حال غياب الزوج لا الجغرافي والفيزيائي وإنما النفسي، فتتشكل أخلاق الأولاد بلا توجيه، ونفسياتهم من دون تربية. وهنا يكون الموجه هو التلفزيون وما يعرضه من أفكار باطلة عن الحياة، وهي أسوأ من المناظر الخلاعية والفاسدة، فهذه تثير شهوة مؤقتة، وتلك تفسد مسار حياة كامل، فـ«تبعد عليه القريب وتقرب عليه البعيد». ويكون المربي هو الشارع والأصدقاء، وهم إن لم يكونوا أسوأ حالا من هذا الولد فليسوا بأحسن حالا إذ هم يعانون نفس المشكلة لو لم يكن أكثر. نعم تبقى هناك صور طيبة، وهي التي نلاحظ آثارها في صلاح المجتمع من تحمل الوالدين لمسؤولية التربية، والحرص عليها، واعتبارها الدور الأول، قبل إعداد الطعام، وجلب المال، وما نراه من خير، وصلاح في العوائل مرده إلى هذا التوجه.

ولكي نستهدي بطريق أهل البيت عليهم السلام، ونتبين مقدار أثر التربية في إنتاج النماذج الفريدة، نأخذ مثلا من حياة فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام. فقد بلغت بتربية أبيها، واستعداد نفسها إلى أن أصبحت تلك العالمة المحدثة التي يروي عنها الفريقان الكثير من الأحاديث، وتلك العابدة التي كانت «تقوم الليل كله وتصوم النهار»، وتلك المؤتمنة على ودائع النبوة ومواريث الإمامة عندما استودعها الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء كتابا ملفوفا ووصية[1].

(١) في رواية ـ في الكافي ج١ ـ وفي طريقها أبو الجارود زياد بن المنذر، ولا توثيق له لكن يمكن أن يستفاد حسن حاله من روايته عن المشايخ الثقات الذين قيل إنهم لا يروون =

وهي اللبوأة الحسينية التي تقف أمام جموع أهل الكوفة بتقرعهم بنوازل التوبيخ، وصواعق اللوم، وتحملهم مسؤولية الإثم الذي ارتكبوه، وأنه لا كفارة له إلا نصرة المنهج، والاستمرار في معارضة الظلم. وهي المربية التي تنشئ أولئك الأبطال الثائرين من نسل الإمام الحسن عليه السلام حتى عادت علامة فارقة لآل الحسن فيما بعد، أنهم حاملو راية الثورة المسلحة، وحليفو السجون المظلمة والمهاجر النائية.

الراوية العالمة:

بالرغم من أن فاطمة لم تعاصر جدتها الزهراء، أو جدها أمير المؤمنين عليهما السلام، إلا أن كونها في بيت النبوة قد ساعدها، على أن تكون نظرة واضحة عما جرى إثر رسول الله صلى الله عليه وآله، وعرفت مقدار الظلم الذي لحق بجدها أمير المؤمنين وأمها الزهراء، لذلك طفقت تتحدث عن تلك الفترة، وتنقل خبر الظلامة إلى من يسمعها، فهاهي تروي حال أمها الزهراء عليها السلام، بعد أن اشتدت علتها ومرضها بعد حوادث السقيفة:

- حدثنا أحمد بن الحسن القطان قال: حدثنا عبدالرحمن بن محمد الحسيني قال: حدثنا أبو الطيب محمد بن الحسين بن حميد اللخمي قال: حدثنا أبو عبدالله محمد بن زكريا قال: حدثنا محمد بن عبدالرحمن المهلبي قال: حدثنا عبدالله بن محمد بن سليمان عن أبيه عن عبدالله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عليهما السلام قال: لما اشتدت علة فاطمة بنت رسول الله

= ولا يرسلون إلا عن ثقة، وكذلك من كونه لم يستثن من كتاب نوادر الحكمة. ثم إنه سيأتي في ذكر حكيمة بنت الإمام الجواد عليهما السلام أن الحسين بن علي عليهما السلام أوصى إلى أخته زينب بنت علي عليهما السلام في الظاهر فكان ما يخرج عن علي بن الحسين عليهما السلام من علم ينسب إلى زينب عليها السلام سترا على علي بن الحسين عليهما السلام، ولا تعارض بين ما سيذكر هناك وما هو هنا، فإن المذكور في هذه الرواية أنه ائتمنها على الوصية الكتابية لتحفظها حتى إذا رجعوا إلى المدينة، وتخلصوا من الأسر أعطتها إلى الإمام السجاد عليه السلام.

صلوات الله عليها اجتمع عندها نساء المهاجرين الأنصار فقلن لها: يا بنت رسول الله كيف أصبحت من علتك فقالت: أصبحت والله عائفة لدنياكم قالية لرجالكم لفظتهم قبل أن عجمتهم وشنأتهم بعد أن سبرتهم فقبحا لفلول الحد وخور القناة وخطل الرأي وبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون لا جرم لقد قلدتهم ربقتها وشننت عليهم عارها فجدعا وعقرا وسحقا للقوم الظالمين ويحهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الوحي الأمين والطبين بأمر الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين وما نقموا من أبي حسن نقموا والله منه نكير سيفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله عز وجل والله لو تكافوا عن زمام نبذه رسول الله ﷺ لاعتلقه ولسار بهم سيراً سجحاً لا يكلم خشاشه ولا يتعتع راكبه ولا وردهم منهلاً نميراً فضفاضا تطفح ضفتاه ولا صدرهم بطاناً قد تخير لهم الري غير متحل منه بطائل إلا بغمر الماء وردعه سورة الساغب ولفتحت عليهم بركات السماء والارض وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون ألا هلم فاسمع وما عشت أراك الدهر العجب وإن تعجب وقد أعجبك الحادث إلى أي إسناد استندوا وبأية عروة تمسكوا استبدلوا الذنابى والله بالقوادم والعجز بالكاهل فرغما لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون أما لعمر إلهك لقد لقحت فنظرة ريثما تنتجوا ثم احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً وزعافاً ممقراً هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الأولون ثم طيبوا عن أنفسكم نفسا واطمأنوا للفتنة جأشا وأبشروا بسيف صارم وهرج شامل واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيدا وزرعكم حصيدا. فيا حسرتا لكم وأنى بكم وقد عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون..[1]

(١) الصدوق، الشيخ محمد بن الحسين، معاني الأخبار، ص٣٥٤.

ولم يقتصر الأمر على جانب التشكّي والتظلّم، وإنما كان لها دور مهم في رواية مناقب وفضائل أمير المؤمنين عليه السلام والسائرين على خطه، وفي اعتقادنا أن المناقب والفضائل لم يقصد بها (لا في أصل إنشائها من قبل رسول الله ولا في نشرها من أهل البيت وأشياعهم) لم يقصد بها الافتخار والمباهاة، كما قد يتصور بعض الغافلين وإنما هي لأجل التأكيد على سلامة الخط الذي يقوده أمير المؤمنين وذريته المعصومين، وكان الرسول صلى الله عليه وآله، يرى بعينه الثاقبة المستقبل، وماذا سيجري على أمته من سراق الدعوة، وقطاع الطرق على الناس، والمتصيدين لغفلتهم، فأراد أن يضع علامات واضحة، على طريق الهداية حين تتفرق الأحزاب، وتتشعب المذاهب، وصرح في ذلك ولمح، إلى أن «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار». وأنه «مع القرآن والقرآن مع علي».

وكان لفاطمة بنت الحسين عليهما السلام دور مهم في هذا الشأن، فقد روت عن أبيها عن أمه الزهراء عليها السلام «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله عشية عرفة، فقال: إن الله باهى بكم وغفر لكم عامة ولعلي خاصة، وإني رسول الله إليكم غير محاب لقرابتي، إن السعيد كل السعيد من أحب عليا في حياته وبعد موته». وروت احتجاج أمها الزهراء عليها السلام مما يكشف لنا أيضا جانبا خفيا في تاريخها عليها السلام على معاصريها ممن أنكر حق أمير المؤمنين عليه السلام، فقالت: «أنسيتم قول رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه، وقوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام»؟

وروت عن أبيها الحسين عليه السلام، فقد نقل في البحار عن عبد الله بن الحسن بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو بهذا الدعاء بين كل ركعتين من صلاة الزوال الركعتان الأوليان اللهم أنت أكرم مأتي وأكرم مزور وخير من طلبت إليه الحاجات وأجود من أعطى وأرحم من استرحم وأرأف من عفا وأعز من اعتمد عليه اللهم بي إليك فاقة ولي إليك حاجات ولك عندي طلبات من ذنوب أنا بها

مرتهن وقد أوقرت ظهري وأوبقتني وإلا ترحمني وتغفر لي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ اللهم إني اعتمدتك فيها تائباً إليك منها فصل على محمد وآله واغفر لي ذنوبي كلها قديمها وحديثها سرها وعلانيتها وخطاها وعمدها صغيرها وكبيرها وكل ذنب أذنبته وأنا مذنبه مغفرة عزما جزما لا تغادر ذنبا واحدا ولا أكتسب بعدها محرما أبدا واقبل مني اليسير من طاعتك وتجاوز لي عن الكثير من معصيتك يا عظيم إنه لا يغفر العظيم إلا العظيم ﴿**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ يا من هو كل يوم في شأن صل على محمد وآله واجعل لي في شأنك شأن حاجتي وحاجتي هي فكاك رقبتي من النار والأمان من سخطك والفوز برضوانك وجنتك وصل على محمد وآل محمد وامنن بذلك علي وبكل ما فيه صلاحي وأسألك بنورك الساطع في الظلمات أن تصلي على محمد وآل محمد ولا تفرق بيني وبينهم في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير[١]...

وتقدم ابن عمها الحسن بن الإمام الحسن السبط عليه السلام، إلى أبيها الحسين عليه السلام، طالبا الزواج من إحدى ابنتيه، فقال له: «أما سكينة فإن الغالب عليها الاستغراق مع الله.. ولكني أختار لك ابنتي فاطمة.. أما في الدين فتقوم الليل كله وتصوم النهار، وفي الجمال فهي تشبه الحور العين»، وانتقلت إلى بيت الحسن المثنى، لتنجب له من الأولاد هم: عبد الله (المحض)، والحسن (المثلث)، وإبراهيم، وبنت وهي أم جعفر.

امرأة في وجه المجتمع الراكد:

كان ممن خرج مع الحسين عليه السلام في نهضته الكبرى أبناء أخيه الحسن السبط عليه السلام، ومنهم الحسن (المثنى)، وقاتل كما قاتل إخوته، لكن مشيئة الله كانت أن يجرح وتقطع يده فيؤسر بعد أن قتل ثمانية عشر رجلا من أعداء الحسين عليه السلام، ثم يستخلصه فيما بعد في الكوفة أسماء بن خارجة الفزاري،

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٨٤ ص٦٦.

حيث أن أمه خولة بنت منظور كانت من بني فزارة، وكانت بنت الحسين عليه السلام فاطمة في ضمن ركب الأسارى الذين جيء بهم إلى الكوفة ثم أرسلوا إلى الشام.

وكان ينبغي للمجتمع الكوفي، صفعة وجدان، وصعقة ضمير حتى يتنبه إلى عظم الجريمة التي ارتكبها بالخذلان، وارتكبت أمام عينيه من دون أن يحرك ساكنا.. ذلك المجتمع الذي يختلف قلبه وعقله، فيحكم له الثاني بشيء بينما يطيع بسقم إرادته الأول، وتختلف ظواهره عن سرائره، فإذا به مرعى زاهٍ على دمنة وعذرات نجسة، وإذا بالقلوب في مكان والسيوف في مكان آخر. ذلك المجتمع الذي كان الدين يحتاج فيه إلى دم مجاهديه، فاكتفى بكسرات الخبز والجوز يعطيها لأطفال الحسين، وكان الإسلام يحتاج منه إلى موقف صارم تحركه إرادة الجهاد والاستشهاد، فاكتفى بالبكاء الخذول.

مثل هذا المجتمع لا ينفع فيه التبرير لوضعه، ولا المجاملة لفعله، بل لا بد من شحذ الحقيقة أمامه واضحة كالسيف، وإلا لن يتنبه.. وهذا ما فعلته فاطمة عليها السلام، فعندما وصلوا إلى الكوفة، قامت فاطمة وسط الجمع خطيبة فيهم فقالت:

الحمد لله عدد الرمل والحصى، وزنة العرش إلى الثرى، أحمده واومن به وأتوكل عليه، وأشهد: أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أولاده ذبحوا بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات، اللهم إني أعوذ بك أن أفتري عليك الكذب، وأن أقول خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهود لوصيه علي بن أبي طالب عليه السلام، المسلوب حقه المقتول من غير ذنب كما قتل ولده بالأمس في بيت من بيوت الله وبه معشر مسلمة بألسنتهم تعسا لرؤوسهم! ما دفعت عنه ضيماً في حياته ولا عند مماته حتى قبضته إليك محمود النقيبة طيب الضريبة معروف المناقب مشهور المذاهب لم تأخذه فيك لومة لائم ولا عذل عاذل هديته يا رب للاسلام صغيرا وحمدت مناقبه كبيرا ولم يزل ناصحا لك ولرسولك صلى الله عليه وآله وسلم صلواتك عليه وآله حتى

قبضته إليك زاهداً في الدنيا غير حريص عليها راغباً في الآخرة مجاهداً لك في سبيلك رضيته فاخترته وهديته إلى طريق مستقيم.

أما بعد يا أهل الكوفة! يا أهل المكر والغدر والخيلاء إنا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا فجعل بلاءنا حسنا وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا فنحن عيبة علمه ووعاء فهمه وحكمته وحجته في الأرض في بلاده لعباده أكرمنا الله بكرامته وفضلنا بنبيه ﷺ على كثير من خلقه تفضيلا فكذبتمونا وكفرتمونا ورأيتم قتالنا حلالا وأموالنا نهبا كأنا أولاد الترك أو كابل، كما قتلتم جدنا بالأمس وسيوفكم تقطر من دمائنا أهل البيت لحقد متقدم.. قرت بذلك عيونك وفرحت به قلوبكم اجتراءً منكم على الله ومكرا مكرتم والله خير الماكرين فلا تدعونكم أنفسكم إلى الجذل بما أصبتم من دمائنا ونالت أيديكم من أموالنا فان ما أصابنا من المصائب الجليلة والرزايا العظيمة في كتاب من قبل إن نبرأها أن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور.

تباً لكم! فانتظروا اللعنة والعذاب فكأن قد حل بكم وتواترت من السماء نقمات فيسحتكم بما كسبتم ويذيق بعضكم بأس بعض ثم تخلدون في العذاب الأليم يوم القيامة بما ظلمتمونا ألا لعنة الله على الظالمين. ويلكم أتدرون أية يد طاعنتنا منكم أو أية نفس نزعت إلى قتالنا، أم بأية رجل مشيتم إلينا تبغون محاربتنا قست قلوبكم وغلظت أكبادكم وطبع على أفئدتكم وختم على سمعكم وبصركم وسول لكم الشيطان وأملى لكم، وجعل على بصركم غشاوة فانتم لا تهتدون. تبا لكم يا أهل الكوفة! كم من ترات لرسول الله ﷺ قبلكم وذحول له لديكم ثم غدرتم بأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام جدي وبنيه عترة النبي الطيبين الأخيار وافتخر بذلك مفتخر فقال:

نحن قتلنا عليا وبني علي بسيوف هندية ورماح
وسبينا نساءهم سبي ترك ونطحناهم فأي نطاح

بفيك أيها القائل الكثكث ولك الأثلب افتخرت بقتل قوم زكاهم الله وطهرهم واذهب عنهم الرجس فاكظم واقع كما أقعى أبوك وإنما لكل امرئ ما اكتسب وما قدمت يداه حسدتمونا ويلاً لكم على ما فضلنا الله.

فما ذنبنا إن جاش دهر بحورنا   وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء وقالوا: حسبك يا بنت الطيبين! فقد أحرقت قلوبنا وأنضجت نحورنا وأضرمت أجوافنا[1]

نقاط في الحياة الشخصية: عمرها وزواجها:

لماذا أخرنا هذا الجانب، مع أنه يبتدأ به عادة؟ ذلك لأن هذا الجانب فائدته الأساسية نظرية، بينما ما سبقه فيه فائدة عملية، ومجال الاقتداء فيه لمن أراد مفتوح..

ذكر المحقق السيد المقرم ﵀ في حاشية مقتل الحسين ﵇ صفحة ٣١٤، أن ولادتها في سنة ٣٠ هجري تقريبا، وعمرها يوم الطف كذلك (أي ثلاثون) وأنها توفيت قبل أختها سكينة بسبع سنوات، فتكون وفاتها في سنة ١١٠، وأن عمرها حين توفيت يقارب التسعين.. وقد نقل ذلك عن عدد من المصادر جامعا بين ما ذكروا، ولم يعلق عليه.

لكن يمكن التأمل في ما ذكر، فإضافة إلى أن ذلك ينتج أن عمرها يوم الطف يكون أكبر المذكور، إذ تكون ولادتها بناء على أن وفاتها في سنة ١١٠هـ وعمرها كما قالوا تسعون سنة فيكون ميلادها في سنة عشرين، وتكون يوم الطف في سن الحادية الأربعين، فلا يتم لهم ما أرادوا من أن عمرها يوم الطف ثلاثون سنة. يضاف إلى ذلك أن جملة من الروايات

---

(١) الطبرسي، الشيخ أحمد بن علي، الاحتجاج ٢/ ٢٧

المتعلقة بوصف حادثة المقتل وما بعده في الشام قد ذكرت فيها فاطمة بعنوان الجارية، والجارية الصغيرة في مواضع أخرى، ولا يطلق هذا اللفظ على من يكون سنها يوم الطف ثلاثين سنة. فقد روى في العوالم عنها. [١]

– أمالي الصدوق قدس سره: ابن المتوكل عن السعد آبادي عن البرقي عن أبيه عن محمد بن سنان عن أبي الجارود زياد بن المنذر عن عبدالله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عليه السلام قالت: دخلت العامة علينا الفسطاط وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب فجعل رجل يفض الخلخالين من رجلي وهو يبكي فقلت: ما يبكيك يا عدو الله فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أتسلبني؟ قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه. قالت: وانتهبوا ما في الأبنية حتى كانوا ينزعون الملاحف عن ظهورنا. أقول: في بعض كتب الأصحاب أن فاطمة الصغرى[٢] قالت: كنت واقعة بباب الخيمة وأنا أنظر إلى أبي وأصحابه مجزرين كالأضاحي على الرمال والخيول على أجسادهم تجول وأنا أفكر فيما يقع علينا بعد أبي من بني أمية أيقتلوننا أو يأسروننا فإذا برجل على ظهر جواده يسوق النساء بكعب رمحه وهن يلذن بعضهن ببعض وقد أخذ ما عليهن من أخمرة وأسورة وهن يصحن: واجداه وأبتاه واعلياه واقلة ناصراه واحسناه أما من مجير يجيرنا أما من ذائد يذود عنا قالت: فطار فؤادي وارتعدت فرائصي فجعلت أجيل بطرفي يمينا وشمالا على عمتي أم كلثوم خشية منه أن يأتيني.

فبينا أنا على هذه الحالة وإذا به قد قصدني ففررت منهزمة وأنا أظن أني

(١) البحراني، عوالم العلوم، (حياة الإمام الحسين) ٣٦٠

(٢) لا أعلم هل أن لقب الصغرى هو بالقياس إلى فاطمة بنت علي أمير المؤمنين التي كانت أيضا في كربلاء، والتي ذكر الأزدي في المقتل أنها هي التي طلب الرجل الشامي من يزيد أن يهبه إياها. أو غيرها، ولكن بناء على أن للحسين بنتا بقيت في المدينة وأن اسمها فاطمة تكون تلك الباقية في المدينة هي الصغرى وهذه الكبرى.. وعلى أي حال فالرواية السابقة قد عينت المقصودة بكونها أم عبد الله بن الحسن وهي التي نتحدث عنها.

أسلم منه وإذا به قد تبعني فذهبت خشية منه وإذا بكعب الرمح بين كتفي فسقطت على وجهي فخرم أذني وأخذ قرطي ومقنعتي وترك الدماء تسيل على خدي ورأسي تصهره الشمس وولى راجعا إلى الخيم وأنا مغشي علي وإذا أنا بعمتي عندي تبكي وهي تقول: قومي نمضي ما أعلم ما جرى على البنات وأخيك العليل فقمت وقلت: يا عمتاه هل من خرقة أستر بها رأسي عن أعين النظار فقالت: يا بنتاه وعمتك مثلك فرأيت رأسها مكشوفة ومتنها قد اسود من الضرب فما رجعنا إلى الخيمة إلا وهي قد انتهبت وما فيها وأخي علي بن الحسين عليه السلام مكبوب على وجهه لا يطيق الجلوس من كثرة الجوع والعطش والأسقام فجعلنا نبكي عليه ويبكي علينا..

وقد نحتمل أن عمرها كان في يوم الطف في حدود الثالثة عشر أو الرابعة عشر، وذلك بملاحظة عمر زوجها، فإنها قدمت إلى كربلاء مع زوجها الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط عليه السلام، وهذا قد توفي في سنة ٩٧هـ كما ذكر في البداية والنهاية ج ٩/ ٢٠٢.. وعمره أكثر من ثلاثة وخمسين (وإن ذكر الشيخ المفيد في الإرشاد أنه توفي مسموما وعمره خمس وثلاثون سنة، إلا أنه لا يمكن قبوله ويحتمل أن تصحيفا حصل في الطبع فبدل أن يطبع ٥٣ عكست. أو أن المقصود من ذلك أنه توفي بعد الطف بخمسة وثلاثين عاما وهذا يتفق مع ما ذكر من تاريخ وفاته) إذ يظهر أن وفاته في سنة ٩٧هـ متسالم عليها، ويحتمل أن ما ذكره في الأعيان من أن عمره في حادثة كربلاء كان في حدود السابعة عشر ليس بعيداً..

ومع هذا لا يعقل أن يتزوج من هو في هذا السن امرأة في سن الثلاثين فضلا عن الأربعين كما ذُكر قبل قليل. خصوصا أن الرواية الواردة في زواجه تتحدث عن أنه أراد الزواج بإحدى ابنتي الحسين سكينة أو فاطمة أو أن الحسين اختار له إحداهما، ويفترض أنهما في سن متقارب وأنه أيضا في سن مناسب للزواج بهما.

❁ ❁ ❁ ❁

وأما قضية زواجها بعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فقد ذكر ذلك في مقاتل الطالبيين فقال:

لما حضرت الحسن بن الحسن الوفاة جزع وجعل يقول: إني لأجد كرباً ليس من كرب الموت فقال له بعضهم: ما هذا الجزع تقدم على رسول الله ﷺ وهو جدك وعلى علي والحسن والحسين وهم آباؤك.

فقال: ما لذلك أجزع ولكني كأني بعبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان حين أموت قد جاء في مضرجتين أو ممصرتين وقد رجل جمته يقول: أنا من بني عبد مناف جئت لأشهد ابن عمي وما به إلا أن يخطب فاطمة بنت الحسين فإذا مت فلا يدخلن علي. قال: فصاحت به فاطمة: أتسمع؟ قال: نعم. قالت: أعتقت كل مملوك لي وتصدقت بكل مملوك لي إن أنا تزوجت بعدك أحداً.

قال: فسكن الحسن وما تنفس وما تحرك حتى قضى -رضي الله عنه- فلما ارتفع الصياح اقبل عبدالله على الصفة التي ذكرها الحسن فقال بعض القوم: ندخله وقال بعضهم: لا ندخله وقال قوم: وما يضر من دخوله فدخل. وفاطمة رضوان الله عليها تصك وجهها فأرسل إليها وصيفا كان معه فجاء فتخطى الناس حتى دنا منها فقال لها: يقول لك مولاي اتقي على وجهك فان لنا فيه أربا.

قال: فأرسلت يدها في كمها وعرف ذلك فيها فما لطمت حتى دفن. فلما انقضت عدتها خطبها فقالت: كيف بنذري ويميني؟ فقال: نخلف عليك بكل عبد عبدين وبكل شئ شيئين. ففعل فتزوجته ... انتهت الرواية الأولى. وهناك سيناريو آخر قريب منه، لنستمع إليه: أيضا في المقاتل..

وقد حدثني أحمد بن سعيد في أمر تزويجه إياها عن يحيى بن الحسن عن أخيه أبي جعفر عن محمد بن عبدالله البكري عن إسماعيل بن يعقوب: أن

فاطمة بنت الحسين لما خطبها عبدالله أبت أن تتزوجه فحلفت أمها عليها أن تزوجه وقامت في الشمس وآلت ألا تبرح حتى تزوجه فكرهت فاطمة أن تحرج فتزوجته.

ولنا هنا عدة ملاحظات، مع علمنا بأن لا مشكلة في أن يتزوج امرؤ مسلم بسيدة من أهل بيت النبوة كفاطمة، فإنهم حتى وإن ذكروا في بعض مذاهب المسلمين أن غير بني هاشم من سائر المسلمين لا يكافئون بني هاشم كما ذكر ابن قدامة المقدسي الحنبلي في كتابه المغني[1]، إلا أن شيعة أهل البيت لا يلتزمون بذلك في حد نفسه، نعم لو انطبقت عناوين أخرى يمكن الالتزام به. وإن كنا نرى سعيا حثيثا عند غير شيعة أهل البيت لإلصاق قضية الزواج من نساء أهل البيت، بصورة أو أخرى، مثل موضوع زواج الخليفة الثاني ببنت أمير المؤمنين عليه السلام، والخليفة الثالث ببنتي رسول الله، ومصعب بن الزبير بسكينة بنت الحسين، وغيرهم.. ولا نعلم هل هذا جزء من التوظيف لخدمة النظرية، وأن العلاقة بين أولئك لم يكن يشوبها ما يكدر الخاطر، وبالتالي فمشاركة مصعب بن الزبير ثورة أخيه عبد الله الذي لو استقر له الأمر لأحرق بني هاشم، كما يذكر المؤرخون في أحواله.. مثل هذه الأحداث لا ينبغي النظر إليها..

ولن نطيل الحديث كثيراً في الطريقة التي يتحدثون بها عن كيفية الزواج، وما يعبّأ فيها من توهين مقصود لنساء أهل البيت عليهم السلام، فهذا أمير المؤمنين كما زعموا يرسل ابنته إلى الخليفة الثاني وهي صغيرة ليكشف عن أعلى ساقيها، وهذه فاطمة بنت الحسين يكلمها وصيف وخادم في وسط النساء وهي تلطم وجهها، فيرى وجهها وغير ذلك، ويطلب منها الكف عن اللطم لكي يتمتع عبد الله العثماني بذلك الوجه، حتى عرف ذلك فيها وسكتت وانمحى حزنها.. نعم فقد أرسلت إليها السماء هذا الكنز العظيم،

(١) المغني، ج٧ ص٣٧٥.

الذي يستحق أن ينسى حزن الزوج في لحظة واحدة لأجله!! وماذا ينقصه أليس حفيد الخليفة الثالث؟؟ فلابد إذن أن تركض وراءه فاطمة بنت الحسين!! أرأيت الاستهانة بالعقول؟ وفي رواية أخرى ينقلها صاحب أعلام النساء[1] عن عدة مصادر (!!) مفادها أنها هي التي أرسلت (!!) له مولاة لها قائلة: إيتي عبد الله بن عمرو فقولي له: أعرنا بغلتك الشهباء برحالتها فإني أريد أن أصير إلى بعض أموال ولدي بالعالية.. فأتته فقال: لو كان لي إلى مولاتك سبيل؟ ارحلوا لها البغلة.. فلما جاءت سألتها مولاتها: عما قال لها، فأخبرتها، فقالت فاطمة: ويلك وأين المذهب عنه؟ فأرسل إليها فخطبها؟؟؟ ولا نعلم ما هو السر في هذا الرجل الذي تتهافت عليه فاطمة فتستجدي منه بغلة لكي تصل إلى أموال ولدها.. وتدبر الأمر هي بنفسها حتى يحصل هذا الاتصال، وتنعدم السبل أمامها فلا تجد بغلة في الأرض إلا بغلة ذلك الرجل؟ فإذا بين لها أن له بها رغبة تراها تقتتل عليه.. وأين المذهب عنه؟

ولا أدري كيف يمكن التوفيق بين كل هذه الروايات، الرواية الأولى التي تصور الخاطب وكأنه يمتلك (ريموت كونترول) بحيث بمجرد أن أرسل رسالته عبر الوصيف، أدخلت فورا يدها في كمها حتى عرف ذلك منها، ولم تلاحظ حتى مقتضى الحال أن تخفف بالتدريج حزنها!! وبين الرواية الثانية التي ينقلها نفسه، والتي فيها أنها لم تقبل به حتى قامت أمها في الشمس وحلفت أنها لن تبرح إلا بعد قبولها؟؟ والرواية الثالثة التي يظهر أن صاحبها كبر عليه أن يتنازل عبد الله بن عمرو فيأتي لبيتها، فأورد قصة مفادها أنها هي التي أرسلت له جاريتها وهي التي دبرت أمر الخطبة، (ببركة البغلة الشهباء)!!

وعلى كل حال يمكن مناقشة ما ذكروا أيضاً:

إذا كانت كما ذكروا قد توفيت في سنة ١١٠، وكان عمرها تسعين

(١) كحالة، عمر، أعلام النساء، ج٤ص٤٤.

سنة، فهذا يعني أنها قد ولدت في سنة عشرين للهجرة، وهذا معناه أن عمرها يوم الطف أربعين سنة، وتكون حين وفاة زوجها الحسن المثنى سنة ٩٧ هـ في سن السابعة والسبعين فهل ترى أحدا يقدم على الزواج من امرأة في هذا السن، ويرى معاصمها.. إلى آخر ما ذكروه؟ ثم تنجب هذه المرأة ذات السابعة والسبعين له ثلاثة من الأولاد؟

ولا يسلم من هذا الإشكال حتى من ادعى أنها قد توفيت وعمرها سبعون سنة، إذا على هذا تكون عند وفاة زوجها الذي توفي في سنة ٩٧ هـ كما سيأتي، في سن السابعة والخمسين، وهي ليست في سن يناسبه ذلك التغزل بوجهها ومعاصمها كما أوردوه، ولا هي في سن تسمح لها بإنجاب عدد من الأبناء منه كما ذكروا.

ونحن وإن لم نقبل هذا التاريخ لولادتها إلا أنه على كل تقدير من الثابت أنها كانت إلى سنة ٩٧ هـ في زوجية الحسن المثنى حين توفي ولم يثبت بعد ذلك زواجها من أحد.

ومعها لو فرضنا زواجها فإن حملها وولادتها ثلاثة أبناء في هذا السن الذي يتجاوز سن اليأس الطبيعي[1] عند المرأة أمر غير معقول بل إن من الثابت أن عبد الله بن عمر بن عثمان الذي ادعي زواجه منها قد توفي في سنة ٩٦هـ كما ذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية في ج ٩/ ١٩٧، فكيف يتزوجها بعد نهاية عدتها والحال انه توفي قبل وفاة زوجها الحسن المثنى الذي يذكرون أنه توفي في سنة ٩٧هـ؟ والعجيب أنه في البداية والنهاية قد ذكر تاريخي الوفاة لهما ومع ذلك لم يلتفتوا إلى الالتزام بلوازمهما.

---

(١) وهذا لا يخالف ما ورد من الروايات المشيرة إلى أنه إذا بلغت المرأة خمسين سنة لم تر حمرة إلا أن تكون امرأة من قريش فهي إضافة إلى ضعف أسانيد بعضها، لا تتكفل بإثبات أن كل امرأة قرشية يجب أن يحصل لها هذا الأمر، وإنما مع فرض خروج الدم بصفاته المعهودة يحكم عليها بالتحيض.

ثم إنهم يذكرون أن عبد الرحمن بن الضحاك الفهري لما ولاه يزيد بن عبد الملك المدينة، في حدود سنة ١٠١هـ قد بعث إليها يخطبها، مهددا بأنه إن لم تستجب له، فسيقيم أكبر أولادها للجلد تحت السياط، فبعثت برسالة إلى يزيد بن عبد الملك، فانتقم منه كما ذكر ذلك اليعقوبي في تأريخه، وفي الأخبار الطوال، وغيرهما. فكيف يخطب هذا الرجل امرأة قد فرضوا أنها زوجة لعبد الله بن عمرو بن عثمان، ولتوها كان قد توفي زوجها الحسن المثنى؟ فإن كانت زوجة عبد الله بعد الحسن المثنى وأنه عرض في خطبتها في أثناء حدادها كما زعموا فتزوجها بعد نهاية عدتها، فكيف يخطبها عبد الرحمن الفهري وهي ذات بعل؟ وأين كان عنها زوجها فيما يزعمون عبد الله بن عمرو؟ وإن كانت خلية من الزوج حتى سنة ١٠١ هـ حين أراد الفهري الزواج

ثم إنهم يذكرون أن عبد الرحمن بن الضحاك الفهري لما ولاه يزيد بن عبد الملك المدينة، في حدود سنة ١٠١ هـ قد بعث إليها يخطبها، مهددا بأنه إن لم تستجب له، فسيقيم أكبر أولادها للجلد تحت السياط، فبعثت برسالة إلى يزيد بن عبد الملك، فانتقم منه كما ذكر ذلك اليعقوبي في تأريخه، وفي الأخبار الطوال، وغيرهما. فكيف يخطب هذا الرجل امرأة قد فرضوا أنها زوجة لعبد الله بن عمرو بن عثمان، ولتوها كان قد توفي زوجها الحسن المثنى؟ فإن كانت زوجة عبد الله بعد الحسن المثنى وأنه عرض في خطبتها في أثناء حدادها كما زعموا فتزوجها بعد نهاية عدتها، فكيف يخطبها عبد الرحمن الفهري وهي ذات بعل؟ وأين كان عنها زوجها فيما يزعمون عبد الله بن عمرو؟ وإن كانت خلية من الزوج حتى سنة ١٠١ هـ حين أراد الفهري الزواج بها فكيف تصح رواية أنها خرجت من العدة فتزوجت مع أن الفاصل بين وفاة الحسن المثنى وبين مجيء الفهري للمدينة واليا أكثر من أربع سنوات؟

وعلى كل حال فهذه الروايات لا يمكن قبولها، للتهافت الموجود في مضمونها.

٣- عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية زوجة المختار الثقفي.

❁ ❁ ❁ ❁

شهيدة بيد مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ.

❁ ❁ ❁ ❁

شهادة أرزقها فأتركها؟ كلا!! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيتهوالله لا يكون، آتي مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن أبي طالب!! اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته.

عمرة بنت النعمان عندما قدمت للقتل.

❁ ❁ ❁ ❁

يمكن تصنيف العلاقة بين الأنصار من جهة وبين قريش باستثناء أهل البيت عليهم السلام والمتأثرين بهم من جهة أخرى، بأنها لم تكن صافية تماما، ولذلك ما أن تجد لها مظهرا تتجلى فيه، حتى يلحظ المراقب مظاهر الكدر قد طفت على السطح، هذا مع سعي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الدائم، لتصفية الجو، وصنع الإخاء بين الفريقين.. إلا أن الأمر كان واضحا من بدايته، وكان هناك شعور بالتفوق لدى القرشيين الذين جاؤوا للمدينة، وربما محاولة فرضه في أحيان كثيرة. وهذا الأمر كان أوضح من غيره في بني أمية وحلفائهم، الذين

ظهر منهم بعد ولايتهم الشيء الكثير في هذا الصعيد.

وكانت حادثة السقيفة وما جرى فيها بعد وفاة رسول الله ﷺ، نقطة الافتراق الواضحة بين التيار القرشي الحاكم وبين الأنصار الذين تعاطف غالبهم في ذلك الوقت وإن كان على مستوى الموقف النفسي مع أهل البيت عليهم السلام [1]، واصبحوا يشعرون أنهم شركاء في المظلومية، وحلفاء في الإبعاد والتجاهل.

وبالرغم من أن قسما قليلا من الأنصار (مثل معاذ بن جبل، وأسيد بن حضير، وبشير بن سعد) قد تحالفوا من البداية مع ذلك الخط القرشي الذي أصبح حاكما فيما بعد، وقد أخذوا ثمن ذلك التحالف بالنسبة لأشخاصهم ولكن لم يتعد الأمر هذا المقدار، وأصبح الأنصار في ذيل القائمة، وربما كان النبي ﷺ ينظر بعين البصيرة إلى هذا الأمر، فكان يكثر من الوصية بالأنصار. وهم وأهل البيت عليهم السلام كانوا شركاء في أن النبي ﷺ أوصى بهم[2]، وكأنه كان يقرأ المستقبل.

عندما وصلت الخلافة الظاهرية لأمير المؤمنين علي عليه السلام، تنفس الأنصار الصعداء فهاهم يجدون عودة عهد النبي ﷺ في علي عليه السلام، فأقبلوا عليه مستدركين ما فاتهم من حظهم بفوات إمامته.

من بين هذه الجموع كان من الأنصار من لم يزل على هوى بني أمية،

---

(١) كان علي عليه السلام دائم التشكي من قريش فهو يقول في خطبة ١٧٢ و٢١٧ من النهج: اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري.

(٢) مع أن النبي ﷺ أوصى بالفئتين الأنصار وأهل البيت إلا أن الفرق هو أنه أوصى بالأنصار أن يحسن إلى محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم بينما أوصى الأمة بأهل البيت أن يُتبعوا، ويُهتدى بأقوالهم، وأن يقدموا في مواقع القيادة.. والعجيب أن كلتا الوصيتين لم تفذ من قبل الحاكمين لا سيما في العصور المتأخرة!!

فلما أن ولي علي عليه السلام إمرة الناس باختيارهم العام، حتى هُرع بقميص عثمان إلى معاوية رسولا من زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة، لينشره معاوية بين الناس فيبكيهم إثر الصلاة، ويبكي معهم في الملأ، (ويضحك) ساخرا من عقولهم في الخلاء.

والتحق النعمان بن بشير بشكل رسمي بمعاوية وبالخط الأموي، ليس معه غير مسلمة بن مخلد، وكان هذا هو حظ معاوية من مجتمع الأنصار!!

كان التحاق هؤلاء بالخط الأموي خروجا على المألوف، وبقي في حدوده الضيقة فلم يؤثر حتى في أقرب الناس إليهم كعوائلهم، فنحن نجد أن ابنة النعمان وهي عمرة والتي تزوجها المختار بن أبي عبيدة الثقفي قد بقيت على ولاء أهل البيت عليهم السلام، إلى أن وصلت إلى الشهادة ثابتة على هذا الخط.

وقامت صفين وجمع الأنصار إلى جانب علي عليه السلام يتسابقون إلى القتال حتى ضاق معاوية بهم ذرعا ودعا النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد فقال: يا هذان ما لقيت من الأوس والخزرج صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى والله جبّنوا أصحابي الشجاع منهم والجبان حتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا: قتلته الأنصار أما والله لأعبيّن لكل فارس منهم فارساً ينشب في حلقه ثم لألقينهم بأعدادهم من قريش رجال لم يغذهم التمر والطفيشل!!

وكان أفضل ما يصنع النعمان لو استطاع أن يفت في عضد الأنصار وأن يخذلهم عن أمير المؤمنين عليه السلام فجاء حتى وقف بين الصفين فقال: يا قيس أنا النعمان بن بشير. قال قيس: ما حاجتك. قال: يا قيس إنه قد أنصفكم من دعاكم إلى ما رضي لنفسه ألستم معشر الأنصار تعلمون أنكم أخطأتم فيخذل عثمان يوم المدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل وإقحامكم على خيولكم أهل الشام بصفين فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علياً! ولكنكم

خذلتم حقا ونصرتم باطلاً ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أعلمتم في الحرب ودعوتم إلى البراز ثم لم ينزل بعلي أمر قط إلا وهونتم عليه المصيبة ووعدتموه الظفر وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم فاتقوا الله في البقية.

قال: فضحك قيس ثم قال: ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذه المقالة إنه لا ينصح أخاه من غش نفسه وأنت والله الغاش الضال المضل

وأما ذكرك عثمان فإن كانت الأخبار تكفيك فخذها مني واحدة قتل عثمان من لست خيرا منه وخذله من هو خير منك وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث.

وأما معاوية فوالله لئن اجتمعت عليه العرب لقاتلته الأنصار، وأما قولك إنا لسنا كالناس فنحن في هذه الحروب كما كنا مع رسول الله ﷺ نتقي السيوف بوجوهنا والرماح بنحورنا حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أو أعرابياً أو يمانياً مستدرجاً بغرور؟

انظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان الذين (رضي الله عنهم ورضوا عنه)؟ !؟.

ثم انظر هل ترى مع معاوية أنصاريا غيرك وغير صويحبك ولستما والله ببدريين ولا عقبيين ولا أحديين ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن ولعمري لئن شغبت علينا لقد شغب علينا أبوك

ورد معاوية لهم هذا الموقف عندما حصل له الملك، وجاء إلى المدينة (مستعرضا انتصاره)، ودار بينه وبين قيس بن سعد بن عبادة حوار ساخن فقد قدم معاوية بن أبي سفيان حاجا في خلافته فاستقبله أهل المدينة فنظر فإذا الذين استقبلوه ما منهم (إلا) قرشي فلما نزل قال: ما فعلت الأنصار وما

بالهم لم يستقبلوني؟ فقيل له: إنهم محتاجون ليس لهم دواب!! قال معاوية (ساخراً): وأين نواضحهم؟؟

فقال قيس بن سعد بن عبادة وكان سيد الأنصار وابن سيدها: أفنوها يوم بدر واحد وما بعدهما من مشاهد رسول الله ﷺ حين ضربوك وأباك على الإسلام حتى ظهر أمر الله وأنتم كارهون فسكت معاوية[1].

كافأ معاوية النعمان وهو عملة نادرة من الأنصار إلى جانبه على ما فعل بأن عينه قاضيا في دمشق في البداية سنة ٥٣هـ، ثم ولاه الكوفة وبقي فيها إلى أن عزل أيام يزيد بعبيد الله بن زياد.

مع هذا السجل غير المشرف نجد مواقف تحمد للنعمان أيضاً، مثل ما قاله ليزيد عندما أوقف سبايا أهل البيت أمامه في الشام بعد أن استشهد الرجال في كربلاء، وسأل أصحابه عما يعمل بهم، فأشار بعضهم عليه بالقتل، وهنا قال النعمان بن بشير: اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله![2]، وتولى أمرهم بنحو طيب عندما أوكلت إليه مهمة إعادة السبايا إلى المدينة. لكن هذا لم يكن لينفعه وهو صاحب الموقف المنسجم مع الأمويين طيلة عمره..

وكما قلنا، كان النعمان يشكل حالة أموية شاذة في المجتمع الأنصاري، فإنه لم يستطع التأثير فيمن حوله، حتى ابنته عمرة فقد كانت هذه تراقب الأوضاع بوعي، وتشخص الموقف السليم الذي ينبغي أن يتخذ، لذلك ما أن قام المختار بن أبي عبيدة الثقفي (زوجها) بحركته الثأرية، حتى وقفت مناصرة له، وهي تعلم بأن الدخول في هذا المعترك سوف يكون له الثمن الباهظ، الذي قد ينتهي إلى شهادة زوجها وترملها، وربما إلى شهادتها أيضاً.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤٠ ص١٢٤.

(٢)المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤١ ص١٣٥.

بعد أن عاد بقايا التوابين من حركتهم الاستشهادية الثورية، كتب إليهم المختار الثقفي من سجنه: «أما بعد فإن الله أعظم لكم الأجر وحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلين، إنكم لم تنفقوا نفقة ولم تقطعوا عقبة ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة وكتب لكم بها حسنة، إلى ما لا يحصيه إلا الله من التضعيف فأبشروا فإني لو خرجت إليكم قد جردت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله، فجعلتهم بإذن الله ركاماً وقتلتهم فذا وتؤاما فرحب الله بما قارب منكم واهتدى ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى، والسلام يا أهل الهدى».. فردا عليه الجواب في سجنه: «قد قرأنا الكتاب ونحن حيث يسرك فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا».. فقال للرسول: لا تريدوا هذا فإني أخرج في أيامي هذه.. واستفاد المختار من مصاهرته لعبد الله بن عمر في ترتيب أمر خروجه من السجن.. ليجمع الأنصار في الكوفة تدريجيا للسيطرة عليها، وأحس عبد الله بن مطيع والي بن الزبير على الكوفة بالأمر فقام في الناس خطيبا، وقال: «أما بعد فإن أمير المؤمنين (!!) عبد الله بن الزبير قد بعثني على مصركم وثغوركم وأمرني بجباية فيئكم وألا أحمل فضل فيئكم إلا برضا منكم، ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني..!».

كان هذا الخطاب من ابن مطيع الذي تولى لتوه أمر الكوفة بعد واليها الزبيري السابق، تحديا بكل المقاييس للمجتمع الكوفي الذي كان يصنف على أنه موال لأهل البيت ولو في مستوى الموقف النفسي، فإن إغفال ذكر أمير المؤمنين علي عليه السلام كان واضحا خصوصا أنه يأتي متوافقا مع ما سمعه الناس من ترك بن الزبير الصلاة على النبي ستة أشهر عنادا لأهل البيت عليهم السلام.

فقام السائب بن مالك الأشعري وقال: أما أمر ابن الزبير إياك ألا تحمل فضل فيئنا عنا إلا برضانا فإنا نشهدك أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا

عنا، وألا يقسم إلا فينا، وألا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك رحمة عليه، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا، ولا في أنفسنا، فإنها إنما كانت أثرة وهوى، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرا وقد كان لا يألو الناس خيرا..[1]

كانت الأمور تتسارع خارج سيطرة ابن مطيع والخط الزبيري، بينما كان يشتد أمر المختار ويلتف حوله الطالبون بثأر الحسين عليه السلام، بينما التف القتلة والمجرمون الخائفون من هذه الحركة حول الزبيريين.. وهكذا تردد في الكوفة أصداء (يا لثارات الحسين، يا منصور أمت). كانت المواجهة بين مؤمنين مندفعين إلى التكفير عن التقصير يقودهم سياسي كيّس ذكي بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام وفي مقدمتهم قائد عسكري ورث من أبيه الأشتر معاني الشجاعة والبطولة والتدبير العسكري، وبين قتلة يركضون وراء الحياة والبقاء، ويقاتلون من أجل المناصب، وكانت النتيجة معروفة.. فانتصر جند المختار بعد معارك كثيرة واشتباكات في السكك والأزقة وحصروا الوالي الزبيري الذي نزل متنكرا ثم اختفى في بيت وترك القصر هاربا.

ودارت الدائرة على قتلة الحسين عليه السلام.

فعمرو بن الحجاج الزبيدي: هرب في أثناء القتال من جيش المختار الثقفي فركب راحلته ثم ذهب عليها فأخذ في طريق شراف وواقصة فلم ير حتى الساعة كما يقول الطبري في حوادث سنة ٦٦ هـ، فلا يدرى أرض بخسته أم سماء حصبته.

وشمر بن ذي الجوشن: هرب من الكوفة حتى إذا وصل قرية تسمى الكلتانية وجد علجا هناك فضربه وقال: النجاء بكتابي هذا إلى مصعب بن الزبير فمضى العلج حتى دخل قرية فيها أبو عمرة، ورأى علجاً آخر فأخذ

(١) تاريخ الطبري، ج٣ ص٤٣٥ خبر سنة ٦٦هـ.

يشكو إليه ما لقي من شمر وسمعه رجل من أصحاب أبي عمرة ورأى كتابه فسأل عن مكانه فدل عليه وذهبوا إليه.

وعبد الله بن أسيد بن النزال الجهني ومالك بن النسير البدي وحمل بن مالك المحاربي: هربوا إلى القادسية فأرسل المختار خلفه، وجيء بهم إليه فقال: يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وآل رسوله أين الحسين بن علي؟ أدوا إلي الحسين قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه في الصلاة، قالوا: بعثنا ونحن كارهون فامنن علينا واستبقنا، فقال: فهلا مننتم على الحسين واستبقيتموه وسقيتموه.. فسأل البدي: أنت صاحب برنسه؟ قيل له نعم: فقال: اقطعوا يدي هذا ورجليه ودعوه فليضطرب حتى يموت ففعل به ذلك وترك. وقدم الآخران فقتلا.

وخولى بن يزيد الأصبحي بعث خلفه معاذ بن هانئ بن عدي (ابن أخي حجر) فجاؤوا بيته، وسألوا امرأته فقالت: لا أدري وأشارت بيدها إلى موضعه فوجدوه قد وضع قوصرة على رأسه.. فجاؤوا به إلى المختار وأحرق بالنار.

وعمر بن سعد: وكان قد أخذ الأمان من المختار وأعطاه ذلك (.. إلا أن يحدث حدثاً) فكان أبو جعفر يقول: أما أمان المختار لعمر بن سعد ألا يحدث حدثا فإنه كان يريد به إذا دخل بيت الخلاء فأحدث. فأمر أبا عمرة فقتله ثم قتل ابنه حفص.

و حكيم بن الطفيل السنبسي: وكان يقول تعلق سهمي بسرباله وما ضره شيء فقبض عليه وأراد أهله أن يوسطوا أحداً عند المختار، فقال من قبض عليه لعبد الله بن كامل نخشى أن يشفع الأمير عدي بن حاتم في هذا الخبيث، فدعنا نقتله فقال شأنكم به، فنصبوه غرضا ورموه بالسهام إلى أن هلك.

وزيد بن الرقاد (الجنبي) وكان قال رميت منهم فتى بسهم وإنه لواضع كفه على جبهته يتقي النبل فاثبت كفه فيها وهو عبد الله بن مسلم بن

عقيل، فأحاطوا بداره وخرج عليهم مصلتاً بسيفه فقال بن كامل لا تضربوه بسيف ولا تطعنوه برمح ولكن ارموه بالنبل، وارجموه بالحجارة ففعلوا به ذلك، وسقط على الأرض وبه رمق فأحرقوه بالنار

و عبيد الله بن زياد: قال إبراهيم الأشتر: قتلت رجلا شرقت يداه وغربت رجلاه تحت راية منفردة على شاطئ نهر خازر فالتمسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد قتيلاً، ضربه فقده نصفين. وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين بن نمير فقتله ومحمد بن الأشعث قتل في حملة مصعب بن الزبير على جنود المختار في الكوفة.

وفرح آل محمد وشيعتهم بالأخذ بالثأر.. فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: لا تسبوا المختار فإنه قتل قتلتنا وطلب بثأرنا وزوج أراملنا وقسم فينا المال على العسرة. [1] وعن الصادق عليه السلام بسند حسن: ما امتشطت فينا هاشمية ولا اختضبت حتى بعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين عليه السلام. [2]

---

(١) الكشي بسنده عن حمدويه عن يعقوب عن ابن أبي عمير وهم ثقات عن هشام بن المثنى وهو وإن لم يوثق توثيقا خاصا إلا أنه ممن روى عنه المشايخ الثقات عن سدير والد حنان وهو ممدوح وممن روى عنه المشايخ الثقات، وقد استحسن هذا الطريق في الخلاصة وكذا السيد بن طاووس.

(٢) رواه الكشي عن إبراهيم بن محمد بن العباس الختلي وهو ممدوح عن أحمد بن إدريس عن محمد بن أحمد عن الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة عن العباس بن عامر عن سيف بن عميرة عن جارود بن المنذر هؤلاء ثقات إماميون.

يلاحظ أن في كتب الرجال هناك روايات يستفاد منها ذم المختار بن أبي عبيدة فمنها ما رواه جبرئيل بن احمد عن العنبري عن محمد بن عمرو عن يونس بن يعقوب عن أبي جعفر عليه السلام: كتب المختار بن أبي عبيدة إليعلي بن الحسين وبعث إليه بهدايا من العراق فلما وقفوا على باب علي بن الحسين دخل الآذن يستأذن لهم فخرج إليه رسوله فقال: أميطوا عن بابي فإني لا أقبل هدايا الكذابين ولا أقرأ كتبهم.

وفيه أن جبرئيل بن أحمد وهو الفاريابي لم يوثق، والعنبري لا ذكر له في الرجال ويحتمل أن يكون العبيدي محمد بن عيسى وهو ثقة، والمشكلة أيضاً في رواية يونس بن =

وقد تعرض المختار الثقفي أثناء ثورته وبعد مقتله على يد جيوش مصعب بن الزبير إلى حملة تشكيك ظالمة اشترك فيها أعداء أهل البيت من الأمويين الذين انتقم منهم ومن أنصارهم، ومن الزبيريين الذين ثار على واليهم في الكوفة وهم الذين تحالفوا فيما بعد مع من استطاع الهرب من قتلة الحسين عليه السلام.. وعملوا على تلك الحملة بشكل دقيق ومستمر مما جعل أثرها يبقى إلى الآن في كتب التاريخ والأدب. فتارة يصورونه بأنه ادعى النبوة وأن الوحي ينزل عليه وأخرى يتهمونه بأنه من الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية، ولا أدري (ولا المنجم يدري) كيف يجتمع ادّعاء النبوة مع اتّباع محمد بن الحنفية؟ والمشكلة التي ساعدت على انتشار مثل هذه التهم أن الظرف الذي كان يمر به الإمام زين العابدين لم يكن ليسمح له بإظهار علاقة المختار به..

= يعقوب وهو من أصحاب الصادق والكاظم والرضا عليهم السلام وتوفي في زمن الإمام الرضا ولم يرو عن الباقر عليه السلام أصلا، وإنما رواياته عن الباقر إما بالواسطة كما يلحظ المتتبع في الكافي والتهذيب أو مرفوعة عن الإمام الباقر كما في أصول الكافي، ولم ترد ولا رواية واحدة عنه عن الإمام الباقر، وأن يكون أبو جعفر في الرواية مقصودا به الجواد غير محتمل لوفاة يونس في زمن الرضا. فهذه الرواية مرفوعة للإمام الباقر ولا يمكن الاعتماد عليها.

وهناك روايات أخرى لو سلمت من المناقشة السندية، فإنه يمكن توجيهها بالتقية حيث أن سلطنة المختار لم تكن شاملة، وكان الإمام السجاد عليه السلام يعلم ـ حتى بالمقاييس الطبيعية للحكم على الأشياء ـ فضلا عن علم الإمامة أن أمر المختار لا يتم، فلم يكن من الصالح إظهار التأييد العلني له، أو بيان علاقته به. كما يمكن الجمع بين الروايات التي تشير إلى رفض الإمام استقباله وبين الروايات المادحة له بما ذكره ابن نما، من أن أنصار المختار جاؤوا لمحمد بن الحنفية طالبين منه النصر والتأييد، فجاء بهم إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وعرض عليه أمرهم، فقال عليه السلام: يا عم لو أن عبدا اسود تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت.. وقد لا يحتمل وضع الكتاب هذا مزيدا من التحقيق في الروايات، فيمكن لمن أراد المزيد من التفصيل مراجعة تنقيح المقال للعلامة المامقاني، وتنزيه المختار للمحقق السيد المقرم وهو مطبوع في آخر كتابه زيد الشهيد.

وجاءت جيوش مصعب بن الزبير إلى الكوفة، واستطاعت التغلب بعد جولات حامية أن تتغلب على جيش المختار وأن تحاصر المختار في قصر الإمارة، ومنعت عنهم الزاد والطعام، حتى اضطروا إلى شرب ماء البئر يخلطون به بقايا العسل والسكر لديهم، ويقاتلون برهة ثم يرجعون إلى القصر، إلى أن لم يبق معه إلا تسعة عشر نفرا فخرج فيهم إلى القتال قائلاً: «والله لا أعطي بيدي ولا أحكمهم في نفسي».. وقاتل حتى استشهد.

وجاء البطل (!!) مصعب بن الزبير الذي لم يكن ليفوقه في البطولة إلا أخوه عبد الله حين عدا على الشيوخ الكبار من أهل البيت عليهم السلام في المدينة مريدا إحراقهم أحياء لأنهم لم يناصروه!! وبعث إلى زوجات المختار الثقفي.. ودعاهن إلى البراءة منه، ففعلن ذلك إلا حرمتين له: أم ثابت بنت سمرة بن جندب، وعمرة بنت النعمان بن بشير وقالتا: كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله، كان صائم نهاره قائم ليله، قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهله وشيعته؟ فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس!!

هذا سباق البطولة والشهامة.. لو كان هناك مشتر يعرف سلعة هذه السوق، لكن لم يكن من الحضور إلا من يبيع ويشتري في سوق اللؤم والخسة والحقارة! عليهم ثياب النبلاء ربما لتخفي حقائق الدناءة عن الأنظار..

فكتب مصعب بن الزبير إلى أخيه (أمير المؤمنين!! جدا) عبد الله بن الزبير يخبره بخبرهما!! نعم فهذه قضية تمس الأمن القومي والإسلامي العام، وتؤثر على مستقبل انتشار الدين!! بلى وأكثر من ذلك؟ فكيف يقبل الزبيريون في دولة يسيطرون عليها وجود زوجة تمدح زوجها! هذا يستلزم رسولاً يطوي المسافة من الكوفة إلى المدينة ومكة، ورسولا يأتي بكتاب وفرمان من (أمير المؤمنين!!) عبد الله بن الزبير.. أرأيت إمارة المؤمنين. ؟ أرأيت مهمات أمير المؤمنين!! فكتب إليه أخوه عبد الله: إن هما رجعتا عما هما عليه (!!) وتبرأتا منه وإلا فاقتلهما..

وجاء الرسول بحل المشكلة.. فعرضها على السيف وسأل بنت سمرة عن رأيها في المختار ودعاها إلى البراءة منه ففعلت وقالت لو دعوتموني إلى الكفر مع السيف لكفرت.

وجاءت عمرة الأنصارية التي أدت شبه الأنصار، والمرء يرجع إلى أصله، والذهب يكشف عن نفسه، فسألها عن قولها في المختار زوجها، فقالت المرأة الكاملة كلاماً لو عقله ذلك الرجل الناقص مصعب، لهان عليه أن يدفن نفسه في التراب، كما دُفن ذكره في الوحل والقذارة. قالت: شهادة أرزقها فأتركها؟ كلا!! إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته.. والله لا يكون، آتي مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن أبي طالب!! اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته.

لم يستطع مصعب أن يتحمل سهام الكلام، وهو ينظر إلى صغر نفسه أمام عظمة تلك المرأة، ودناءة مطالب حياته أمام سمو الأهداف الرسالية التي عبرت عنها عمرة، وجدية السعي الأخروي لديها أمام عبثية الجهد الدنيوي عنده.. فقدمها للقتل صبراً، فضربت بالسيف ثلاث ضربات، وعرجت روحها لتصافح روح النبي الكريم وأهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم.

واستعظم فعل مصعب، لا لكونه عظيما وإن كان قد يأتي الحقير بفعل عظيم، وإنما لكونه آثما، ولا سابق له إلا في فعل الأمويين.. لذلك رُثيت من قبل الشعراء، ذاهلين من هذا الفعل.. فمتى كان قتل النساء لالتزامهن برأي يعد بطولة؟ وقال عمر بن أبي ربيعة::

إن من أعجب الأعاجيب عندي قتل بيضاء حرة عطبول

قتلوها ظلما على غير جرم إن لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول[1]

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص١٠٠.

وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت::

أتاني بأن الملحدين توافقوا على قتلها لا جنبوا القتل والسلب
فلا هنأت آلَ الزبير معيشة وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب
كأنهمُ إذا أبرزوها وقطعت بأسيافهم فازوا بمملكة العرب!!
ألم تعجب الأقوام من قتل حرة من المحصنات الدين محمودة الأدب
من الغافلات المؤمنات بريئة من الذم والبهتان والشك والكذب[1]

---

(١) تاريخ الطبري، ج٣ ص٤٩٤.



٤- أم فروة بنت
القاسم بن محمد بن أبي بكر
والدة الإمام الصادق عليه السلام

❁ ❁ ❁ ❁

« كانت أمي ممن آمنت واتقت وأحسنت والله يحب المحسنين ».

❁ ❁ ❁ ❁

لا يقدر أثرَ التربية والتوجيه إلا العارفون. فهؤلاء لا ينظرون إلى الحاضر وما فيه من تعقيدات ومشاكل، وإنما ينظرون إلى المستقبل وما سينتجه من خير وبركة وما سيخلفه توجيههم على الأجيال.

هذا ما نلحظه في اثر تربية أمير المؤمنين عليه السلام لمحمد بن أبي بكر، الذي كان في حجر علي منذ بدايات طفولته بعد أن توفي والده أبو بكر وتزوج أمير المؤمنين عليه السلام بأمه أسماء بنت عميس، وتدرج محمد في مدرسة الإمام تلميذا نجيبا يخرج من مرحلة ليرقى مرحلة أعلى وأسمى حتى صار (محمد ابني من صلب أبي بكر) كما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام وجاءت دولة الإمام ليكون فيها محمد جنديا شجاعا ومخلصا لإمامه فشارك في سلمه كما شارك في حربه إلى أن استشهد محمد على يد أعوان معاوية، بعدما أرسل إلى مصر واليا عليها من قبل أمير المؤمنين عليه السلام.

بالرغم من قصر حياة محمد إلا أن التربية التي تلقاها على يد أمير

المؤمنين عليه السلام صاغت خط حياته سبيكة ذهب صفاء. وقد نقل بدوره ذلك الانتماء إلى أبنائه، ولذلك وجدنا القاسم ابنه وجابرا[1] يكونان من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام، بل يوصف الأول في بعض الروايات بأنه من ثقات[2] السجاد تارة وأنه كان على هذا الأمر[3] أخرى.

ويظهر أنه بمقدار ما كان من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام، وأنه اختص به إلى حد أنه يرى أن أمر ابنته أم فروة إنما هو بيد الإمام لا بيده نفسه ، فقد كان منفتحا على الأفق الآخر، من خلال عمته عائشة أم المؤمنين، فقد أخذ عنها علما كثيرا، حتى لقد قيل انه كان أعلم الناس بحديثها[4].

ذات يوم جاء الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام خاطبا إلى القاسم بن محمد ابنته أم فروة (فاطمة) فقال القاسم: إنما كان ينبغي لك أن تذهب إلى أبيك حتى يزوجك[5]!! وبذلك فقد فوض أمر ابنته إلى الإمام السجاد عليه السلام. وفي هذا إشارة واضحة إلى شدة العلاقة والملازمة بينه وبين الإمام عليه السلام فلم يكن من أصحاب الإمام بالمعنى العام للصحبة، وإنما كانت صحبته بهذا المستوى.

---

(١) عده الشيخ الطوسي من أصحاب السجاد عليه السلام.

(٢) في باب مولد أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ذكر الكليني في الكافي عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن عبد الله بن أحمد عن إبراهيم بن الحسن قال حدثني وهب بن حفص عن إسحاق بن جرير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام كان سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد بن أبي بكر وأبو خالد الكابلي من ثقات علي بن الحسين عليهما السلام.. وقد يضعف الحديث لمكان إبراهيم بن الحسن كما ذكر في معجم رجال الحديث.

(٣) قاموس الرجال ج ٨ عن قرب الإسناد للحميري: عن ابن عيسى عن البزنطي قال: ذكر عند الرضا عليه السلام القاسم بن محمد وسعيد بن المسيب فقال: كانا على هذا الأمر.

(٤) مسند ابن راهويه وتاريخ دمشق.. لكن الغريب أنهم يقولون أنه روى عنها ٨١ أو ٨٨ حديثا!! ويمكن أن يجمع بين الأمرين بأنه أعلم الناس بحديثها لكنه لم يحدث به ولم يظهره إلا بهذا المقدار..

(٥) قاموس الرجال ٨ عن قرب الإسناد ص ١٥٧

ولا نعلم هل أن زواج ابنته الأخرى وهي أم حكيم التي تزوجها إسحاق[1] بن عبد الله بن جعفر (بن أبي طالب) وأنجبت له القاسم وهو والد (أبي هاشم الجعفري) هل كان ذلك الزواج أيضا من خلال توجيه الإمام السجاد أو لا؟

كان اختيار الإمام الباقر عليه السلام مناسبا ولذلك كان طبيعيا أن يتم الزواج الذي أوكل إلى أبيه السجاد عليه السلام، وجاءت أم فروة إلى بيت الإمام الباقر عليه السلام، لكي تعايش من قرب علم رسول الله، وتعب من ذلك المنهل، وقد أهلها لذلك أنها كانت «ممن آمنت واتقت وأحسنت والله يحب المحسنين»[2].. ذلك الإيمان والإحسان أهلها لأن تكون من حملة العلم الإمامي العلوي والمحمدي وهي مرتبة لا تنال إلا للخواص، ذلك أن العلم النبوي قد فرق على الناس بما يشبه (رش المطر) ولكن عند أهل البيت أصوله، ومنابعه[3].

وقد رزقها الله فهماً حسناً وذكاءً كثيراً، فظلت تتلقى عن الباقر عليه السلام علوم أجداده الطاهرين ولذلك لم تكن بحاجة بعد هذا إلى أن تأخذ مما أناله الرسول صلى الله عليه وآله لعامة الناس.. لقد استغنت بما أغناها الله به من علوم أهل البيت.. وذات مرة كانت تطوف وهي متنكرة **﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾**[4]، قال عبد الأعلى: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل ممن يطوف: يا أمة الله

---

(١) إسحاق بن عبد الله من أصحاب الإمام الصادق وكان مقدما عند السلطان، وكذلك ابنه القاسم، وأما داود أبو هاشم فهو من الطبقة العالية من أصحاب الأئمة الرضا والجواد والهادي والعسكري وكان ذا لسان وشجاعة وله شعر قوي وهو ثقة جليل القدر عظيم المنزلة.. وقد ذكرنا شيئا من ترجمته في رجال حول أهل البيت

(٢) في رواية ـ الكافي ـ عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٣) في الاختصاص للشيخ المفيد ص ٣٠٨: عن الإمام الصادق عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أنال وأنال – يشير كذا وكذا – وعندنا أهل البيت أصول العلم وعراه وضياؤه وأواخيه.

(٤) سورة الأحزاب آية/ ٥٩

أخطأت السنة، فقالت: إنا لأغنياء عن علمك[1].

وهذا العلم الذي كانت تنشره حيث تجد أرض غراس طيبة، ولذلك لما جاءت إلى بيتها مولاتها سعيدة[2] فقد استفادت هذه من أم فروة الكثير من العلم والأدب حتى بلغت مبلغاً عالياً من الإيمان والمعرفة الدينية.

❁ ❁ ❁ ❁

وإذا كانت ترى زوجة الإمام عليه السلام حجم المعاناة التي يواجهها أئمة أهل البيت عليهم السلام، فتسمع ما صنع بالإمام الحسن عليه السلام، وكيف قتل الحسين عليه السلام، وترى مقدار المضايقات التي يتعرض لها والد زوجها الإمام السجاد عليه السلام من بني أمية، وأيضا زوجها الباقر فتتألم بصمت فهي لا تريد أن تعيد إنتاج الألم، ولا تريد تكراره في حياتهم.

كما أنها تلحظ حالة المظلومية التي تلف الوضع الشيعي، من إبعاد شيعة أهل البيت عن المواقع المناسبة إلى حرمانهم من العطاء الذي هو حقهم كما هو حق غيرهم، والنظرة الماقتة لدى الكثير من أبناء الأمة تجاه هذه الطليعة وكأنهم (بتشيعهم وحبهم لآل بيت النبي) قد ارتكبوا إثماً عظيماً وجرماً خطيراً حتى أخذوا على الظنة وقتلوا على التهمة!! وقد صدق الشاعر الذي صور هذا المعنى:

إن اليهود بحبها لنبيها ... أمنت بوائق دهرها الخوان
وكذا النصارى حبهم لنبيهم ... يمشون زهواً في قرى نجران
والمسلمون بحب آل نبيهم ... يرمون في الآفاق بالنيران

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، فروع الكافي ج ٤ ص ٤٢٨: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن علي بن النعمان، عن داود بن فرقد، عن عبد الأعلى والسند صحيح.

(٢) سوف يأتي بعض الحديث عنها في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

وتتأمل في صبر الأئمة الذين هم مضرب المثل، والأسوة والقدوة في كل تلك الحالات.. فتتعجب ويحق لها ذلك، ويأتيها هدي الإمام الباقر عليه السلام مبينا لها سر صبرهم، وأن صبر شيعتهم أكثر: فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام ناقلا عن أمه أم فروة عن أبيه الباقر عليه السلام «قالت أمي: قال أبي: يا أم فروة إني لأدعو الله لمذنبي شيعتنا في اليوم والليلة ألف مرة، لانا نحن فيما ينوبنا من الرزايا نصبر على ما نعلم من الثواب وهم يصبرون على ما لا يعلمون»[1].

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١ ص٥٣٩.



٥- فاطمة بنت
علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام

وُلد لعلي بن الحسين عليه السلام خمسة عشر ولدا: مولانا محمد الباقر عليه السلام أمه أم الحسن بنت الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وعبد الله، والحسن والحسين، وأمهم أم ولد، وزيد وعمر، لام ولد، والحسين الأصغر وعبد الرحمن وسليمان لام ولد، وعلي وكان أصغر ولده، وخديجة أمها أم ولد، ومحمد الأصغر أمه أم ولد، وفاطمة، وعلية، وأم كلثوم أمهن أم ولد.

والعقب من ولد زين العابدين عليه السلام في ستة رجال: مولانا الباقر، وعبد الله الأرقط وعمر، وعلي، والحسين الأصغر، وزيد.

«بقية السيف أنمى عدداً وأكثر ولداً» كلمة قالها أمير المؤمنين عليه السلام ووجدنا تأويلها في أبنائه الطاهرين، أولئك الذي ظلت سيوف البغي تقتطف منهم الرؤوس حتى صار «القتل لهم عادة وكرامتهم من الله الشهادة»!

وإذا كانت كربلاء قد ظفرت بـ«تسعة كلهم لصلب علي قد أصيبوا وخمسة لعقيل»[1] فما ظفر الإثم بأحد منهم ولا النسيان تعدى لسيد.

---

(١) هناك اختلاف في العدد الذي يذكر في بيت فاطمة بنت عقيل، ولعله راجع إلى النظر إلى المقتولين من صلب علي عليه السلام مباشرة أو مع ملاحظة الواسطة.

هذا زين العابدين السجاد علي بن الحسين عليه السلام يعود إلى مدينة جده مثقلا بالأسى، بركب ليس فيه غير الثاكلات تجاوبها الدامعات. (ما مررت على بيت من بيوت آل أبي طالب إلا وخنقتني العبرة فإني أجدها خالية)..

لا بأس يا ابن الحسين ما سيأتي إلى الزمان على يديك، من نفحات الله سبحانه يمسح مسحة الحزن هذه، بغيث البركة، ﴿**فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ ويعود الباغي الطاغي نادما، ويصبح ذَلك درسا لمن شاء أن يعتبر من أهل الطغيان[1].

عاد زين العابدين ليملأ جو المدينة النبوية معنوية أخلاقية، ويعلم الناس طريقا صحيحا للوصول إلى الله، فما أسهل الوصول لو كان يُعرف الطريق!

كان الأعداء يتصورون أنهم «لن يبقوا لهذا البيت باقية» ولم يكن البيت واحدا، ولم يكن أثرا خارجيا وإنما ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ وكان الحسين عليه السلام (ينظر بنور الله) إلى المستقبل عندما قال لأخته زينب عليها السلام وقد نهض ابنه علي السجاد للقتال بعدما سمع استغاثة أبيه: احبسيه لئلا تخلو الأرض من نسل آل محمد صلى الله عليه وآله[2].

عاد الإمام زين العابدين عليه السلام، ليملأ تلك الأرض الطيبة من هدي

(١) أرسل عبد الملك بن مروان للحجاج الثقفي.. جنبني دماء آل أبي طالب فإني رأيت آل حرب لما تهجموا بها لم ينصروا.. يراجع اليعقوبي ج ٢

(٢) المقرم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام ص ٢٧١، ولم يكن المقصود من ذلك أن تنقطع ذرية النبي صلى الله عليه وآله نسباً، فإنه من المعلوم وجود عدد غير قليل من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وآله لم يأتوا إلى كربلاء، ولكن المقصود هو أن لا تخلو الأرض من النسل الذي يشكل امتدادا فعليا لدور رسول الله صلى الله عليه وآله في الإمامة والهداية وهذا إنما يتحقق في الأئمة المعصومين دون سواهم من ذرية الحسين فضلا عن عموم آل الرسول صلى الله عليه وآله.

جده، وما لبثنا إلا برهة حتى رأينا كيف تكشف الأرض الطيبة عن كنوزها، وتستخرج البركة معادنها.. من أبناء زين العابدين بقية الماضين، يخرج زيد بن علي واحد الناس في العلم والشجاعة والشهادة أخيرا، الذي اقتدى بجده وأكد في الأمة خط الجهاد والثورة، فأصبح راية تجمع حولها الثائرين، وسيفا مصلتا على رقاب الظالمين ورعبا في قلوب المنافقين. وتحول الفرد إلى مسيرة، ومنهج فعادت (الزيدية)[1] طريقا في التغيير والمقاومة، علامتها الفارقة الثورة على الظالمين.

ومن أبنائه أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام الذي بقر بطون العلوم، وشق عنها الحجاب وأظهر للناس علوم آبائه وأجداده الطاهرين، في وقت كانت الأمة أحوج ما تكون إلى العلم الأصيل الصافي، بعدما دخلت في الإسلام أمم كثيرة وثقافات مختلفة، وكان الوضع الرسمي الحكومي إضافة إلى انشغاله في الشهوات وغرقه في اللذات غير مؤهل لمواجهة هذا الغزو الثقافي، فكان أن أنعم الله على الأمة بنسل رسول الله لحماية دين جده وصيانة أمة الإسلام.

والجميل أن أولاد زين العابدين حتى النساء منهن كن عالمات راويات فقيهات، وهن بذلك يعطين صورة عن المرأة المسلمة حين ترتقي في سلم العلم والمعرفة، وكيف أنها حينئذ تكون أفضل من عشرات الرجال الجهلة، فقد كان لديه عليه السلام بنت تسمى علية وهذه لها كتاب يرويه عنها زرارة بن أعين الشيباني كما في رجال النجاشي وله ابنة أخرى، والأخرى وهي خديجة وكانت من الراويات فقد نقل عنهافي تفسير ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما نزل قوله تعالى ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي فجعلها [2]، وخبرها الآخر في أدب النياحة وإنه لا بد

---

(١) لسنا في صدد تقييم الزيدية كمذهب فيمكن للطالب أن يراجع (الملل والنحل) للشيخ جعفر السبحاني المجلد الخاص بالزيدية.

(٢) الحسكاني، الحاكم، شواهد التنزيل، ج ٢.

للمرأة الفاقد من أن تنوح ولكن ليس في الليل.

وأما فاطمة بنت علي السجاد عليه السلام فقد توجهت إلى رواية ما جاء في فضائل جدها أمير المؤمنين عليه السلام ناظرة إلى تلك الفترة الأموية القاتمة التي أرادت أن تطمس بظلماتها أنوار أمير المؤمنين. ذلك أنه قد اختط الأمويون سياسة زعموا أنها ستؤدي إلى إنهاء خط أهل البيت في الأمة من خلال صنع موجة تؤدي إلى إلغاء ذكر أمير المؤمنين عليه السلام، سواء من قبل أتباعه الذين وصل بهم الحال إلى أنهم كانوا إذا أرادوا أن يحدثوا عنه قالوا حدثنا أبو زينب، وذلك بعد القرار الأموي الصادر أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضائل أبي تراب! أو من قبل أعدائه الذين كانوا ينتظرون فرصتهم تلك. فقام أهل البيت عليهم السلام حرصا منهم على هداية الناس إلى الصراط المستقيم فمن ذلك ما صنعه الإمام الحسين عليه السلام حيث جمع الناس وقام فيهم خطيبا وناشدهم أن من يعرف فضيلة أو منقبة لعلي إلا ذكرها على الملأ وذكر هو بدوره ما ورد في حق أمير المؤمنين.

من هذا المنطلق توجهت فاطمة بنت علي بن الحسين السجاد إلى رواية مناقب أمير المؤمنين لا لأجل الافتخار والمباهاة فما أبغضه من خلق جاهلي، وما جاء الإسلام إلا لهدم هذه الحميات والعصبيات وإنما لأجل إرشاد الضال وهداية الجاهل، فما ذنب هذا الجيل الجديد الذي نشأ في ظل تعتيم إعلامي أموي، وسياسة إطفاء لنور الله من قبل الحاكمين؟ لا بد من إرشاده وتبصيره وإراءته معالم الطريق، ومنائر الهداية ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**﴾[1].

روت فاطمة عن عمتيها فاطمة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام عن أم كلثوم بنت علي عليه السلام عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لما اسري بي إلى السماء دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من درة

(١) سورة الأنفال آية ٤٢.

بيضاء مجوفة، وعليها باب مكلل بالدر والياقوت، وعلى الباب ستر فرفعت رأسي فإذا مكتوب على الباب « لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي القوم » وإذا مكتوب على الستر بخ بخ من مثل شيعة علي؟ فدخلته فإذا أنا بقصر من عقيق أحمر مجوف، وعليه باب من فضة مكلل بالزبرجد الأخضر، وإذا على الباب ستر، فرفعت رأسي فإذا مكتوب على الباب « محمد رسول الله علي وصي المصطفى » وإذا على الستر مكتوب: « بشر شيعة علي بطيب المولد »(١).

وكذلك روت فاطمة بنت السجاد عن عمتيها فاطمة وسكينة ابنتي الحسين بن علي عن أم كلثوم بنت فاطمة بنت النبي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها قالت: أنسيتم قول رسول الله ﷺ يوم غدير خم، من كنت مولاه فعلي مولاه؟ وقوله ﷺ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام(٢).

وقفتان:

❁ **الأولى**:

في من تروي عنهن فاطمة بنت زين العابدين عليه السلام وهما في هاتين الروايتين وغيرهما بنتا الحسين عليه السلام فاطمة وسكينة، ومع أنه من المعلوم أن فاطمة كانت من الراويات المكثرات وهذا مشهور ولكننا لا نجد في ترجمة السيدة سكينة إلا القليل، بينما نجد عند الآخرين الكثير من الغثاء والزبد الذي يذهب جفاء ولا ينفع الناس إلا بمقدار ما يميز صاحبه في الانتماء ويجعله في صف أعداء أهل البيت. سكينة التي يغلب عليها الاستغراق مع الله سبحانه وتعالى كما يقول أبوها مما ذكره أرباب السير كثيرا، والمشغولة بنشر فضائل ومناقب جدها أمير المؤمنين والملتزمة بنهج أخيها السجاد في

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار ج٦٥ ص٧٩.
(٢) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج١ ص ١٩٧

التعبد والانقطاع إلى الله تجد بعض المؤرخين المتأثرين بالنهج الزبيري ينسبون إليها ما لا يليق بعامة الدهماء من المسلمات فضلا عن المؤمنات أو نساء النبوة!!

❁ **الثانية:**

أن التركيز على مثل هذه الروايات في نقلها، هو لما لها من مضمون مهم وأساسي في بناء العقيدة الدينية.. وذلك أن الإنسان يتحدد مسيره بانتمائه، ومصيره بإمامه ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ وتركيز النبي ﷺ على تعريف أمير المؤمنين للناس إنما هو بلحاظ هذه المسألة.

(أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) ما هي منزلة هارون من موسى؟ اقرأ القرآن وتأمل في طلب موسى ضارعا من ربه ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ❁ هَارُونَ أَخِي ❁ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ❁ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ❁ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا**﴾ هناك وبعدما (أجيبت دعوتك يا موسى) تغير الخطاب الالهي من الخطاب للفرد إلى الخطاب بلسان المثنى بمقتضى المشاركة ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ❁ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ وحين يريد الخروج لميقات ربه لا يترك قومه بلا دليل أو قائد وإنما يقول لأخيه (اخلفني في قومي).

«كما أن هذا القول يقتضي حصول جميع منازل هارون من موسى لأمير المؤمنين من النبي عليه السلام إلا ما خصه الاستثناء المنطوق به في الخبر من النبوة، وما جرى مجرى الاستثناء وهو العرف من أخوة النسب، وقد علمنا أن من منازل هارون من موسى عليهما السلام هي: الشركة في النبوة، وأخوة النسب، والتقدم عنده في الفضل والمحبة والاختصاص على جميع قومه، والخلافة له في حال غيبته على أمته، وأنه لو بقي بعده لخلفه فيهم. وإذا خرج الاستثناء بمنزلة النبوة، وخص العرف منزلة الإخوة - لأن كل من عرفهما علم أنهما لم يكونا ابني أب واحد - وجب القطع على ثبوت ما عدا هاتين المنزلتين من

المنازل الآخر.

ومن تلك المنازل أنه لو بقي لخلفه ودبر أمر أمته، وقام فيهم مقامه، وعلمنا بقاء أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجبت له الإمامة بعده بلا شبهة، وإنما قلنا إن هارون لو بقي بعد موسى عليه السلام لخلفه في أمته، لأنه قد ثبتت خلافته له في حال حياته، وقد نطق به القران في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي**﴾ وإذا ثبتت له الخلافة في حال الحياة وجب حصولها له بعد الوفاة لو بقي إليها...

وقد ثبت كون هارون عليه السلام خليفة لموسى عليه السلام، على أمته في حياته ومفترض الطاعة عليهم، وإن هذه المنزلة من جملة منازله منه، ووجدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم استثنى ما لم يرده من المنازل بعده بقوله: «إلا أنه لا نبي بعدي» فدل هذا الاستثناء على أن ما لم يستثنه حاصل لأمير المؤمنين عليه السلام بعده، وإذا كان من جملة المنازل الخلافة في الحياة وثبتت بعده فقد تبين صحة النص عليه بالإمامة»[١].

ومثله التأمل في حديث الغدير فإن من تأمل فيه بمقدماته وظروفه المحيطة به، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» في إشارة لقول الله ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ ثم تعقيبه ذلك بقوله: «ألا فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» كما نقله أرباب المجامع الحديثية بطرق مختلفة[٢]..

إن هذه الروايات التي يُعتنى بنقلها والتذكير بها، يقصد من ذلك تحديد إشارات المرور المؤدية إلى الجنة بعد العبور على الصراط المستقيم، ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾.

(١) الطبرسي، الشيخ أحمد بن علي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١ ص٣٣١

(٢) للتفصيل يراجع الغدير للعلامة الأميني (الذي جمع كل الصيد في جوف الفرا) فأوعى.



المصادر

١- **ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة،** طباعة دار إحياء الكتب العربية.

٢- **ابن حنبل،** الإمام أحمد، **مسند أحمد،** دار صادر – بيروت.

٣- **ابن شهرآشوب،** رشيد الدين أبو عبدالله، محمد بن علي، **مناقب آل أبي طالب.**

٤- **ابن طيفور،** أبو الفضل بن طاهر، **بلاغات النساء،** بلاغات النساء،نشر مكتبة بصيرتي – إيران.

٥- **ابن كثير، البداية والنهاية،** دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦- **الأزدي،** أبو مخنف، **مقتل الحسين** عليه السلام، المطبعة العلمية، قم – إيران.

٧- **الأصفهاني،** أبو الفرج، **مقاتل الطالبيين،** مؤسسة دار الكتاب – قم.

٨- **الأميني،** عبد الحسين أحمد، **الغدير في الكتاب والسنة والأدب،** دار الكتاب العربي – بيروت.

٩- **البحراني،** الشيخ عبدالله، **عوالم العلوم،** (حياة الإمام الحسين عليه السلام).

١٠- **التستري،** الشيخ محمد تقي، **قاموس الرجال،** مؤسسة النشر الإسلامي – قم.

١١- **الحاكم الحسكاني،** عبيدالله بن عبدالله بن أحمد، **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل،** طبع التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي – إيران.

١٢- **الري شهري،** محمد، **ميزان الحكمة،** مؤسسة دار الحديث الثقافية – قم.

١٣- **السجستاني،** أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود،** دار الفكر – بيروت.

١٤- **الصدوق**، الشيخ محمد بن علي بن الحسين، **معاني الأخبار**، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين - قم.
١٥- **الطبرسي**، الشيخ أحمد بن علي، **الاحتجاج**، منشورات دار النعمان - النجف.
١٦- **الطبرسي**، الشيخ الفضل بن الحسن، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، منشورات دار النعمان - النجف.
١٧- **الطبري**، محب الدين، **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**، مكتبة القدسي.
١٨- **الطبري**، محمد بن أبي القاسم، **بشارة المصطفى ﷺ لشيعة المرتضى**، مؤسسة النشر الإسلامي - قم.
١٩- **الطبري**، محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك**، مؤسسة الأعلمي - بيروت.
٢٠- **العاملي**، السيد جعفر مرتضى، **الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ**، دار الهادي، دار السيرة، بيروت - لبنان.
٢١- **العاملي**، محمد بن الحسن الحر، **وسائل الشيعة**، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم.
٢٢- **عبده**، الشيخ محمد، **نهج البلاغة**، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
٢٣- **العسقلاني**، أحمد بن علي بن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
٢٤- **العسكري**، مرتضى، **معالم المدرستين**، مؤسسة النعمان - بيروت.
٢٥- **القاضي المغربي**، **شرح الأخبار**، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين - قم.
٢٦- **كحالة**، عمر، **أعلام النساء**.
٢٧- **الكليني**، الشيخ محمد بن يعقوب، **أصول الكافي**، دار الكتب الإسلامية - طهران.

٢٨- **الكليني**، الشيخ محمد بن يعقوب، **فروع الكافي**، دار الكتب الإسلامية - طهران.
٢٩- **مجلة عالم المرأة**، عدد أكتوبر عام ١٩٨٥م.
٣٠- **المجلسي**، الشيخ محمد باقر، **بحار الأنوار**، مؤسسة الوفاء - بيروت.
٣١- **المسعودي**، علي بن الحسين، **مروج الذهب**، دار القلم - بيروت.
٣٢- **المفيد**، الشيخ محمد بن محمد، **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، دار المفيد، بيروت - لبنان.
٣٣- **المقدسي**، ابن قدامة، **المغني**، دار الكتاب العربي - بيروت.
٣٤- **المقرم**، عبد الرزاق، **العباس** عليه السلام، منشورات الشريف الرضي، بيروت.
٣٥- **النقدي**، الشيخ جعفر، **الأنوار العلوية**، المطبعة الحيدرية - النجف.



المحتويات